مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة الثامنة والعشرون . العدد ٣١٦ . ذو الحجة ١٤٣٤ هـ . أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٣ م

أين مواقع المصلحين

حين الشدائد والفتن؟

حوار مع رئيس

حزب الرشاد السلفي اليمني

نظرات في

يُسر الشريعة الإسلامية

معالم في الحج

9 771658 646803 >

منافع

رفيقك في رحلة الحج

حقيبة منافع لهذا العام ١٤٣٤هـ

والتي تحتوي على:

- لتأخذوا عني مناسككم .
- من وحي الحج .
- أعمال الحاج اليومية .

رفيقك في رحلة الحج

الرياض

هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ (٥٠٠ – ٥٠٢)

فاكس: ٤٥٣٢١٢١

جوال: ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥

٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢

٠٥٠٣٤٠٩٨١٦

٠٥٠٦٤٦١٠٥٦

جدة - مكة - المدينة

جوال: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

الجنوبية

جوال: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية

جوال: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩

القصيم

جوال: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

البيان
AL BAYAN

sales@albayan.co.uk
www.albayan.co.uk

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

المـوزعـــون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطـر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغـرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمـن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجـامعة القـديمة، هـاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
د. فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام بن سعد داود

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي
صلاح الدين عبده الحجري

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

اشتراكات البيان Whatsapp & SMS
٠٠٩٦٦٥٥٤١٩٢٤١٣

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وايرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

الافتتاحية

٦ **لبيك اللهم لبيك**
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **ابن تيمية ومقاصد شرعية غائبة**
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

١١ **نظرات في يُسر الشريعة الإسلامية**
د. هاني بن عبدالله الجبير

كلمات في المنهج

١٦ **معالم في الدعوة والتربية والمنهج من حديث جابر**
أ. د. ناصر بن سليمان العمر

قضايا دعوية

٢٤ **أين مواقع المصلحين حين الشدائد والفتن؟**
أ. د. سليمان بن حمد العودة

٣٤ **على مَنْ يتنزَّل النصر؟**
د. أشرف عبد المنعم

قضايا تربوية

٣٨ **التربية في الحلقات القرآنية**
فايز بن سعيد الزهراني

٤٤ **أسباب الارتقاء وموانع السقوط**
أحمد عبد المجيد مكي

٤٨ **حقيقة الغناء.. رؤية إيمانية نفسية تربوية**
د. جمال بادي

حوارات

٥٠ **حوار مع رئيس حزب الرشاد السلفي اليمني**
أجرى الحوار: أحمد الصباحي

معركة النص

٥٦ **الاستدلال الأعمى**
د. فهد بن صالح العجلان

المسلمون والعالم

٦٠ الأزمة المصرية.. سيناريوهات المستقبل
طلعت رميح

٦٤ الغرب والموقف من الثورة السورية
مازن أبو بكر عبد الله باحميد

٦٨ الضربة العسكرية المرتقبة على سورية
محمد قطب

٧٢ مرصد الأحداث — عمرو عبد البديع

عين على العدو

٧٤ اليهود والتوتر بين غزة ومصر
د. عدنان أبو عامر

قصة قصيرة

٧٦ أصعب من ضربة سيف — بسام الطعان

فكرية

٧٨ سقوط الليبرالية! — محمد وفيق زين العابدين

إعلام

٨٠ التلاعب بالعقول.. دور الإعلام في الثورة المضادة
سمير حمدي

نص شعري

٨٣ سفينة المسلمين في العيد
علي بن أحمد المطاع

تاريخية

٨٤ نشأة الشيعة عند المستشرقين
د. فرست مرعي

قراءة

٩٠ أحاديث وأسمار.. كتاب يجمع بين الفائدة والمتعة
شمس الدين درمش

الورقة الأخيرة

٩٤ من بركات الحرمين
د. أحمد بن عبد المحسن العسَّاف

[كلمة صغيرة]

الشام.. وتداعي الأمم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.. وبعد:

«خلافٌ بين روسيا وفرنسا على سبل وقف سفك الدماء في سورية...» عنوانُ خبر نشرته الـ BBC العربية بتاريخ ١٧ سبتمبر ٢٠١٣م يعيد إلى الذاكرة خلافاً بين روسيا وفرنسا انتهى بما يعرف في التاريخ بـ «حرب القرم» (The Crimean War)؛ فكلا الدولتين اختلفتا حينها – وما زالتا تختلفان – على نصيبهما من جسد الأمة الإسلامية.

كان سببُ حرب القرم الرئيسُ هو الخلاف على حماية القدس – التي كانت حينئذ تحت حكم العثمانيين – وحقوق النصارى فيها؛ إذ كانت روسيا تنافح عن أتباعها من النصارى الأرثوذكس، بينما تولت فرنسا الكاثوليكية الدفاع عن حقوق الكاثوليك؛ أما الدولة العثمانية فكانت «رجلاً مريضاً جِدٌّ مريض» كما وصفها الإمبراطور الروسي نيقولا الأول.

تحركت جحافل الروس قاصدة القسطنطينية (إسطنبول) –عاصمة الروم البيزنطيين الأولى قبل أن تنتقل إلى موسكو–، لتضمن وصايتها على الكنائس الشرقية الأرثوذكسية، والتقت جيوش العثمانيين، فلما رجحت كفتهم على كفة العثمانيين تدخَّلت فرنسا وبريطانيا إلى جانب العثمانيين. هل كان ذلك حباً في نصرة الحق وأهله؟ كلا، لكن لئلا تنهش دِببة الروس جسد الدولة العثمانية فلا تُبقي للكنيسة الرومية الغربية شيئاً؛ حينها تراجعت روسيا وانتقلت مقاليد كنائس القدس إلى الفرنسيين والكنيسة الرومية الكاثوليكية.

كتب رئيس أساقفة باريس معلقاً على الحرب فقال: «إن حرب القرم، بين فرنسا وروسيا، ليست حرباً سياسية، دولة تقاتل دولة، أو شعب يقاتل شعباً؛ إنما هي حرب دينية، حملة صليبية...».

فهل تعلّم المسلمون درساً من تاريخ تلك الحقبة؟ إن كثيراً منهم لم يسمع بحرب القرم، فضلاً عن أن يتعلم من دروسها شيئاً! إن الروم بشقيها الشرقي (روسيا) والغربي (أوروبا وأمريكا) يتنازعان بلاد الشام منذ أكثر من عامين أيهما ينال نصيب «الأسد»، فهل ستظل الحكومات العربية كالأيتام على موائد اللئام؟ ألا ليت المحللين (والمحرمين) السياسيين تنحوا جانباً ليتركوا للتاريخ وصف الواقع الذي يعيد نفسه كثيراً.

لبيك اللهم لبيك

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ورحمة الله لعباده الصالحين، محمد بن عبد الله ﷺ.. أما بعد:

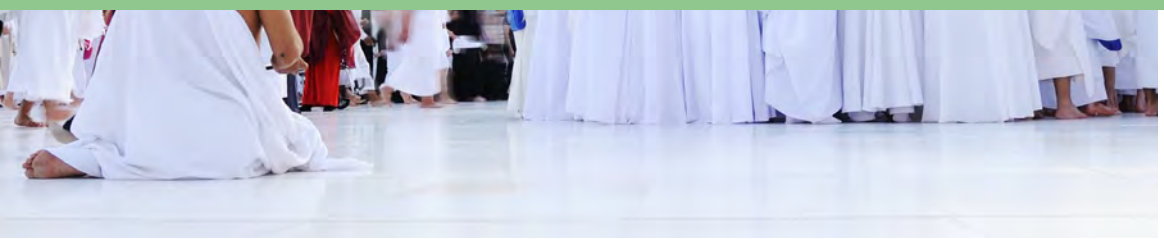

فإن فريضة الحج من أجلِّ الفرائض الدينية التي فرضها الله على عباده، لدرجة أن التكاسل عن أدائها حتى تدرك العبد منيّته وقد وجد ما يحج به من غير أن يحج؛ يُخشى على إيمان العبد بسببه، فقال عز من قائل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، ومن أجل ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً»[١]. وقد جعل الله للحاج الذي يحج حجاً كاملاً غير منقوص، الأجرَ العظيم والمنزلة التي لا تدانيها منزلة، فقال ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[٢]، وقال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[٣]. بل إن عظم منزلة الحج كافٍ لتكفير كل الذنوب والآثام التي اقترفها المسلم في سنيه السابقة على الحج، سواء كانت معاصي أو كبائر أو شركاً، فهذا عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه يقول: «فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه. قال: فقبضت يدي. قال: «ما لك يا عمرو؟». قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟». قلت: أن يغفر لي. قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله»[٤].. فالحج يهدم ما كان قبله من ذنوب وآثام وشرور وشرك، فضلاً من الله ونعمة، واستخدم لفظ الهدم للدلالة على المبالغة في الإزالة والمحو، وإذا كان الحج بهذه المنزلة فلأن شعار الحج الذي يلخّص كل أركانه وواجباته ومستحباته التلبيةُ التي تكون بمنزلة تكبيرة الإحرام للصلاة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». ولبيك تعني مداومة

(١) قال ابن كثير: «إسناده صحيح» ٢/ ٨٥ تفسير ابن كثير.
(٢) أخرجه البخاري رقم ١٥٢١.
(٣) أخرجه أحمد برقم ١٤٤٨٢.
(٤) مسلم في صحيحه رقم ١٩٢.

الاستجابة لأمر الله تعالى في كل شأن من شؤون المسلم الدينية والدنيوية، وإفراد الله تعالى بهذه الاستجابة، ومن ثم جاء في الحديث: فأهل بالتوحيد لبيك اللهم لبيك، فهي تعني إجابة بعد إجابة، من قولهم: ألب بالمكان، إذا أقام به، فكأنه قال: أنا مقيم على طاعتك مداوم عليها لك وحدك وملازم لها لا أفارقها قد أفردتك بها فأنت أهل أن تطاع وأنت أهل أن تعبد وأن نقيم على طاعتك بلا فتور أو إخلال، يُريد بذلك أنِّي صرت مجيباً لدعوتك مسرعاً إليها مُقيماً على طَاعَتك ممتثلاً لأوامرك مجتنباً لنواهيك، فهي متضمنة للإجابة والإقامة؛ الإجابة لله والإقامة على طاعته. وتبدأ هذه الطاعة والعكوف عليها من أول دخول المسلم في النسك، فيخلي نفسه من كل ما يشده إلى الدار الفانية، ويحلق بطموحه إلى دار البقاء، فيتجرد من المخيط من الثياب، ويكتفي بإزار ورداء يستر عورته ويكشف ذله وافتقاره لربه، مهلاً بالتلبية مقبلاً على ربه، ما أجمل شعور المسلم عندما يلبس ثياب الإحرام، إنها من أسعد اللحظات التي تمر بالمسلم رغم أن الإحرام يمنعه من كثير من الأمور التي كان يأتيها وهو حلال قبل الإحرام، لأنه يشعر أن الله تعالى قد استدعاه لذلك، ما يعني إكرام الله له بدعوته واختصاصه بذلك الفضل العظيم، قال ابن المنير: مشروعية التلبية تنبيه على إكرام الله تعالى لعباده بأن وفودهم على بيته إنما كان باستدعاء منه سبحانه وتعالى، فهو مدعو لزيارة بيت الله، ولقد كان لهذه الكلمة وقعها ومكانتها في نفوس أهل العلم حتى قال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: «إني أخشى أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فيقول: لا لبيك ولا سعديك». ولقد أحرم جده زين العابدين علي بن الحسين فلما أراد أن يقول اللهم لبيك أو قالها غشي عليه وسقط من ناقته فهشم وجهه رضي الله عنهم أجمعين. وكانت إجابة المسلم لداعي الحج تعني عنده أنه ممن استجاب لدعوة إبراهيم عليه السلام عندما أمره ربه وأذن في الناس بالحج، قال ابن حجر: «روى الفاكهي بإسناد صحيح من طريق مجاهد عن ابن عباس قال قام إبراهيم على الحجر فقال يا أيها الناس كتب عليكم الحج فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء فأجابه من آمن ومن كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك». فيا لها من بشرى يبتهج بها قلب المؤمن ويسعد ويطرب، ولذلك تجد كثيراً من المسلمين يتابع بين الحج والعمرة فلا يكاد يمر موسم من مواسم الحج والعمرة إلا وقد شد رحله إلى حيث مهوى أفئدة المؤمنين وحزب الله الصالحين، يسوقه الشوق والحنين إلى تلك الديار، فلا معنى للمشقة ولا شعور بها حتى يقول القائل:

وسرنا نشق البيد للبلد الذي
بجهد وشق للنفوس بلغناه
رجالاً وركباناً على كل ضامر
ومن كل ذي فج عميق أتيناه
نخوض إليه البر والبحر والدجى
ولا قاطع إلا وعنه قطعناه
ونطوي الفلا من شدة الشوق للقا
فتمسي الفلا تحكي سجلاً قطعناه
ولا صدّنا عن قصدنا فقد أهلنا
ولا هجر جار أو حبيب ألفناه

والمسلم يظل يردد التلبية ويرفع بها صوته من حين مروره بالميقات ولا يقطع التلبية حتى يصل إلى المسجد الحرام وتكتحل عيناه برؤية الكعبة البيت الحرام.

وما تقدم من صيغة التلبية هي الصيغة التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان هذا لا ينفي الزيادة عليها من جنسها كما كان عبد الله بن عمر يزيد في تلبيته ويقول: لبيك لبيك لبيك وسعديك، والخير في يديك لبيك، والرغباء إليك والعمل. وكان الناس يقولون لبيك ذا المعارج.. ونحوه من الكلام. والنبي عليه السلام يسمع فلا يقول لهم شيئاً، وإن عمر كان يقول بعد التلبية: لبيك ذا النعماء والفضل والثناء الحسن، لبيك مرهوباً منك ومرغوباً إليك. وكان أنس يقول في تلبيته: لبيك حجاً حقاً تعبّداً ورقاً.

فالعبد يقبل على ربه معلناً فقره وذله له، طالباً رحمته ورضاه، مظهراً توحيده، مكثراً ذكره في تلك الفريضة التي هي فريضة العمر التي قد لا يتاح لأكثر الناس تكرارها، فليحرص المسلم على تكميل حجه والقيام بأركانه وواجباته ومستحباته؛ لعل الله أن يوفقه للحج الكامل فيكون ممن رجع من حجه بعد انتهائه من ذنوبه كمن ولد الساعة بغير ذنب ولا معصية.

نسأل الله من فضله أن يوفق الحجاج إلى الحج المبرور، وأن يتقبله منهم برحمته وفضله.

ابن تيمية
ومقاصد شرعية غائبة

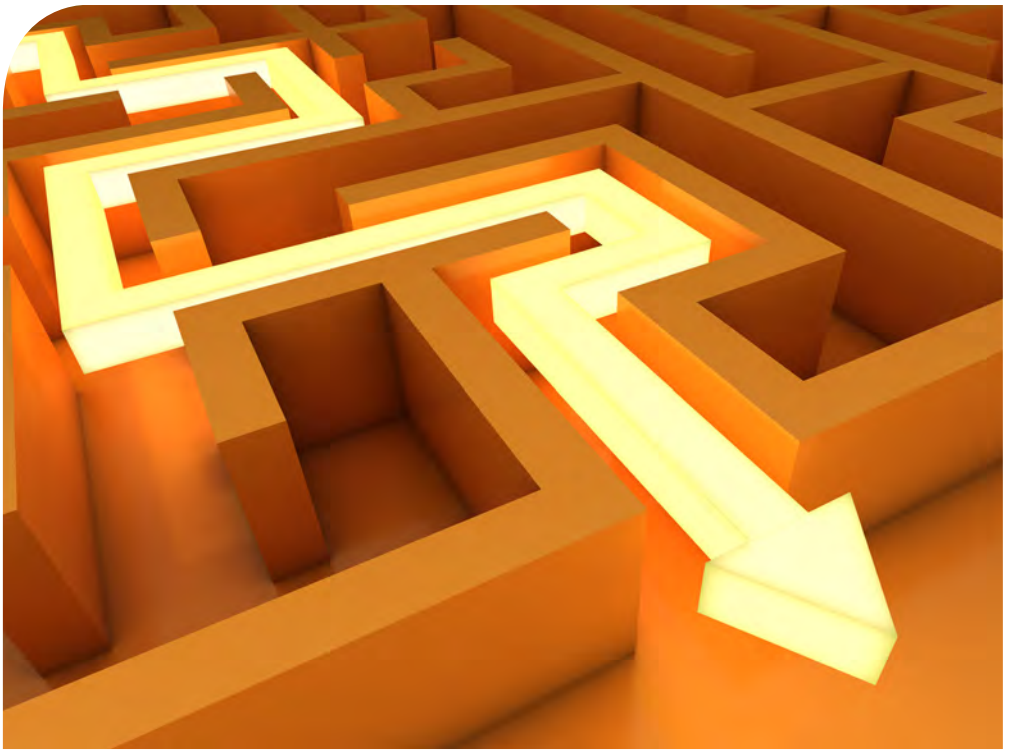

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.n#t
@dralabdullatif

غالب المتحدثين عن مقاصد الشريعة يعوّلون على ما كتبه الشاطبي – رحمه الله –، ويجعل بعضهم سائر العلماء تبعاً لما حرره الشاطبي في المقاصد، كما فعلوا مع ابن تيمية، دون النظر في مواطن التميّز والاستقلال لكل منهما.

وفي تراث ابن تيمية معالم جليلة وتقريرات بديعة في شأن مقاصد الشريعة، تكشف رسوخه في التحقيق والتأصيل للمقاصد، وتظهر تفرّده ومخالفته الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة – ومن تأثر بهم – الخائضين في هذا الباب.

(*) أستاذ مشارك سابق في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

ولعل هذه السطور التالية تفتح الباب إلى هذا الموضوع الكبير.

• كثيراً ما يقرر ابن تيمية أن الإنسان مضطر إلى شرع في حياته الدنيا[1]، وأن هذا في طبيعة الإنسان كما في قوله ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام[2]»، فهو حارث أي عامل كاسب، فالشرع من لوازم وجود بني آدم، فمن لم يأمر بالشرع المنزّل أمر بضد ذلك[3].

وكما أن الشرائع ضرورة لبني الإنسان، فهي قرة العيون وسرور القلوب، وليست مجرد تكاليف.. كما حرره ابن تيمية بقوله: «لم يجيء في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي، كقوله «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها».. أي وإن وقع في الأمر تكليف فلا يقع إلا قدر الوسع، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً، مع أن غالبها قرة العيون، وسرور القلوب، ولذات الأرواح، وكمال النعيم..»[4].

• احتفى ابن تيمية بالأوامر الشرعية، باعتبار أن المأمورات مقصودة لذاتها، وقرَّر أن جنس فعل المأمورات آكد من جنس ترك المنهيات[5]، فقال – رحمه الله –: «لا ينهى عن منكر إلا ويؤمر بمعروف يغني عنه، كما يؤمر بعبادة الله سبحانه، وينهى عن عبادة ما سواه، والنفوس خلقت لتعمل لا لتترك، وإنما الترك مقصود لغيره، فإن لم يشتغل بعمل صالح، وإلا لم يترك العمل السيئ، أو الناقص..»[6].

وبيّن – رحمه الله – أن من لم يفعل المأمور، فعل بعض المحظور.. فكان مما قال: «وهكذا أهل البدع لا تجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة، ولا تجد صاحب بدعة إلا ترك شيئاً من السنة..»[7].

(١) ينظر: التدمرية ص٥٠٠، الإيمان ص٤٠، جامع الرسائل ٢/ ٢٢١، المجموعة العلية ٢/ ٢٠١.
(٢) أخرجه أبو داود ح (٤٩٥٠)، وأحمد (٤/ ٣٤٥).
(٣) ينظر: الاستقامة ٢/ ٢٩٤.
(٤) الفتاوى ١/ ٢٥–٢٦، وينظر: شفاء العليل لابن القيم ص٤٧٥.
(٥) انظر: الفتاوى ٢٠/ ٨٥.
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦١٧.
(٧) كتاب الإيمان ص ١٦٤.

«ومتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن»[8].

ولما قرر أن النفوس خلقت لتعمل لا لتترك، انتقد – في موطن آخر – المتفلسفة ونحوهم في تعويلهم على السلب والنفي للصفات الإلهية، وأما الأفعال والسلوك فيغلب عليهم الذم والترك من الزهد الفاسد والورع الفاسد من غير أن يأتوا بأعمال صالحة[9].

والحاصل أن الشرائع المأمور بها مقصودة لذاتها، وبلزومها يخلص العبد من المنهيات، ويسلم من الكسل والبطالة والعجز.

• اعتنى أبو العباس ابن تيمية بإظهار مقاصد الشرائع تفصيلاً، فقال عن الحج: «فالمقصود من الحج عبادة الله وحده في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها، ولهذا كان الحج شعار الحنيفية..»[10].

وحدد مقصود الجهاد بقوله: «المقصود بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الإمكان..»[11].

وأوجز مقصود الولايات والإمارات – كولاية الحرب والقضاء والإمامة العظمى ونحوها –، فقال: «جميع الولايات في الإسلام مقصودها أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لذلك..»[12].

• إذاً تقرر من خلال الأمثلة السابقة – كالحج، والجهاد، والولايات – أن المقصود منها: عبادة الله وحده، وإقامة الدين كله لله.

فهذا يتسق مع تقريرات ابن تيمية بأن العبادة أصلها القصد والإرادة، وأن الله تعالى هو المألوه أي المعبود المقصود المراد المطلوب[13].

فعبادة الله هي أشرف الغايات، وهي مقصودة في نفسها، خلافاً للمتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة ممن جعل العبادات وسيلة لتهذيب الأخلاق!

(٨) الاقتضاء ٢/ ٥٩٧.
(٩) انظر: الفتاوى ٢٠/ ١٢٦.
(١٠) الاقتضاء ١/ ٨٣٠.
(١١) الفتاوى ٣٥/ ١٦٠.
(١٢) الفتاوى ٢٨/ ٦١ (الحسبة).
(١٣) ينظر: الفتاوى ١/ ٢٢، ١٠/ ٢٧٢، ٩/ ٣١٩.

فقال - رحمه الله -: «للناس في مقصود العبادات مذاهب، منهم من يقول: المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس وتعديلها.. وليست هي مقصودة في نفسها، وهذا قول متفلسفة اليونان، وقول من اتبعهم من الملاحدة والإسماعيلية وغيرهم من المتفلسفة الإسلاميين، كالفارابي وابن سينا وغيرهم، ومن سلك طريقتهم من متكلم، ومتصوف، ومتفقّه»[1].

• انتقد ابن تيمية قوماً من الأصوليين الذين يعللون الأحكام الشرعية بحفظ مصالح دنيوية، ويهملون ما يتعلق بصلاح القلوب وتزكية البواطن، فقال: «وقوم من الخائضين في أصول الفقه وتعليل الأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة، إذا تكلموا في المناسبة، وأن ترتيب الشارع للأحكام على الأوصاف المناسبة يتضمن تحصيل مصالح العباد ودفع مضارهم، ورأوا أن المصلحة نوعان: أخروية، ودنيوية، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس، وتهذيب الأخلاق من الحكَم، وجعلوا الدنيوية ما تضمن حفظ الدماء والأموال والفروج والعقول والدين الظاهر، وأعرضوا عما في العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله، وأحوال القلوب وأعمالها: كمحبة الله، وخشيته، وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، والرجا لرحمته، ودعائه..»[2].

وهذا التحرير السابق هو تعقيب لمن قال: إنما حُرّم الميسر لمجرد المقامرة، أو لمجرد أكل أموال الناس بالباطل.. فبيّن ابن تيمية أن علة التحريم جاءت منصوصاً عليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ﴾ [المائدة: ٩١]، فوقوع العداوة والبغضاء من أعظم الفساد، وصدود القلب عن ذكر الله وعن الصلاة من أعظم الفساد.. فكيف تجعل مفسدة المال هي حكمة النهي فقط، وهي تابعة، وتترك المفسدة الأصلية التي هي فساد القلب[3].

• جعل الفلاسفة مقصود الشرائع إقامة مصالح الناس في دنياهم بالعدل الذي شرعته الأنبياء[4]، لا لأن ذلك يوجب السعادة في الآخرة، وفي كلام أبي حامد الغزالي ما يميل إلى هذا، كجعله منفعة علم الفقه في الدنيا فقط[5].

• وكشف ابن تيمية زيف الذين يجعلون الشرائع لمصالح دنيوية، ولا يقيمون ليوم الآخرة وزناً، ولا يرفعون بذلك رأساً.. فكان مما قاله: «ليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس في الأمور الدنيوية، كما يقوله طوائف من المتفلسفة في مقصود النواميس والنبوات أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم في الدنيا من القانون العدلي الذي ينتظم به معاشهم.

• إلى أن قال: وهؤلاء المتفلسفة الصائبة المبتدعة من المشّائين، ومن سلك مسلكهم من المنتسبين إلى الملل في المسلمين واليهود والنصارى؛ يجعلون الشرائع والنواميس لوضع قانون تتم به مصلحة الدنيا، ولهذا لا يأمرون فيها بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده، ولا بالعمل للدار الآخرة، ولا ينهون فيها عن الشرك، بل يأمرون فيها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد، ونحو ذلك من الأمور التي لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها..»[6].

فكأن ابن تيمية يتحدث عن واقعنا الحاضر، فقد استحوذ النَفَس الدنيوي في هذا العصر، فانهمكوا في الحديث عن ثقافة الحقوق المعاشية والدنيوية، واقتصروا في الأخلاق على ما يحقق مصالح الدنيا وحظوظها فحسب، وغاب التذكير بالإيمان بالآخرة، وغلب الاهتمام بالعمران والحضارة وشبهها من أحوال الدنيا والمعاش، وصار الاهتمام بالحِكَم الدنيوية في العبادات والمعاملات، والغفلة عن الحِكَم الأخروية، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وأخيراً، فهذا الشرع المنزّل أعظم الضرورات، وهو أتمّ نعمة، وأعظم سرور، وعبادة الله ولزوم شرعه أشرف الغايات والمقاصد، فلا يسوغ أن يكون وسيلة لغيره، ولا يصلح أن تكون مجرد حظوظ الدنيا مرادةً من الشرع مع الإعراض عما هو خير وأبقى من صلاح القلب ونعيم الآخرة والشوق إلى لقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم.

(١) الجواب الصحيح ٤/ ١٠٥.
(٢) الفتاوى ٣٢/ ٢٣٤= باختصار يسير.
(٣) ينظر: الفتاوى ٣٢/ ٢٢٤-٢٣٣.
(٤) ينظر: الدرء ٧/ ٣٣٣، والفتاوى١٧/ ٣٣٠.
(٥) ينظر: الرد على حزب الشاذلي ص ٢٠٣.
(٦) جامع الرسائل ٢/ ٢٣١- ٢٣٣= باختصار.

نظرات في يُسر الشريعة الإسلامية

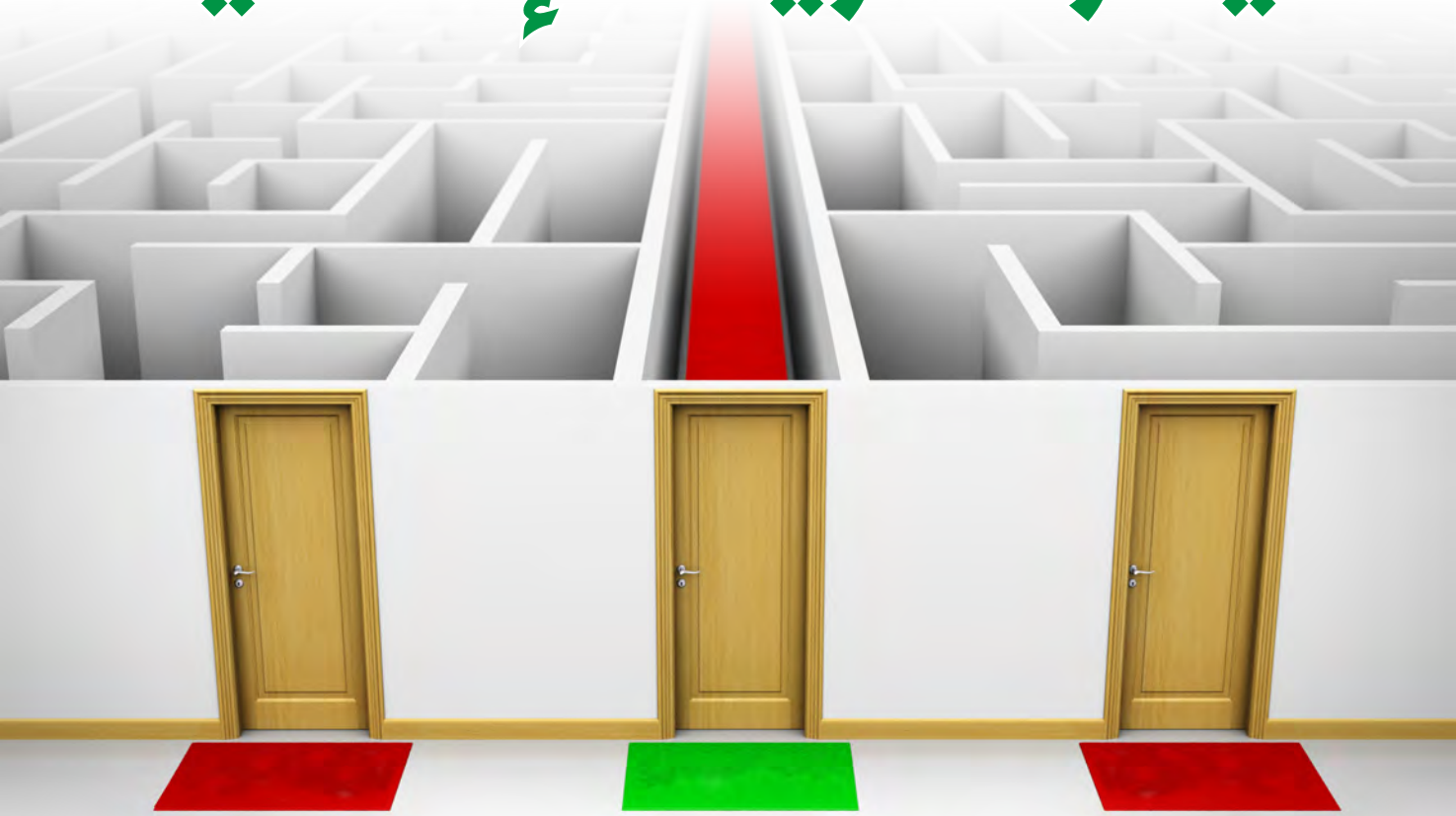

■ د. هاني بن عبدالله الجبير(*)

الشـــريعة الإســـلامية جاءت بالتخفيف والتيسير ورفع المشـــقة والحرج، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال النبي ﷺ: «إنما بعثتم ميســـرين ولم تبعثوا معسرين»(١).

وفي مســـند الإمـــام أحمـــد أن النبي ﷺ قـــال: «بعثت بالحنيفية السمحة»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُـــمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر»(٣).

فهذه كلها أدلة على أن الشـــريعة الإسلامية شريعة سهلة يسيرة، وأن أي حكم خرج عن التسهيل والسهولة واليسر إلى ضده من المشقة والعنت والحرج، بمعنى: أنه خلاف السهولة

(*) قاضٍ شرعي في محكمة الرياض.

(١) أخرجه البخاري (٢١٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسند أحمد (٢٢٣٤٥)، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري (٣٩).

واليســـر؛ فهو ليس من الدين، فالشـــريعة الإسلامية جاءت برفع الحرج عن المكلفين بمراعاتها الظرف، والزمان، والمكان، والوضع الاجتماعي، والسياســـي؛ الذي يعيش المكلفون فيه؛ فليس الحكم للقوي مثل الضعيف، ولا للآمن مثل الخائف، ولا منْ كان في حال الســـعة والاختيار كمن كان في حال الحاجة والاضطرار.

ولـــذا؛ كان من قواعد الفقه الأساســـية: المشـــقة تجلب التيســـير، وهذه القاعدة ليس المراد منها: أن في هذا الدين عســـراً، وإنما المراد: أنه قد يطرأ عســـر ومشقة في ظروف الإنسان المكلف يستوجب التخفيف والتيسير.

مثال ذلك: فرض الله تعالى الصلاة والصيام علينا، وليس فيها مشـــقة في حالة الاعتياد، فيستطيع الإنسان أن يصوم وأن يصلي الصـــلاة في وقتها، فيصليها أربع ركعات، لكن قد تدخل المشقة على المكلف بســـبب ظرف السفر، فاستوجبت حصول نوع من التيســـير، وهو تخفيف الصلاة الرباعية إلى ركعتين، والإذن بالجمع بين الصلاتين في وقت إحداهما فيما يجمع بعضه لبعض، وأن يؤذن له بالفطر في الســـفر على أن يقضيه بعد ذلك.

فهذا نوع من التيســـير لحق بالمكلف بسبب ظرف أصابه، وإلا فالشريعة كلها يسر وســـهولة؛ لذلك فعلى من يدعو إلى التيسير في الأحكام الشرعية أن يعلم ولا بد وأن يستقر عنده أن الشريعة بوضعها الذي أنزله الله تعالى على نبيه كلها يسر وسهولة، فإن الله تعالى رفع عن هذه الأمة ما كان على الأمم السابقة من الإصر والأغلال والحرج، فليس في هذه الشريعة مشقة حتى يأتي من يطالب بالتيسير فيها.

يقول الشـــيخ محمد الطاهر بن عاشور: (فعموم الشريعة لســـائر البشر في ســـائر العصور مما أجمع عليه المسلمون، وقد أجمعوا على أنها مع عمومها صالحة للناس في كل زمان ومـــكان، ولم يبيّنوا كيفية هذه الصلوحية؛ وهي عندي تحتمل أن تتصور بكيفيتين:

الكيفية الأولى: أن هذه الشـــريعة قابلة بأصولها وكلياتها للانطباق على مختلف الأحوال بحيث تساير أحكامها مختلف الأحوال دون حرج ولا مشقة ولا عسر.

الكيفية الثانية: أن يكـــون مختلف أحوال العصور والأمم قابلاً للتشـــكيل على نحو أحكام الإسلام دون حرج ولا مشقة ولا عســـر كما أمكن تغيير الإســـلام لبعض أحـــوال العرب والفـــرس والقبط والبربـــر والروم والتتـــار والهنود والصين والترك من غير أن يجدوا حرجاً ولا عســـراً في الإقلاع عما نزعوه من قديم أحوالهم الباطلة)[1].

معنى المشقة وأنواعها:

وليتضح المقصود بتخفيف الشرع عند ورود المشاق، نحتاج إلى أن نتبيّن معنى المشـــقة في التكليف. والمشـــقة ترد على أمرين:

الأول: ترد على الظروف التي تصيب الإنســـان من مرض وفقر وغير ذلك.

الثاني: ترد على التكليفات نفسها.

وعلى هذا تأتي المشقة على مرتبتين:

الأولى: مشـــقة لا يقدر عليها المكلف وتخرج عن قدرته، وما كان كذلك فلا يكلف به الإنسان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الثاني: مشـــقة يقـــدر عليها المكلـــف، لكن بحرج وصعوبة تخـــرج عن المعتاد، فهذه المشـــقة التي تخرج عـــن المعتاد إذا وجدت في أفعال مخصوصة (كالصوم في السفر مثلاً)، فإن الله تعالى شرع فيها التيسير.

أما الأفعال الكلية فليس في تشـــريعها مشقة، ولا يمكن أن تكون الأفعال الكلية التي جاءت بها الشـــريعة فيها مشقة، فلا يمكن أن تكون في الصلوات الخمس المفروضة أو الوضوء أو الصيام أو الزكاة مشـــقة، لكن قد ترد المشـــقة في النوافل إذا أكثر منها الإنســـان؛ ولذلك أمر الشـــرع المكلف بالتوسط والاعتدال فيها، كما قال النبـــي ﷺ: «عليكم من الأعمال ما تطيقـــون فإن الله لا يمل حتى تملـــوا»[2]؛ لأن النوافل قد ترد فيها مشـــقة خارجة عن المعتاد في أفعال كلية، فلذلك أمرهم النبي – عليه الصلاة والسلام – بلزوم التوسط والاعتدال بألا يدخلوا على أنفسهم المشقة بفعل كلي من أفعال النوافل، لكن مجرد الفرائض ليس فيها مشقة.

كذلك النوافل على الوجه الذي ليس فيها مبالغة ليس فيها مشقة، وحد المبالغة في النوافل يتفاوت بينها وليس له ضابط، لذلك النبي – عليه الصلاة والســـلام – قال للأعرابي الذي قال: والله لا أزيد على الفرائـــض. قال: «أفلح إن صدق»[3].

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ٩٢ – ٩٣.

(٢) أخرجه البخاري (١١٠٠)، ومسلم (٧٨٢) واللفظ له، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١)، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

وقال لابن عمر: «يا عبد الله! لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل»[1].

والمشـــقة المعتادة هي: التي لا يؤدي الاســـتمرار عليها إلى الانقطاع عـــن العمـــل، أو الانقطاع عن بعضـــه، أو الإخلال بالمكلف.

فالانقطـــاع عن العمـــل معناه: أن يصيب الإنســـان الملل والسأم والفتور، أو الانقطاع عن بعضه فلا يكمله، أو الإخلال بالمكلف، بمعنى: أن يؤثر على حقوق أخرى مطالب بها، لذلك في قصة ســـلمان وأبي الدرداء لما أراد أن يقوم فأمره بالنوم، وأراد أن يصـــوم فأمره بالفطر، قـــال: «إن لربك عليك حقاً، ولنفســـك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً»[2]، فأمره بمقتضى التوسط الذي لا يدخل الإخلال على المكلف.

وكذلك: «لما أمر النبي ﷺ ابن عمر بألا يختم القرآن في كل ليلة، وألا يصوم كل يوم»[3]؛ لأنه يؤدي به هذا إلى الانقطاع عن العمل، كما وقع منه رضي الله عنه في آخر حياته.

عنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْـــرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لِي رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَلَمْ أُخْبَـــرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَلَا تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ فَإِنَّ لِجَسَـــدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْجِـــكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ بِحَسْـــبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَـــهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَـــنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً قَالَ فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّـــلَام وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ قُلْتُ وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّـــلَام قَـــالَ نِصْفَ الدَّهْرِ فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُـــولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ.

قال في فتح الباري[4]: (قَالَ النَّوَوِيُّ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَبِرَ وَعَجَزَ عَنْ الْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا الْتَزَمَهُ وَوَظَّفَهُ عَلَى نَفْسِـــهِ عِنْد رَسُول اللَّه ﷺ فَشَقَّ عَلَيْهِ فِعْلُهُ لِعَجْزِهِ، وَلَمْ يُعْجِبْهُ أَنْ يَتْرُكَهُ لِالْتِزَامِهِ لَهُ، فَتَمَنَّى أَنْ لَوْ قَبِلَ الرُّخْصَةَ فَأَخَذَ بِالْأَخَفِّ، قُلْت: وَمَعَ عَجْزِهِ وَتَمَنِّيه الْأَخْـــذ بِالرُّخْصَةِ لَمْ يَتْرُكْ الْعَمَلَ بِمَا الْتَزَمَهُ، بَلْ صَارَ يَتَعَاطَى فِيهِ نَوْع تَخْفِيف كَمَـــا فِي رِوَايَة حُصَيْنٍ: « وَكَانَ عَبْد اللَّه حِين ضَعُفَ وَكَبِرَ يَصُوم تِلْكَ الْأَيَّام كَذَلِكَ يَصِلُ بَعْضَهَا إِلَى بَعْض ثُمَّ يُفْطِر بِعَدَدِ تِلْكَ الْأَيَّام فَيَقْوَى بِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُول: لَأَنْ أَكُونَ قَبِلْت الرُّخْصَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَدَلَ بِهِ، لَكِنِّي فَارَقْته عَلَى أَمْر أَكْرَه أَنْ أُخَالِفَهُ إِلَى غَيْرِه).

لكن لو أن إنســـاناً يلتزم نوافـــل لا تؤدي به إلى الانقطاع عن العمل، فلا حرج عليـــه، وهذا يتفاوت بين الناس، ولذلك نجد فعل الســـلف في تفاوتهم في الأخذ بالعبادات، وتفاوتهم في التشديد والتيسير على أنفسهم؛ نعرف أن مرده إلى هذا، فمـــن الناس من يكون تحمّله أكثر فلا تكون هذه العبادة التي يفعلها من قبيل المشـــقة الخارجة عن المعتاد، ومنهم من يكون تحمّله أقل فيكون فعله خارجاً عن المعتاد، فيلزم أن يترك فعله إلى ما هو أقل منه.

قال ابن تيمية: (وَقَدْ يَكُونُ الْعَمَلُ الْمَفْضُولُ أَفْضَلَ بِحَسَبِ حَالِ الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ؛ لِكَوْنِهِ عَاجِزًا عَنْ الْأَفْضَلِ أَوْ لِكَوْنِ مَحَبَّتِهِ وَرَغْبَتِهِ وَاهْتِمَامِـــهِ وَانْتِفَاعِهِ بِالْمَفْضُولِ أَكْثَرَ فَيَكُونُ أَفْضَلَ فِي حَقِّهِ لِمَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِنْ مَزِيدِ عَمَلِهِ وَحُبِّهِ وَإِرَادَتِهِ وَانْتِفَاعِهِ كَمَا أَنَّ الْمَرِيضَ يَنْتَفِعُ بِالدَّوَاءِ الَّذِي يَشْتَهِيهِ مَا لَا يَنْتَفِعُ بِمَا لَا يَشْتَهِيهِ وَإِنْ كَانَ جِنْسُ ذَلِكَ أَفْضَلَ)[5].

وقد ترد المشـــقة بمعنى: المشقة التي لا تخرج عن المعتاد، فمجرد خروج الإنسان من بيته وذهابه إلى المسجد فيه مشقة، بمعنى أن الأسهل له الجلوس في بيته.

وكذلك مجرد امتناع الإنسان عن الطعام والشراب وبقية المفطرات من طلوع الفجر إلى المغرب فيه مشقة، لكنها ليست خارجة عن المعتاد.

والمشقة بهذا الاصطلاح تأتي بها التكاليف ولا يشرع فيها تخفيف، بل لا تقوم حياة أحد إلا بمثل هذه المشقة، فمجرد عمله في الدنيا وســـعيه فيها فيه مشقة، ومجرد حياته المعتادة فيها مشقة، فكذلك التكليفات الشرعية قد جاءت بمثل هذه المشقة التي لا تخرج عن المعتاد، وإلا لو لم تكن هذه المشـــقة موجودة لكان الناس كلهم طائعين، ولما وجد عاصٍ في هذه الدنيا.

وتأتي المشـــقة بمعنى: خروج المكلف عـــن مقتضى هواه وغرائز شـــهوته، فهذه المشقة جاءت الشـــريعة بها ولا يعذر المكلـــف بوجودها، فمجرد هواه ورغبته وميله لا يكون ســـبباً للتخفيف، والمشقة هنا جاء الشـــرع بعدم الالتفات إليها كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَـــدَتِ السَّـــمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال النبي – عليه الصلاة والسلام –: «لا يؤمن

(١) أخرجه البخاري (١١٠١) واللفظ له، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٦٧) واللفظ له، عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه، ومسلم (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) انظر: صحيح البخاري (١٨٧٥)، صحيح مسلم (١١٥٩).

(٤) (٦ / ٢٤٦) باب حق الجسم في الصوم.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣١١).

أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1]. ومن تأمل الشرع وجد أن كثيراً من أحكامه تنصب في إخراج المكلف من دائرة هواه ودواعي ونوازع شهوته.

فيتلخّص مما سبق: أن المشقة ترد بمعنى: المشقة المعتادة، والمشقة التي هي إخراج الإنسان عن هواه، ولا ترد بمعنى: خروج الإنسان عن المعتاد، ولا بما لا يقدر عليه.

أما المشقة التي تعني الظروف التي تصيب الإنسان فهي على قسمين:

القسم الأول: مشقة عظيمة تخرج عن المعتاد، مثل: إنسان يريد أن يصلي في المسجد وفي طريقه إلى المسجد ظالم يريد أن يأخذه، فهذه مشقة خارجة عن المعتاد، وقد جاء الشرع بالتخفيف والتيسير فيها.

القسم الثاني: المشاق اليسيرة، وهي ليست على درجة واحدة، فمنها: صداع يسير يصيب الإنسان، أو ألم في بعض أصابعه، فهذا لا يقتضي التيسير.

فإذا كان في الطريق من بيته إلى المسجد لصلاة الجماعة مطر وخروجه يؤدي به إلى أن تبتل ثيابه، فالمطر مشقة يترك الجماعة بسببها، فإذا قيل: ما الفرق بينها وبين الصداع اليسير؟ نقول: هذه المشاق جاء فيها نص من الشارع فنقف عنده، وهو: «أن رسول الله ﷺ كان يأمر المؤذن إذا كانت ليلة باردة أو ذات مطر في السفر أن يقول: ألا صلوا في رحالكم»[2].

أما ما لم يرد فيه نص من الشارع فترجع إلى ما تقدم من تفاوت واختلاف المكلفين، وهذه ليس فيها ضابط، بل كل إنسان ينظر في نفسه، وكل إنسان يكون فقيه نفسه.

وحاصل ما سبق أن المشاق الواردة على الإنسان: إما أن تكون مشاقاً عظيمة تستدعي التخفيف، وإما أن تكون قد ورد الشرع بالتخفيف والتيسير فيها، مثل: السفر والمطر، فهذا مورد للتخفيف، سواء كان شاقاً أو لا، وما لم يرد فيه نص فإنه يرجع اعتباره إلى حال الإنسان؛ لذا قال الشاطبي: (الرخصة إضافية لا أصلية)[3]، بمعنى: أن ينظر فيها باعتبار كل شخص، فكل أحد في الأخذ بها فقيه نفسه، ما لم يوجد فيها حد شرعي، فإذا وجد الحد الشرعي انتهينا إليه، ولذلك قال الناظم:

والقول في ضبط المشاق مختلف
بحسب الأحوال فيما قد عرف

وإذا تأملنا موقف الإمام أحمد، فمن المعلوم أن من أُكره على قول كلمة كفر يباح له أن يقولها، فلما جاء يحيى بن معين إلى الإمام أحمد بعد اندفاع فتنة القول بخلق القرآن، وكان يحيى بن معين – رحمه الله تعالى – قد أجاب في هذه الفتنة بقصد التخلص من هذا الأذى الذي أصابه؛ امتنع الإمام أحمد عن محادثته تأنيباً له، فالإمام أحمد لم يجعل فعل يحيى بن معين محل رخصة، بل هجره على هذه الكلمة، فقال له يحيى بن معين: (عمار بن ياسر أكره على كلمة الكفر).

ومع ذلك لم يرخص له الإمام أحمد؛ لأنه يقول: هذه الأمور ترجع إلى تفاوت الناس، فمن الناس من لا يتكلم بكلمة الكفر ولو أكره، وقال: يحتج بحديث عمار وحديث عمار مررت بهم وهم يسبونك فنهيتهم فضربوني وأنتم قيل لكم نريد أن نضربكم، أي أن عمار ضُرِب، وأنتم قيل لكم ستُضربون[4].

لذلك لما جاءه عبدالرحمن بن مهدي وقال له وقت الفتنة وهو يعذب: (يا أبا عبد الله! عليك عيال، ولك صبيان، وأنت معذور. كأنه يسهل عليه الإجابة. فقال الإمام أحمد: إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت)[5]، أي: إذا كان هذا مستوى تفكيرك فقط أنك تبحث عن رخصة فأنت مرتاح، ثم قال له: اخرج فانظر، فخرج فرأى طلاب العلم معهم القراطيس والأقلام يكتبون ما يقوله الإمام أحمد، قال: أوضل كل هؤلاء؟! أي: فيحسبون أن هذا هو اعتقاد السلف وهو منهجهم فيقفون عنده.

الاستطاعة شرط للتكليف:

ومن أوجه يسر هذه الشريعة أن تكليف الله تعالى للعباد لا يكون إلا بما يقدرون عليه، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[6]، فالذي لا يستطيعه الإنسان لا يجب عليه؛ لأن الله تعالى يمكن أن يكلفنا بشيء لا نقدر عليه.

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (١/٢١٢-٢١٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/١٢).
(٢) أخرجه مسلم (٦٩٧)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) الموافقات (١/٣١٤).
(٤) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/١٦٤).
(٥) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/٢٥).
(٦) أخرجه البخاري (٦٨٥٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فلو جاء الشـــرع بتكليف ما لا يدخل تحت قدرة العبد – لو فرض هذا –، فالتحقيق أن التكليف إنما وقع بسوابق هذا الفعل غير المقدور أو بلواحقه وليس التكليف به هو.

مثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمـران: ١٠٢]، أي: أمـــرك بالموت وأنت مســـلم، فجلب الإنسان الموت لنفسه مما لا يدخل تحت قدرته، وإنما المراد: الشيء السابق عليه، وهو: أن تدخل في الإسلام حتى يجيء الموت وأنت عليه.

كذلك: الأمر بحب من أمرنا الله تعالى بحبه، وبغض من أمرنا الله تعالى ببغضه، فالحب والبغض لا يتحكم الإنسان فيهما، فلا يقدر أن يبغض ويحب كما يريد.

إذاً: التكليـــف يكـــون في مثـــل هذه الأمور بالســـوابق وباللواحق، والسوابق معناها: التأمل في فضل هذا الإنسان الذي أمرنا بحبه، وفي إحســـانه، وفي ســـبقه، وفي مزاياه، ومحاسنه؛ حتى يورث هذا التأمل محبته.. وكذلك بلواحقه، فإذا أحببنا النبي ﷺ اتبعنا هديه، وإذا أحببنا أبا بكر وعمر ترضينا عنهما ودعونا لهما.

ولذا يقرر الشـــاطبي أن الإنســـان لو تعاطى السوابق واللواحق ولم يتمكن من تعاطي الفعل نفسه الذي وقع عليه التكليـــف، وهو غير مقدور عليـــه؛ فإنه لا يؤاخذ، مع أنه لا يتصور هذا عقلاً[1].

فمثلاً: لو تعاطى الإنسان أسباب المحبة، وتأمل الفضل، وتأمل السبق، وتأمل الإحسان، ثم ترضى عمن أمرنا بحبه، لكـــن لم تقع في قلبه محبـــة؛ فهو غير آثم، مع أن هذا غير متصور عقلاً؛ إذ إن كل من تأمل محاسن أحد فإنه لا بد أن يورث هذا التأمل في قلبه المحبة.

وبعدمـــا ذكر هذه القاعدة قال رحمه الله: (وهذا باب من الفقه من أدركه وفهمـــه حل له كثيراً من المعضلات، وبخاصة فـــي أبواب أعمال القلوب والمقاصد والنيات؛ لأن من الأمور ما تكون داخلة على الإنسان اضطراراً، مثل: الحسد وحب الدنيا وحب الجاه والكبر، فهذه أحياناً تدخل على الإنسان اضطراراً، بمعنى: أنه لا يســـتطيع أن يتخلص من الحسد، لذلك قيل: ما خلا جسد من حسد، لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه.

(١) انظر: الموافقات (٢/١٠٨).

ولما سئل بعض السلف: أيحسد المؤمن؟ قال: «لا أباً لك، أما أنســـاك بني يعقوب!»[2]، فأخوة يوسف حسدوه – عليهم السلام –).

فالإنسان هنا يكون مطالباً فقط بالسوابق واللواحق.

فمثلاً: إذا حسد فهو مطالب بألا يعتدي وألا يبغي وألا يظلم وألا يتكلم بالشـــر، وأيضاً مطالب قبل ذلك بألا يتمنى زوال النعمة عن أخيه، وأن يعتـــرف بنعمة الله تعالى عليه، وأن الله تعالى منعه لحكمة عظمية فيه.

مثال آخر: إنســـان رأى امرأة حســـناء بغير قصد منه فوقعـــت محبتها في قلبه، وهو رآهـــا نظرة واحدة فصرف بصره عنها؛ فهو هنا ليس مكلفاً ومؤاخذاً بما يقع في نفسه من المحبـــة، وإنما هو مكلف ومؤاخـــذ بلواحق المحبة، أي: أنه مأمور بالتعفـــف، والبعد عن مواضع الريبة، والبعد عن المجاهرة بالســـوء، والبعد عن الجلوس لها أو الارتباط بها إلا بالحلال.

وعموماً نقول: إنه لا يجب على الإنســـان شـــيء إلا إذا كان تحت قدرته، وأما ما لا يقدر عليه فإنه غير مكلف به.

وبعد.. فهذه نظرات في بعض من وجوه عظمة التشريع الإســـلامي، وموافقته مقتضى الفطرة البشرية، وما تتصف به من توسّـــط بأتباعها بين الغلو والجفـــاء، آخذة بأبنائها طريقاً لا يقطعهم عن نيل مقاصدهم البشرية، ولا يقعدهم عن تبتلاتهم الروحية، مشـــبعة حاجة الجســـد والروح في تناسق مبهر واتساق فريد.

اللهم يا مقلب القلوب ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك.

(٢) أخرجه ابن السري في الزهد (٢/٦٤٢) واللفظ له. وانظر: التمهيد (٦/١٢٦)، وتفسير القرطبي (٩/١٣٨).

معالم في الدعوة والتربية والمنهج

من حديث جابر

أ.د. ناصر بن سليمان العمر(*)
@naseralomar

يعــدُّ حديث جابر بن عبدالله بــن عمرو بن حرام الأنصــاري رضــي الله عنهما، من الأصــول في كتاب الحج، فعبد الله بن حرام صحابي جليل نقيب بدري له مناقب وفضائل مشهورة، وابنه جابر بايع تحت الشجرة، وشهد العقبة، والمشاهد كلها سوى بدر وأحد، فقد كان يخلف أباه في شؤون أهله، وكانت له أخوات.

قال الذهبي فــي ترجمته: «الإِمَامُ الكَبِيْرُ، المُجْتَهِدُ، الحَافِظُ، صَاحِبُ رَسُــوْلِ الله ﷺ أَبُو عَبْــدِ الله، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَنْصَارِيُّ، الخَزْرَجِيُّ، السَّلِمِيُّ(١)، المَدَنِيُّ، الفَقِيْهُ. مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَكَانَ آخِرَ مَنْ شَهِدَ لَيْلَةَ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ»(٢).

وقــال: «وَكَانَ مُفْتِي المَدِيْنَةِ فِي زَمَانــه، عَاشَ بَعْدَ ابْنِ عُمَرَ أَعْوَاماً، وَتَفَرَّدَ، وَشَــاخَ، وَذَهَبَ بَصَرُهُ، وَقَارَبَ التِّسْعِيْنَ»(٣).

(*) الأمين العام لرابطة علماء المسلمين.

(١) السَّلِمي هكذا يضبطها أكثر أهل الحديث، وأما أهل اللغة فيضبطونها السُّلَمي، بفتح اللام، والنسبة لبني سَلِمة بطن من الخزرج، ووافق اللغويين في هذا الضبط بعض أهل الحديث كما ذكر ذلك الحافظ ابن رجب.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٨٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٩٠.

والمقصود نحــن مع حديث يرويه إمــام في الضبط والفهــم والفقــه والديانة، وهو حديــث دال على ضبطه ودقته، فســياقه الحســن الطويل، وتخريجــه في أصح الكتب، واحتجــاج الناس به على من خالفه؛ كل ذلك يدل على إمامة راويه وتقدمه رضــي الله عنه وأرضاه، وهذا الحديث له مكانة عند أهل العلم اعتنوا به قديماً وحديثاً، قال الإمام النووي: «حديــث جابر رضي الله عنه - وهو حديث عظيم - مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد، وقد تكلــم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا. وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً، وخرَّج فيه من الفقه مائة ونيفاً وخمســين نوعاً، ولو تقصى لزيد على هذا القدر قريب منه»(٤). ولا يزال الناس يكتبون في حديث جابر ويؤلفون المؤلفات النافعة في شــرحه، وفقه أحكامه. والمقام لا يتسع للحديث عما تضمنه هذا الحديث من الفقه، وقصدي ههنا الوقوف مع فوائد ومعالم تضمنها في المنهج والتربية والآداب، أعرضها باقتضاب، فمن ذلك:

(٤) شرح النووي على مسلم ٨/ ١٧٠.

أولاً:

الحديث يرويه عن جابر رضي الله عنه محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب أبو جعفر المعروف بالباقر الإمام الخامس عند الاثني عشـــرية، والراوي عنه ابنه جعفر الصادق الإمام السادس عند الاثني عشرية، وقد افترت عليهما الرافضة وكذبت كثيراً حتى قال بعض أهل العلم في الباقر: «ليس يروي عنه من يحتج به»[1]، وهذا خرج مخرج الغالب، وإلا فمثل هذه الرواية المثبتة في الصحيح حجة بإجماع أهل السنة، والمقصود أن أبا جعفر الباقر، وابنه جعفر الصادق؛ كانا إمامي هدى، يتولان الصحابة ويحبانهم، استفادا من علمهم، وطلبا السنة عند أكابرهم، لكن الأفّاكون – قاتلهم الله – افتروا عليهما، فلا يجوز أن نطعن في الباقر أو الصادق – رحمهما الله، بل علينا أن نتولاهما، وأن نعلم أنه كُذب عليهما. ومما ينبغي أن نعلمه أنهما كانا يجلان أبا بكر وعمر، قال محمد بن فضيل بن غزوان، عن سالم بن أبي حفصة: سألت أبا جعفر محمداً بن علي وجعفر بن محمد عن أبي بكر وعمر، فقالا لي: يا سالم تولهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدى[2]. وقال إســـحاق بن يوســـف الأزرق عن بسام الصيرفي: سألت أبا جعفر، قلت: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فقال: والله إني لأتولاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما[3]. وقال أبو نعيم عن عيسى بن دينار المؤذن: سألت أبا جعفر عن أبي بكر وعمر، فقال: مسلمان رحمهما الله. فقلت له: أتولاهما وأســـتغفر لهما؟ قال: نعم. قلت: أتأمرني بذلك؟ قال: نعم – ثلاثاً –، فما أصابك منهما فعلى عاتقي! وقال بيده على عاتقيه، وقال: كان بالكوفة عليٌّ خمس ســـنين، فما قال لهما إلا خيراً، ولا قال لهما أبي إلا خيراً، ولا أقول إلا خيراً[4].. والآثار عنهم في هذا المعنى محفوظة.

(١) قاله ابن سعد في الطبقات ٥/٣٢٣.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ١/١٧٥ (١٧٦) بإسناد حسن، ورواته شيعة! والآجري في الشريعة ٥/٢٢٢٥ (١٧٠٨)، والدارقطني في فضائل الصحابة ص٣٣ (٢٤)، وغيرهم.

(٣) أخرجه الدارقطني في فضائل الصحابة ص ٣٧ (٣٧)، بإسناد جيد.

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٤/٢٨٨، وسنده جيد.

ثانياً:

في قول محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «دخلنا على جابر بن عبد الله، فسأل عن القوم، حتى انتهى إليَّ، فقلت: أنا محمد بن علي بن حسين، فأهوى بيده إلى رأسي، فنزع زري الأعلى، ثم نزع زري الأسفل، ثم وضع كفه بين ثديي، وأنا يومئذ غلام شاب، فقال: مرحباً بك يا ابن أخي، سل عما شئت..» الحديث؛ ردٌّ على الرافضة من وجوه عدة، منها:

- استفادة الباقر رحمه الله العلم من صحابة رسول الله ﷺ.
- ومنها أن الأئمة لا يعلمون الغيب، فإذا كان عالماً للغيب ما احتاج لأن يسأل جابر بن عبدالله رضي الله عنه.
- ومنها أن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما الذي كان يجله الباقر رحمه الله، كان يجل الصحابة ويروي الأحاديث في فضائلهم، لا سيما أبي بكر وعمر، فمن ذلك حديثه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ وَسَمِعْتُ خَشْفَةً فَقُلْتُ مَنْ هَذَا فَقَالَ هَذَا بِلَالٌ وَرَأَيْتُ قَصْراً بِفِنَائِهِ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا فَقَالَ لِعُمَرَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ فَقَالَ عُمَرُ بِأُمِّي وَأَبِي يَا رَسُولَ اللهِ أَعَلَيْكَ أَغَارُ، وهو في البخاري[1]، ولجابر أحاديث كثيرة يرويها عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، بل روى محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله، قال: مشيت مع رسول الله ﷺ إلى امرأة من الأنصار، فذبحت لنا شاة، فقال رسول الله ﷺ: (ليدخلن رجل من أهل الجنة)، فدخل أبو بكر، فقال: (ليدخلن رجل من أهل الجنة)، فدخل عمر، فقال: (ليدخلن رجل من أهل الجنة)، فقال: (اللهم إن شئت فاجعله علياً)، فدخل عليٌّ، الحديث في مسند أحمد[2]، وحسنه جمع من أهل العلم.
- ومنها أن جابراً نقل خيراً عن ذلك الجيل، فقد ذكر العدد العظيم الذي حج مع رسول الله ﷺ، وبيّن حرصهم على الائتمام به، وعملهم بما عمل به ﷺ، والرافضة لا تعتقد ذلك في صحابة رسول الله ﷺ.

(١) صحيح البخاري (٣٤٧٦)، وصحيح مسلم (٢٣٩٤).
(٢) مسند أحمد ٣/٣٨٧، وانظر تخريجه في (١٥١٦٢) من طبعة الرسالة.

ثالثاً:

يظهر في الحديث بجلاء حرص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والجيل الأول من التابعين على الخير وتعلم هدي النبي ﷺ، والائتمام به رجالاً ونساء، ومن ذلك:

- مجيء أبي جعفر الباقر رحمه الله وحرصه على السؤال مع صغر سنه: (وأنا يومئذ غلام شاب)، يعني صغير، وقد كان مولده رحمه الله سنة ٥٦هـ، ووفاة جابر بن عبدالله رضي الله عنهما كانت بعد السبعين على قول، وقيل قبلها، وقد أضرَّ بآخر عمره، فالظاهر أن هذا الحديث يرويه والباقر عمره نحو ١٥ سنة أو قريباً منها.
- ومن ذلك ضبط جابر رضي الله عنه خبر الحج، وسياقه هذا السياق الحسن بعد أكثر من ستين سنة.
- قوله فيه: (فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتمَّ برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله)، جاءوا من الأصقاع والبلدان ليأتموا ويتعلموا ويعملوا، وهذا يدلنا على شيء من أجواء ذلك الجيل العلمية والإيمانية.
- قوله فيه: (فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس، محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟ قال: اغتسلي، واستثفري بثوب، وأحرمي)، وهذا أمر عجب والله! فذو الحليفة قريب جداً من المدينة، وهذا يدل على أن أسماء رضي الله عنها كانت تشعر بالطلق وآلام المخاض، ومع ذلك بلغ من حرصها رضي الله عنها على تلك الحجة أن خرجت في تلك الحال، ثم لما نفست وذلك قبل أن تحرم، ما فكرت في الرجوع! فلا إله إلا الله أين نساء المؤمنين من تلك صويحبات تلك العزمات.
- قوله: (فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواء، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكبٍ وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به)، فانظر إلى هذا الجم الغفير، كيف يرمق رسول الله ﷺ ليعمل بعمله، (ما عمل به من شيء عملنا به)، ما كانوا يتساءلون: واجب هو؟ لا! يكفي أن رسول الله ﷺ عمله ليحرصوا على العمل به.

• حرصهم على السؤال عما أشكل عليهم، ومن ذلك:

– سؤال سراقة بن جعشم في الحديث لما قال رسول الله ﷺ: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة. فقام سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله! ألعامنا هذا، أم لأبد؟ فشبَّك رسول الله ﷺ أصابعه، واحدة في الأخرى، وقال: دخلت العمرة في الحج، مرتين، لا بل لأبد أبد».

– سؤال علي رضي الله عنه عما صنعته فاطمة رضي الله عنها لما حلت ولبست الصبيغ من الثياب: (فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه).

إلى غير ذلك مما يدل على حرصهم على الخير والعلم والعمل.. ففرق بين حج هؤلاء وحج أناس يبحثون عن الرخص ويتتبّعونها، وربما لووا أعناق النصوص ليركبوها! أما أولئك فالأصل عندهم الاقتداء بالنبي ﷺ، لأجل ذلك خرجوا، وما عمل به عملوا، ثم وقعت لأفراد منهم عوارض وجد فيها لهم رسول الله ﷺ رخصة، فالواجب أن نربي الناس على الاقتداء بالنبي ﷺ والأخذ بسنته، وندعوهم لذلك، لا أن نجتهد في إعلان مخالفة السنة بالرخصة، أما من وقعت منه المخالفة جهلاً أو نسياناً أو لعذر فهذا له في الرخصة مندوحة.

رابعاً:

يحسن بالمرء أن يتعرف على الضيفان إن كان فيهم من لا يعرفهم حتى ينزلهم منازلهم وأن يرحب بهم، وفي أثر جابر قول الراوي: «دَخَلْنَا عَلَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَسَأَلَ عَنْ الْقَوْمِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ فَقُلْتُ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنِ فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى رَأْسِي فَنَزَعَ زِرِّي الْأَعْلَى ثُمَّ نَزَعَ زِرِّي الْأَسْفَلَ ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ ثَدْيَيَّ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ شَابٌّ فَقَالَ مَرْحَباً بِكَ يَا ابْنَ أَخِي سَلْ عَمَّا شِئْتَ».

وترحيبه بجعفر رحمه الله جاء بوصف بنوته لأخيه، يريد والله أعلم علياً رضي الله عنه، وهذا أقرب من إرادته جده الحسين، وهو محتمل، لكن جابر رضي الله عنه يقارب علياً رضي الله عنه في السن، أما الحسين فقد ولد في السنة الرابعة من الهجرة، فالفرق في السن بينه وبين جابر رضي الله عنهما كبير. والمقصود أن سبب الإكرام محل أخي جابر رضي الله عنه من جابر، كما هو ظاهر لفظه، وأخوه عليٌّ رضي الله عنه شَرُف بدينه ومحله الرفيع فيه ثم بنسبه، وشرفه بالدين أفضل، فهذا هو الذي أبقى للأول – شرف النسب – حكمه.

وعوداً إلى المقصود من الوقفة فالتعرف على الزائرين مطلوب وله فوائد، لكن لا ينبغي أن يقال إن هذا مستحب بكل حال، ففي بعض الحالات ينبغي أن لا يطلب فيها ذلك، فإن جاء تبعاً فهو مما يحسن، ومن ذلك حالات ضيافة أو إكرام المنقطعين أو العابرين، فقد لا يناسب أن يتعرف المحسن على أشخاص من أحسن إليهم، إذ فيه تعريف له بمن منّ عليهم، وأنت تجد هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٤ – ٢٦]، وفي الآيات الأخرى: ﴿قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٦٩، ٧٠].. فعلى المزور أن يكون حصيفاً لبقاً يعرف متى يسأل ومتى يسكت عن السؤال.

خامساً:

من الإكرام الذي ينبغي إكرام من كان يمتّ بسبب أو نسب إلى من أحسن إليك، أو كان بينك وبينه ود، لا سيما إذا كان على هدي المحسن وطريقته، ولهذا اعتنى جابر رضي الله عنه بجعفر بن محمد، أما من لم يكن سالكاً على طريقة سلفه فليس شأنه كشأن هذا، بل كما قيل:

وكم من فتى كَزُّ اليدين مذممٌ

وكان أبوه عصمة الناس في المحَلِ

وكز اليدين كناية عن البخل، كجعد اليدين.

وقال الآخر:

لئن فخرت بآباء ذوي حسب

لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

«وقد أجمع العلماء على أن الرجل إن مات وليس له من القرباء إلا ابن كافر، فإرثه يكون للمسلمين بأخوة الإسلام، ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، والميراث دليل القرابة.. فدل ذلك على أن الأخوة الدينية أقرب من البنوة النَّسَبِيَّةِ»[1].

فمن انتسب من المبتدعة إلى أصل شريف لم ينفعه ذلك مع مخالفته ما كان عليه سلفه، من انتصاره للشركيات والبدع والضلالات، وهل شرف الأصل المنتمى إليه إلا بخلال وخصال! فإن عدمت فيه لما كان له ذلك الشرف، فكذلك من انتسب، وإذا كان الأصل إنما شرف بالدين فكيف يشرف الفرع إذا ترك الدين؟ والأصل نفسه لو ترك الدين زاوله الشرف!

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه

فلا تدع التقوى اتكالاً على الحسب

فقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ

ووضع الشركُ الشريفَ أبا لهب

ومن اللطائف أن هذا البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[2].

وهكذا الناس من لدن آدم إخوة كلهم من ماء، ثم شرف بعضهم بما تميّز به من دونهم، وخمل ذكر آخرين، ثم قد ينبل في ذرية هؤلاء ما يشرف به من بعده، وينقطع الشرف عن آخرين.

(١) أضواء البيان ٣/٤٧.

(٢) انظر: الفقيه والمتفقه للخطيب ٢/٢٤٦.

سادساً:

حجة النبي ﷺ كانت في السنة العاشرة من الهجرة لقوله في حديث جابر: «ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج»، وفي هذا إشارة إلى منهاج نبوي في ترتيب الأولويات. قد يقول قائل: لماذا لم يحج النبي ﷺ في السنة التاسعة أو في السنة الثامنة أو في السنة السابعة مثلاً؟ أما قبل الثامنة فلأنه لا يمكن أن يحج إلا على شرط المشركين، فقد كانت مكة تحت أيدي المشركين، وقد ردوه عن العمرة إلا بشرطهم، فكيف بالحج؟!

وأما في السنة الثامنة بعد الفتح فقد كان مشتغلاً عليه الصلاة والسلام بالجهاد، فإنه لم يفرغ من ثقيف إلا في آخر ذي القعدة.

وأما في السنة التاسعة فقيل إنه لم يحج لأن هذا العام كان عام الوفود.. فإن العرب كانوا ينتظرون فتح مكة، ولما فتحت مكة انتظروا أيضاً أن يدين من بقي من العرب في هوازن وثقيف ونحوهما، فلما أذعنت العرب صاروا يأتون أفواجاً إلى رسول الله ﷺ في المدينة، فكان في المدينة ليلتقي هؤلاء الوفود يعلمهم دينهم عليه الصلاة والسلام.

وسبب آخر أنه في السنة التاسعة حج المشركون مع المسلمين، فأراد النبي ﷺ أن يكون حجه خالصاً للمسلمين، ولهذا أذن في التاسعة ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. هذا إذاً على القول بأن الحج فرض في التاسعة، وأما على القول بأنه فرض في العاشرة فلا إشكال.

سابعاً:

قوله: (فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ).

فَانظُر إِلَى تَجرِيدِه التَّوحِيدِ مِن

أَسبَابِ كُلِّ الشِّركِ بِالرَّحمَنِ

والناس من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، يهلون به، تتنوع ألفاظهم في توحيد الله وتعظيمه، موكب مهيب وجمع عظيم اجتمع على التوحيد، ولله ما أعظمه من مشهد يبيّن سبيل الوحدة الإسلامية، ويوضح كيف كان على توحيد رب البرية، وإن اختلفت الألفاظ وتباينت العبارات، فذلك تنوع يدور حول مقصود واحد، فلا يضر ما تحقق التوحيد.

وفي مقابل هذا وبينما يهل النبي بالتوحيد ويهل أصحابه به، يهل اليوم من يزعم حبه بنحو إهلال المشركين الأوائل الذين كانوا يقولون: لبيك الله لبيك لبيك لا شريك لك لبيك. وإلى هنا كان إهلالهم بالنسك صحيحاً، غير أنهم لا يقفون فيخلطون كلمة التوحيد بغيرها ويستثنون فيقولون: (إلا)، وقف عند

هذا الاستثناء وتأمل لتجد أن القوم كانوا يعبدون الله يحجون ويعجون ويثجون، يطوفون ويسعون ويقفون ويصلون ويزكون؛ كل ذلك لله، إلا أنهم يستثنون: (إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)، فهم يستثنون شريكاً يصرفون له شيئاً من العبادة – نذراً، دعاء، ذبحاً، وغيرها –، ويقرون بأنه مملوك لله؛ لا يعتقدون أن للشريك من الملك شيئاً، لكن ليقربهم حبهم له ودعاؤهم وذبحهم (وغيرها من أضرب عبادتهم له) إلى الله زلفى، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

واليوم يلبي بعض الحجيج ويهلون بالتوحيد ثم يخلطون ما خلطه الأوائل، فبعد أن يقول أحدهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلى أن يبح صوته، تسمعه في عرفات الله يقول بعدها ما حاصله: (إلا شريكاً هو لك)، فتراهم ينشدون الأناشيد التي يستغيثون فيها بعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم وبغيرهم، ويكررون لفظ النداء والاستغاثة خلالها، وفي ذلك انكسار لغير الله الواحد القهار!

وسلك طريقة هؤلاء قبورية تجد أحدهم في عرفات الله! ينادي:

فأغثنا يا من هو الغوث
والغيث إذا أجهد الورى اللأواء!

وآخرين يرددون:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به
سواك عند حلول الحادث العمم
فإن من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

وكما تنوعت ألفاظ الصحابة في الإهلال بالتوحيد، تنوعت ألفاظ هؤلاء في الاستثناء: (إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)! وهذا شأن خطير يجب أن يحذر المسلم منه ويحذر من يحب أشد التحذير، فقد قال الله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فَلَيسَ عِندَهُم دِينٌ وَلا نُسُكٌ
فَلا تَغُرَّكَ أَيدٍ تَحمِلُ السُبَحا

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، عقب بذكر التوحيد لما ذكر وحدة الأمة، ونحوه قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فأسأل الله أن يجمعنا والمسلمين على كلمة التوحيد الخالص، وأن يؤلف بين قلوب الموحدين.

ثامناً:

مخالفة المشركين من هدي النبوة، وفي حديث جابر أنه ﷺ لما توجه تلقاء عرفة مر بمزدلفة، قال جابر رضي الله عنه: «وَلَا تَشُكُّ قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّهُ وَاقِفٌ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَصْنَعُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ»، ثم في خطبته بعرفة قال: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ».

وليست المخالفة مختصة بأهل الشرك، بل بالكفار، سواءً أكانوا مشركين أم يهوداً أم نصارى، وفي صحيح مسلم أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهن. فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا، فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفنا أنه لم يجد عليهما. الحديث أخرجه مسلم[1].

فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم حتى قالوا: ما يريد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه.

ومن ذيول مخالفة المشركين في حديث جابر عدم تمييز قوم عن قوم، فالحمس وغيرهم يُعَرِّفُون ويدفعون ويشتركون مع سائر أهل الأصقاع في المناسك والمشاعر، ولم يميز ﷺ بين كبار الصحابة وغيرهم، بينما نجد مظاهر التمييز قد بدأت تعود، بعض الناس لهم قصور! والبعض يفترشون الطرقات وهو يوم واحد فقط، وهذا مخالف لهدي النبي ﷺ.

(١) صحيح مسلم (٣٠٢).

والأمـــة اليوم تحتاج إلى أن يبعث فيها مبدأ التآخي فيما بينها، والمفاصلة لعدوها، وهذا لا ينافي المعاملة الحســـنة مع من يستحقها مع معاداته في دينه.

تاسعاً:

قد يحصل لبس يجعل فاضلاً من الناس ينكر على فاضل أمراً يظنه منكراً بحســـب مبلغه من العلـــم، وقد يتمادى في ذلك حتى يســـتبين له الحق، والواجـــب أن لا يحمل مثل هذا الخلاف أكبر من قدره، وليعلم أنه أمر طبعي يقع في كل جيل وكل مجتمع بـــل كل بيت، وفي أثر جابر رضي الله عنه قوله: «قَـــدِمَ عَلِيٌّ مِـــنَ الْيَمَنِ بِبُدْنِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَـــدَ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِمَّنْ حَلَّ وَلَبِسَـــتْ ثِيَاباً صَبِيغاً وَاكْتَحَلَتْ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ إِنَّ أَبِي أَمَرَنِي بِهَذَا قَالَ فَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ بِالْعِرَاقِ فَذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحَرِّشاً عَلَى فَاطِمَةَ لِلَّذِي صَنَعَتْ مُسْتَفْتِياً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا ذَكَرَتْ عَنْهُ فَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أَنْكَرْتُ ذَلِـــكَ عَلَيْهَا فَقَالَ صَدَقَتْ صَدَقَتْ»، وذلك أن علياً تقرر عنده أن المحـــرم واجب عليـــه أن يجتنب المحظـــورات، ولم يكونوا يعرفون العمرة في أشهر الحج، بل يرونها من أبطل الباطل أو أفجر الفجور قبل الإسلام، فلما جاء علي ووجد فاطمة رضي الله عنهما قد وقعت فيما خاله محظورات إحرام، أنكر عليها، فلما أخبرته بعذرها لم يقبله حتى اســـتفتى رســـول الله ﷺ، وليس ذلك اتهاماً لها فيما قالت، لكن ليتحقق من دقة الفهم، وربما ليتأكد أنه ليس ثمـــة تورية ترضيه بها، وربما ليحصل العلم بالسند العالي.

والمقصـــود أن نحو هذا الخلاف ينبغـــي أن يأخذ حيزه، فلا يقال: كيف ينكر حقاً، ويكثـــر من التثريب والتأنيب على هذا، وذلك أنه قد أحســـن من انتهى إلى ما ســـمع، فمن كان مجتهداً في إنكاره مســـتفرغاً لوسعه عاملاً لما فهمه أو بلغه من الشريعة إنما يريد الإحسان؛ فإن رأيته قد أخطأ فأرشده بالتي هي أحسن.

عاشراً:

فـــي هذه الحجة فوائد كثيرة تتعلـــق بمنهاج النبوة في الدعـــوة إلى الله تعالى، منها مـــا يتعلق بموضوعها، ومنها ما يلمح إلى طرائق وأســـاليب وقواعـــد إدارية في العمل الدعوي. أمـــا الموضوعات فبادية في جميـــع خطبه التي ألقاها في هذه الحجة، ومـــن أبرزها خطبة حجة الوداع، وقد تناولها العلماء قديماً وحديثاً بالشرح والتبيين، ولو لم يـــرد فيها إلا قوله ﷺ: (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله)؛ لكفى به نبراساً. وأما الطرائق والأساليب والقواعد فكاستثماره ﷺ لذلك الجمع، فخطب يوم عرفة، ويوم النحر، وذكـــر بالأصول والقواعد والفروع التي يحتاج إليها الناس، وفي هذا إشارة إلى أنه على طلاب العلم أن يستثمروا موسم الحج للتذكير بالأصول وما يحتاج إليه الناس من فروع.

ومن ذلك عندما قال ﷺ: (ودمـــاء الجاهلية موضوعة)، بادر فقـــال: (وإن أول دم أضع من دمائنـــا)، ولما قال: (وربا الجاهلية موضوع)، قال مباشرة: (وأول ربا أضع ربانا)، وهكذا يكـــون القائد! في مقدمة الركب عندمـــا يأمرهم أو ينهاهم، يبدأ بنفسه وأهل بيته، فيكون لكلامه الأثر العملي والنفسي، ومن ثَمَّ يتســـابق الناس للاقتداء بـــه عن قناعة ورضا، وبهذا تســـتقيم الأمور وتنتظم. أمـــا إذا رأى الناسُ قائدَهم يخالف فعلُـــه قولَه، فعندها يتفنن الناس فـــي الاحتيال على مخالفة الأوامـــر والنواهي، وتحلّ الفوضى والاضطراب، ويقع الظلم، وقد قال الله ســـبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَـــوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿يَـــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

لا تنـه عـــن خـــلـق وتـأتـــي مـــثـله
عـــار عـلـيـك إذا فـعـلـت عظـيـم
ابـــدأ بـنـفـسـك فـانـهـهـا عـن غـيـهـا
فـــإذا انـتـهـت عـنـه فـأنـت حـكـيـم
فـهـنـاك يـنـفـع إن وعـظـت ويُـقـتـدى
بـالـقـول مـنـك ويـنـفـع التعليم

وختاماً، طال المقال والفوائد كثيرة، ومن ذلك ما جاء في خبر ســـراقة، وإرداف النبي ﷺ لأسامة، وبعده الفضل رضي الله عنهما، ثم قصة الفضل مع الظعن، وحديث النبي ﷺ مع بني عبد المطلب في شأن زمزم، إلى غير ذلك من مواقف تلك الحملـــة النبوية المباركة التي تســـتحق أن نقف معها، بيد أن المقام لا يسعفنا.

أفضل تطبيق "مفكرة" إسلامي على "آب ستور"
باللغتين العربية والإنجليزية

مجلة البيان

واجهه خدمية مميزة

تقويم: هجري/ميلادي

أوقات الصلاة

اتجاه القبلة

والعديد من الخدمات المميزة

Al-Bayan Digital Calendar

Available on the iPhone App Store

www.albayan.co.uk

أين مواقع المصلحين

■ أ. د. سليمان بن حمد العودة(*)
suliman-alodah@hotmail.com
@suliman1432

لا بد قبل الحديث عن مواقع المصلحين حين الشدائد والمحن من تأكيد:

أ - سنة الله في الابتلاء، وهي سنةٌ ماضية في الأولين والآخرين، ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وكلما عظُم الإيمان عظمت الفتنة: (أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثَلُ، يبتلى الرجلُ على حسب إيمانه، فإن كان في دينه صلابةً زيد له في البلاء)[1].

ب - بين المصائب والمعاصي:

ومع هذه السنة الربانية هناك سنة وقدر آخر حكم الله به وهو خير الحاكمين، ذلك هو الصلة بين المصائب والمحن والمعاصي والذنوب وعقوباتها وآثارها، والتقصير في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، ولو كان ذلك في خير القرون الذين قيل هم في (مصاب أحد): ﴿أَوَلَمَّآ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وهنا إحالاتٌ واتهاماتٌ للآخرين، والمُتهمون غير سالمين.. نعم إننا نزكي أنفسَنا أحياناً من حيث نشعر أو لا نشعر، ونظنُّ أن المصابَ بغيرنا، والمعاصي ليست من نصيبنا، وفينا خللٌ ولدينا تقصير.. قد ندرك بعضَه، وقد يغيبُ عنا الكثيرُ من عيوب أنفسنا، وحين تحلّ المصائبُ تدعونا بالقوة إلى أن نفتشَ في أحوالنا، ونتهمَ أنفسَنا اتهاماً لا يحبطُ ولا يقعدُ بها عن العمل، لكنه يصحح ويرشد المسيرةَ، وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المُوبِقَاتِ»[2].

ولابن القيم - رحمه الله - كلامٌ جميلٌ في المعاصي وأثرها.. انظره في الداء والدواء.

وثمة منكراتٌ قد لا يقيم لها بعضُ الأخيارِ وزناً.. وهي من المصائب والبلايا، ذلكم حين لا يتمعّرُ الوجهُ، ويضعف الإنكارُ.. وعنها قال ابن القيم: (وأي دين وأي خير فيمن يرى محارمَ الله تنتهك، وحدودَه تضيّع، ودينَه يترك، وسنةَ رسوله ﷺ يُرغبُ عنها، وهو باردُ القلب، ساكتُ اللسان، شيطانٌ أخرس)... إلخ كلام جميل في[3].

ويقول الشيخ حمدُ بن عتيقٍ - رحمه الله -: (لو قُدِّر أن رجلاً يصوم النهار، ويقوم الليل، ويزهد في الدنيا كلها، وهو مع ذلك لا يغضب، ولا يتمعر وجهه... فلا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، فهذا الرجل من أبغض الناس عند الله، وأقلهم ديناً.. ثم نقل الشيخ عمن حدثه عن الشيخ محمد بن

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي والمشرف على كرسي الرسول ﷺ والسيرة النبوية.
(١) أخرجه أحمد والبخاري وغيرهما، صحيح الجامع: ١/٣٣٣.
(٢) أخرجه البخاري: ح ٦٤٩٢.
(٣) أعلام الموقعين: ٢/١٧٦.

ين حين الشدائد والفتن؟

عبد الوهاب – رحمه الله – أنه قال: أرى ناساً يجلسون في المسجد على مصاحفهم، يقرؤون ويبكون، فإذا رأوا المعروف لم يأمروا به، وإذا رأوا المنكر لم ينهوا عنه، وأرى أناساً يعكفون عندهم، يقولون: هؤلاء (لحى غانمة)، وأنا أقول: إنهم (لحى فوائن)، فقال السامع: أنا لا أقدر أقول إنهم لحى فوائن، فقال الشيخ: أنا أقول: إنهم من العمي البكم)[1].

فلا بد من مراجعة النفس، والتفتيش عن الأخطاء، والنظر في المناهج، وأسباب النكبات والمعاصي فينا وفي غيرنا.

ونعود للسؤال: أين مواقع الصالحين حين تقع الشدائدُ والفتنُ؟

والمقصود بالسؤال: استفسارٌ عن موقعهم في الأحداث، وجهودهم في دفع البلاء، وإسهاماتهم الإيجابية حين تقع الفتن، وهنا عدة وقفات (واجبات، مشاريع، مبادرات، مدافعات... إلخ).

وقد قيل: (وما المرءُ إلا حيث يضع نفسَه)، وأبلغ من ذلك وأصدق: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

وهنا أسجل (من هذه الواجبات والمبادرات) ما حضر في الذهن، لأفتح الباب للإضافة والتسديد.

تحرير مصطلح (الفتنة) في المواقف العملية:

إذ إن تحريرَ المصطلحِ علمياً (نظرياً) تمتلئ به الكتب، لكن المهم هنا: تحريره في المواقف العملية حين الشدائد، فمن الناس من يتخذ من (الفتنة) وسيلةً للغياب عن المشهد حين تقع النوازل، ويُعفي نفسه من جهادِ الكلمة، وقولِ الحق، ودفعِ الباطل، فإذا ما بان للمسلم وجه الحق فلا يجوز له أن يتخلف عن البيان وفي وقت حاجته، وبما يقتضيه البيان (من حكمة، ومراعاة للمصالح والمفاسد...)، والمهم ألا يقعد حيث يجب القيام بأمر الله وعبوديته من الأمر والنهي.

الصبر حين البلاء:

فلا يمكن أن يَسْلَم أهلُ الإيمان من بلاءٍ على قدر جهادهم، وهو طريق الرسل وأتباعهم، وهنا لا يسوغ الجزع ولا الخور، ولا التسخط والقلق، بل لا بد من احتساب الأجر، وصلاح النوايا، والبشرى بقدر الله الشرعي، دون تمنٍّ للقاء العدو، أو تحميل للنفس من البلاء ما لا تُطيق، وفي الحديث الصحيح: (لا ينبغي للمؤمن أن يُذل نفسه، يتعرض للبلاء ما لا يُطيق)[2].

والناس يختلفون بين (العزيمة) و(الرخصة)، والمهم القدر الأعلى من الصبر، والحد الأدنى من المجاهدة.

(الذكر الحسن):

ومع ما في الصبر من عظيم الأجر لمن احتسب حتى (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه، وولده، حتى يلقى اللهَ

(٢) صحيح الجامع: ٦/٢٥٣.

وما عليه خطيئة)[1]؛ إلا أن ذلك قد يكون غير منظور للناس، بل لصاحب البلاء نفسه، لكن هناك ما يُسلي ويسري عاجلاً، ألا وهو (الذكر الحسن) لأهل البلاء والإيمان، قال ابن القيم: (مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ: أَنْ يَرْفَعَ لَهُ بَيْنَ الْعَالَمِينَ ذِكْرَهُ، وَيُعْلِي قَدْرَهُ، وَلِهَذَا خَصَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝٤٥ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦].

وقَالَ إبراهيم: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٨٤]، وعن محمد ﷺ قال الله ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سُورَةُ الشَّرْحِ: ٤]، ثم قال: فَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مِيرَاثِهِمْ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَهُمْ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مُخَالَفَتِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ)[2].

والواقع في القديم والحديث يشهد على ذلك، فكم من صادق شُهر اسمُه بسبب عداوة ومعاقبة الظالمين له، فوقع عليه من الظلم ما ذكّر به من لم يعرفه، وأحبه من لم يسمع منه..

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت
أتاح لها لسانَ حسودِ

محكمات الدين أصول ومنطلقات في البلاغ والدعوة:

محكمات الدين لا يسع المسلم إلا التسليم لها، والعمل بها، وعلى المصلحين أن يُعنوا بها ويرسخوها لعامة الأمة وخاصتها، ويجعلوا منها ميداناً رحباً للحديث والتأليف، والشرح والبيان؛ إذ هي أقصر الطرق وأنفعها للبلاغ والإقناع، وهي أعظم حجة لقطع الطريق على أهل الريب؛ فتوحيدُ الله بالعبادة، والتسليمُ لشرعه، وتحريمُ الشرك، ومحبةُ الرسول ﷺ وطاعتُه فيما أحب المرءُ أو كره، وتثبيتُ أركان الإسلام والإيمان والإحسان، وحفظُ الضرورات الخمس (الدين، النفس، المال، العرض، العقل)، والولاءُ للمؤمنين والبراءةُ من المشركين، والعزةُ لله ولرسوله وللمؤمنين، وإحقاقُ الحق، وزهوقُ الباطل، وتحريمُ الظلم والإثم والزنا والخمر والربا وسائر الفواحش، والأمرُ بالأخلاق الفاضلة من العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى.. ونحو ذلك من محكمات في الدين لا تقبل المساومة والجدل، وتمثل (أم الكتاب) كما قال تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، والأمُّ هو الأكثر والأصل كما قال العالمون[3].

هذه المحكمات تتأكد الحاجة لبيانها وتعميمها كلما كانت الظروف داعيةً لها في أزمان الشدائد والفتن، وكلما حاول المبطلون اختراقها بأساليب ملتوية، وطروحات غريبة، ويحتاج كذلك للحديث عن هذه المحكمات في سبيل وحدة الأمة، إذ «الواجب تقديم الإسلام في التطبيق والدعوة من خلال المحكمات والأساسيات لا من خلال الاجتهادات والخلافات السائغة أو غير السائغة»[4].

وليس يخفى أن عالَم اليوم يموج بعقائدَ باطلةٍ، ومذاهبَ فكريةٍ منحرفةٍ، وفرقٍ ضالةٍ، وانفتاحٍ إعلاميٍ مهولٍ.. ومن هنا فعلى المسلمين كافةً، وعلى المصلحين خاصةً، أن يُعنوا بهذه المحكمات والمنطلقات الإسلامية، دليلهم قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله ﷺ: (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)[5]، وميزانهم قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ومن رام المزيد عن هذه المحكمات وأهميتها وتطبيقاتها، فليراجع ما كتبه (د. عابد السفياني: المحكمات حوار وتطبيقات).

العزلة المشروعة والمذمومة:

لا شك هناك عزلةٌ مشروعةٌ أخبر عنها النبي ﷺ، لكن لمن؟ ومتى تكون؟ وكيف؟ هذا هو المهمُ، إذ قد يتصور طالبُ علم، أو قادرٌ على المساهمة في دفع الشر وإقرار الحق.. أنه معذورٌ باعتزالِ الفتنة، والغياب عن الأحداث.. وتلك قضيةٌ بين العبد وربه، فإذا ما اشتبهت على الإنسان الأمورُ إلى درجةٍ لا يعرف فيها أين يكون الحق؟ وأين يوجد الباطلُ؟ وأشهدَ اللهَ على ذلك، بعد تحري الأسباب الممكنة.. فهنا قد يسوغ للإنسان أن يعتزل، كما فعل بعض الصحابة حين الفتنة الواقعة بين المسلمين.. لكن الأصل الاختلاط بالناس، والمساهمة بالدعوة والإصلاح، ودفع المنكرات: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١]، و«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[6].

وهنا نموذج وتصحيح للعزلة، ففي[7]: عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: خَرَجَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِلَى الْجَبَّانَةِ (الصحراء) يَتَعَبَّدُونَ،

(١) صحيح الجامع: ٥/١٩٢.
(٢) الداء والدواء ١١٤.
(٣) انظر: أصول الجصاص: ١/٣٧٣، أصول السرخسي: ١/١٦٥، عن عابد السفياني في المحكمات: ص ١٦.
(٤) عابد السفياني: المحكمات ص ١٢.
(٥) أخرجه أحمد وغيره.
(٦) صحيح الجامع: ٦٦٥١.
(٧) شرح السنة للبغوي ١٠/٥٤.

وَاتَّخَذُوا مَسْجِدًا وَبَنَوْا بُنْيَانًا، فَأَتَاهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَقَدْ سَرَّنَا أَنْ تَزُورَنَا، قَالَ: مَا أَتَيْتُكُمْ زَائِرًا، وَلَسْتُ بِالَّذِي أَتْرُكُ حَتَّى يُهْدَمَ مَسْجِدُ الْجَبَّانِ، إِنَّكُمْ لأَهْدَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟! أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ النَّاسَ صَنَعُوا كَمَا صَنَعْتُمْ مَنْ كَانَ يُجَاهِدُ الْعَدُوَّ، وَمَنْ كَانَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَنْ كَانَ يُقِيمُ الْحُدُودَ؟! ارْجِعُوا فَتَعَلَّمُوا مِمَّنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكُمْ، وَعَلِّمُوا مَنْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ مِنْهُمْ.

قَالَ: وَاسْتَرْجَعَ فَمَا بَرِحَ حَتَّى قَلَعَ أَبْنِيَتَهُمْ وَرَدَّهُمْ.

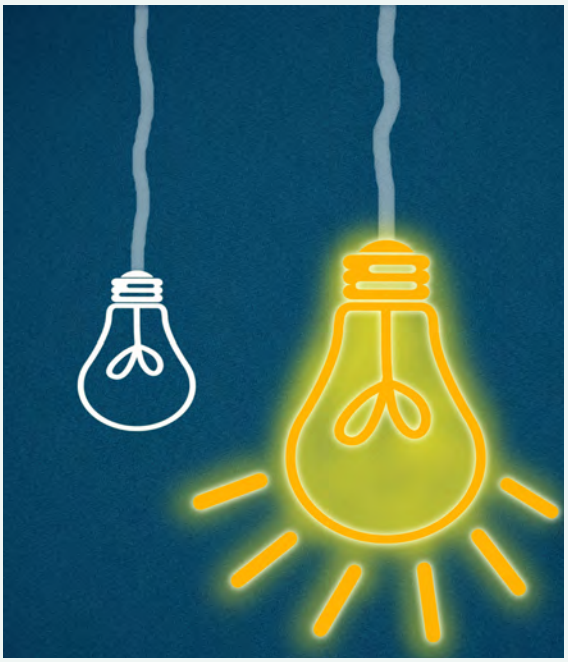

تعميق الوعي بالحق:

فتلك مهمةٌ كبرى لأهل الإيمان، سلكها المرسلون وأتباعُهم، وأعلنوها لقومهم عبر (مصطلحات، وقيم، ونداءات، وتحذيرات متكررة) تملأُ آياتِ القرآن الكريم من مثل قوله تعالى (على ألسنة هؤلاء المرسلين والمؤمنين): ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٤٠]، ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]، وحين يختلط على الناس الحقُ أو شيءٌ منه، فلا بد للعالمين من البيان والبلاغ، ولا يجوز كتمانُه: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. إنه ميثاقٌ عظيمٌ أخذه الله على أهل الكتاب: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ومع بيان الحق لا بد من كشفِ الباطل، ورفعِ التلبيس والتدليس، وكشفِ الكذب، وفضحِ الخونة، واستبانةِ سبيل المجرمين، وأشدُ ما يكون التلبيس حين تقع الشدائدُ والمحنُ، وتحل الفتنُ، فيُصوّر الباطلُ حقاً وعكسه، والمعروفُ منكراً ونقيضه.. وهكذا.. ومن هنا تتحتمُ مسؤولية كشف الباطل والمبطلين (بسيماهم) وهو الأصل، أو بأسمائهم وأفعالهم إذا لزم الأمر، وقد جاء الإنكار في القرآن الكريم صريحاً: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

وأهلُ العلم والدعوة، والفكرِ النزيه، والشرفاءُ، وأهلُ المروءةِ والكرمِ... هم المؤهلون لهذه المهمة الشريفة.

معركة الفكر والقيم في عمقها وأهدافها:

مما ينبغي أن يُتفطن له على الدوام وفي أزمنة الشدائد على الخصوص، أن رحى المعارك الدائرة في الفكر والقيم، وبين الأخيار وخصومهم، أعمق مما يتصوره البسطاء، ولا بد من كشف ما يريد أن يسطحه أهل الريب، ذلك أنهم وحتى لا يُتفطن لمكرهم يُبسطون طروحاتهم، ويلبسونها لبوس (التجديد) و(التطوير) و(الانفتاح)، أو غير ذلك من مصطلحات خادعةٍ، لتُمرر هذه الطروحات وتُقبل، ولا يجترئ معترضٌ عليها حتى لا يُرمَى بالتخلف والرجعية أو نحوها من ألقاب (تحييد) و(محاصرة) للرافضين للفساد.. فليُنتبه لهذا جيداً.

وثمة أمرٌ آخر ينبغي التفطن له، وهو أهم، وذلك بتصوير الفكرة أو المشروع المراد بأبسط مظاهرِه، وعدم الإفصاحِ عن أهدافه العميقة، وذلك لسهولة تقبله حين يفصل عن توابعه وآثاره.. ولعله بالمثال يتضح المقال، وقضية المرأة نموذج صارخ، وخذ على سبيل المثال (قيادتها للسيارة)، فالأمر لا ينتهي عند القيادة، بل يراد الوصول إلى (الحجاب)، ويراد (تحرير المرأة من قَوامة الرجل)، ويراد (نشر الفساد، وابتزاز المرأة)، ويراد (سفرها بلا محرم) و(تصوير المرأة) وضرورة إيجاد (شرطة نسائية).. وهكذا قُل ما شئت من أمور ستتبع (قيادتها للسيارة)؛ ولذا فمن البساطة والتغفيل مناقشة الأمر مناقشةً فقهيةً تنتهي عند حدود (ألم تركب المرأة البعير؟)، أو (طرح الخلاف الفقهي في تغطية وجه المرأة)، أو حكاية (المرأة والسائق الأجنبي).. أو نحو ذلك.. مما لا يقيم أهلُ الريب له بالاً، بل يهدفون إلى ما أبعد من ذلك.. هذا نموذجٌ وقِسْ عليه غيرَه مما يطرح أحياناً، ويلبّس في طرحه، أو يُهون من شأنه.. وعلى أهل العلم والفكر والرأي أن يُجلُّو الصورة، ويكشفوا مخطط الفساد.. وحتى يتأكد الأمرُ وفي قضية المرأة طرحت تباعاً (الاختلاط في المراحل الأولى)، و(المرأة والرياضة)، و(المرأة والأندية النسائية)، وأخيراً (حضور المرأة للمدرجات الرياضية)، ودمج

المرأة مع الرجل، و(عمل المرأة في المستلزمات النسائية)... إلخ القائمة التي تؤكد أن القضيةَ (مشـــروعٌ متكاملٌ لتغريب المرأة) من التغفيل أن يفصل بعضُه عن بعض.. ولعل الأنظمة الصارمة والمدونة في سياســـات بلادنا عطلت تنفيذ هذه المشاريع برهةً من الزمن، ولعل الأغلبية الساحقة وفي بلادنا كذلك والرافضة لهذه الطروحات الغريبة، تعطلها مســـتقبلاً، لا سيما إن انضم إلى ذلك وعود من المســـؤولين في بلادنا بعدم الاستجابة لهذه المطالب المخالفة لقيمنا وأنظمتنا.

تمايزُ الصفوف:

ففـــي أزمان الأزمات والفـــتن، تتجلى المواقـــف، ويتمايز النـــاسُ، وإذا قيل لخير القرون على أثـــر مصاب أحد: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيـــثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، فغيرهم بالتمييز من باب أولى، وهنا يتســـنى لأهل العلم والدعوة أن يتعاملوا مع الناس حســـب مواقفهم، وأن يرصدوا ويكتشـــفوا المواقف وأصحابها على حقيقتهم.

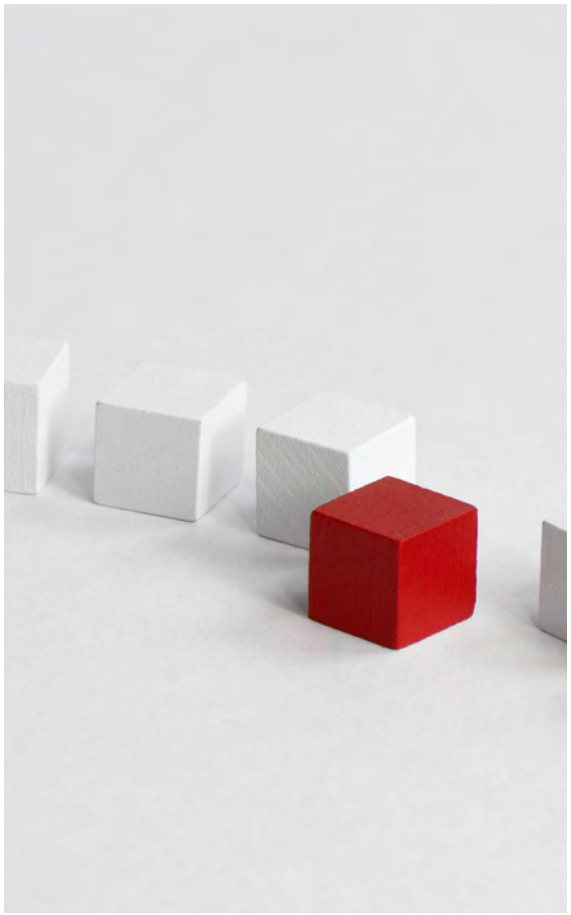

حتى لا يُخترق العلماء والأمراء:

هـــؤلاء هم أولو الأمـــر، وهم يُعلمون النـــاس ويقودونهم، يُســـألون فيفتون، ويأمرون فيُطاعون، بصلحهم يصلح الناسُ، وباجتماعهم على الحق يســـعد المجتمـــعُ، وبتعاونهم على البر والتقـــوى تأمن البلادُ والعبادُ، ومـــن حظهم وحظ المجتمع أن يوفقـــوا لبطانةٍ صالحةٍ تدلهم على الخير وتعينهم عليه، وقاتل الله (بطانة الســـوء)؛ فكم أفسدوا ما بين الحاكم والمحكوم، بل وبـــين العالم والأمير، ومن قـــرأ التاريخ بعمق وجد علاقةً بين صـــلاح الراعي وصلاح من حوله، ووجـــد أثرَ ذلك في العدل والاســـتقرار والرخاء، كما يشهد التاريخ على أثر بطانة السوء على أولي الأمر في حصول الفتن، وانقسام الناس، ونزع الثقة، وتأرجح الطاعة المشروعة، والمصلحون أقدر الناس على قراءة التاريخ، وبيان آثار القطيعة بين العلماء والأمراء، وأحرى الناس بنصح الأمراء، وتحذيرهم من بطانة الســـوء، وشؤم المنتفعين لأنفســـهم على حســـاب مصالح المجتمع والدولـــة... ودعونا نضرب لنوعي البطانة نموذجاً من التاريخ، ونقرأ آثارهما:

أمـــا نموذج البطانة الصالحة ففـــي الدولة (الأموية) ومع الخليفة (ســـليمان بن عبد الملك) - رحمـــه الله - حيث كان (رجـــاء بن حيـــوة) - رحمه الله - كبير المنزلة عند ســـليمان بـــن عبد الملك، وهو ثقـــةٌ عالمٌ فاضلٌ، وقـــد أجرى الله على يديه الخيرات (كما نقل الذهبي في الســـير: ٤/٥٥٨ - ٥٦٠)، وليس يخفى أن (رجاء) هو الذي أشار على (سليمان) أن يكون الخليفـــة من بعده (عمر بن عبد العزيـــز) - رحمه الله - في قصةٍ تمتلئ بها كتب التاريخ، ومعلوم ما حصل للمجتمع والدولة والأمة باســـتخلاف عمر بن عبد العزيز الذي اشـــتهر عهده بالعدل والرخاء.

أما النموذج الآخر: فكان في الدولة (العباسية)، وفي زمن (المأمـــون والمعتصم والواثق)، حين وقعـــت (فتنة القول بخلق القرآن)، وامتُحن الناسُ، وأوذي العلماءُ، وحصل تفرق وشرورٌ وبلاءٌ وفتنة، وكان قطبا رحى هذه الفتنة من بطانة السوء:

أ. (بشـــر بن غياث المريســـي)، قال عنه ابن كثير: شـــيخ المعتزلـــة، وأحد من أضل المأمون [البداية والنهاية: ١٠/١١٨]، وقال كذلـــك: كان المأمون على مذهب الاعتـــزال لأنه اجتمع بجماعة منهم (بشر المريســـي)، فخدعوه وأخذ عنهم المذهب الباطـــل، ودعا إليه، وحمل الناس عليـــه قهراً، وذلك في آخر أيامه.. [البداية والنهاية: ١٠/٣١٢].

ب. (أحمد بن أبي دؤاد)، وعنه قال الخطيب: كان موصوفاً بالجود والسخاء.. غير أنه أعلن بمذهب الجهمية، وحمل السلطان على الامتحان بخلق القرآن، ثم نقل أنه ولي قضاء القضاة للمعتصم ثم الواثق، وكان (ابن أبي دؤاد) هو الذي يمتحن العلماء، ويدعو إلى القول بخلق القرآن.. [تاريخ بغداد: ١٤٢/٤].

وقال الذهبي عنه: ابن أبي دؤاد: جهمي بغيض [الميزان: ٩٧/١]، وقال في السير: كان ابن أبي دؤاد يوم المحنة أَلْباً على الإمام (أحمد) يقول: يا أمير المؤمنين، اقتله، هو ضال مضل [١٧٠/١١]، ومعلوم ما جرى بسبب هذه المحنة من الشرور، حتى قال ابن كثير: وهذه المحنة التي هي أُسُّ ما بعدها من المحن، والفتنة التي فتحت على الناس باب الفتن[١]، وفي النهاية، وبعد السجن والأذى، ينصر الله الحق بـ (المتوكل)، ويعلو ذكر الإمام أحمد، ويطلبه (المتوكل) مستشاراً فيعتذر.

أما ابن أبي دؤاد فيبتلى بمرض (الفالج)، فيبقى طريح فراشه، لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده، وحُرم لذة الطعام والشراب والنكاح[٢].

أما الخلفاء (المأمون والمعتصم والواثق) فيصف حالهم (المتوكل) حيث يقول حين كتب رجل رقعةً إلى المتوكل يقول: يا أمير المؤمنين، إن أحمد يشتم آباءك، ويرميهم بالزندقة. فكتب فيها المتوكل: أما المأمون فإنه خلط فسلط الناس على نفسه، وأما أبي المعتصم فإنه كان رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام، وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه.. ثم أمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط، فأخذه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط، فقال له الخليفة: لم ضربته خمسمائة سوطٍ؟ قال: مائتين لطاعتك، ومائتين لطاعة الله، ومائة لكونه قذف الرجل الصالح أحمد بن حنبل[٣].

وإذا كان ما سبق نموذجاً للتأثير على الخلفاء، فالعلماء كذلك يتأثرون أو يُؤثر عليهم، وفي فتنة القول بخلق القرآن السابقة، وقع تأثيرٌ (أو اختراق) للعلماء حتى أجاب لهذه الفتنة طائفةٌ عد منهم ابنُ كثيرٍ ما يزيد على ثلاثين عالماً، ومنهم جهابذةٌ في العلم، أمثال: يحيى بن معين، ومحمدِ بن سعد (صاحب الطبقات)، وأبي خيثمة (زهير بن حرب)، وبشرِ بن الوليد الكندي، وأبي نصر التَّمّار... وغيرهم[٤].

بل ذكر ابنُ كثير أن المأمونَ دعا إلى هذه الفتنة خلقاً من مشايخ الحديث، والفقهاءِ، وأئمةِ المساجد، وغيرِهم، فأجابوا؛ لأنه (وكما ذكر ابن كثير) كان يعزل من لا يجيب عن وظيفته، وإن كان له رزق على بيت المال قطع، وإن كان مفتياً منع من الإفتاء، وإن كان شيخَ حديثٍ رُدعَ عن الإسماعِ والأداءِ، ووقعت فتنةٌ صماءُ، ومحنةٌ شنعاءُ، وداهيةٌ دهياءُ، فلا حول ولا قوة إلا بالله[٥].

وهنا ينبغي أن يفرّق بين من أجابَ مُكرهاً، ولعل أكثر هؤلاءِ العلماءِ كذلك، ومن أجاب دون إكراه، ولهذا دافع الذهبي عمن أكره منهم، وعلق على كون الإمام أحمد لا يرى الكتابةَ عن أبي نصر التَّمَّار ويحيى بن معين بقوله: «قلت: هذا أمر ضيق، ولا حرج على من أجاب في المحنة، بل ولا على من أكره على صريح الكفر عملاً بالآية، وهذا هو الحق، وكان يحيى رحمه الله من أئمة السنة، فخاف من سطوة الدولة، وأجاب تقية»[٦].

مدُّ الجسور وتجسير العلاقات مع شرفاء الناس وعامتهم والحذر من أهل الريب والتلون:

وهذا متمّم لما قبله، إذ لا يكفي (معرفة الخبيث من الطيب)، بل يمكن الاتصال والتنسيق والتعاون مع أصحاب المواقف المشرفة دعماً لهم، واستفادةً مما لديهم، وتعاوناً معهم على البر والتقوى، وتوسيعاً لدائرة أصحاب الحق، مع رصد خطوات الباطل وكشف المبطلين، وهل يخفى أن العامي من الناس قد يكون له دورٌ في تثبيت العالم الجبل، وقصة الإمام (أحمد بن حنبل) مع أعرابي (الرحبة) (جابر بن عامر) الذي قال لأحمد.. أنت إمامُ الناس فاثبت... إلخ القصة المشهورة.

بين المسكنات والاستراتيجيات.. لا بد من (المبادرة) حين الفتن لتسكنها، والتقليل من مساحة شرورها وتأثيرها، وذلك بالبيان العاجل، وحضِّ الناس على الثبات، والتثبيت، وعدم الاستعجال بالأقوال أو الأفعال إلا بدليل وتثبت: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦]، وإيضاح الحق ولزومه، وكشف الباطل ورموزه.. وهكذا من خطوات عاجلة ومسكنة.. وثمة ما هو أبقى وأهم، ألا وهو التفكير بمبادرات طويلةِ الأجل، ومشاريع (عُمْرية)، سواء كانت فرديةً أو جماعيةً، لا تتأثر

(١) البداية والنهاية: ٣٦٥/١٠.
(٢) البداية والنهاية: ٤٦٤/١٠.
(٣) البداية والنهاية: ٣٨٥/١٠.
(٤) البداية والنهاية: ٣٠٨/١٠ – ٣٠٩.
(٥) البداية والنهاية: ٣٠٩/١٠ – ٣١٠.
(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٨٧/١١.

بالأزمات، بل تسهم في علاجها بشكل مُعمّق، وهنا لا تُستنفد الجهود كلها في أُطرِ (الدفاع)، بل يكون لجهود (البناء، والمشاريع الاستراتيجية) نصيبٌ كبيرٌ في الإصلاح والدعوة، ونشر الحق ومدافعة الباطل.

وبين المشاغلة والدعوة:

إذ لا بد من (مشاغلةِ أهلِ الباطل) والاستمرار في الإنكار عليهم مشاريعهم الإفساديةِ والتغريبيةِ، وفتح الملفات كلما ظنوا أنها أغلقت واستقرت، وبأرقى الوسائل، وأنجع الطرق، فتلك مدافعةٌ مشروعةٌ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ومع المشاغلة لا بد من استمرار سوق الدعوة، وعدم التوقف عن مشاريع الخير، وطرح المبادرات إثر المبادرات، فتلك تعطي فرصاً لانتشار الخير، وتمنحُ فرصاً للراغبين في عمل الخير، وتؤسس لأعمال ومشاريع مستقبلية يصعب تجاهلها أو إلغاؤها، وهي في النهاية من أمضى وسائل محاربة الباطل وتحجيم المبطلين.

الرقي بمستوى الخطاب الدعوي:

لا شك أن خطاب القرآن منطلق مهم في الدعوة والإصلاح، فالتأمل في آياته بعمق، ورصد تجارب المرسلين، وطرائق دعوتهم بوعي؛ يسهم في رفع الخطاب الدعوي، وثمة منعطفٌ مهم في الرقي بمستوى الخطاب الدعوي ربما كان غائباً أو ضعيفاً فيما مضى، وقد آن الأوان لتفعيله حاضراً ومستقبلاً، ألا وهو (ثقافة الحقوق) في الخطاب الدعوي، فنحن في زمن (المرافعات) و(المحامين) و(دعاوى الاعتراض)، و(المطالبة بالحقوق)، و(المنظمات والهيئات)... إلى غير ذلك، ومهما كان نصيب المصداقية منها، أو نسب قبولها، فيمكن استثمارها في الخطاب الدعوي المعاصر، أو غير ذلك من أنماط (مشروعة) للرقي بمستوى الخطاب الدعوي، وتجديد وسائله.

رصد الأزمات والتحري والدقة في رصد الأحداث وتسجيلها:

فما يقع اليوم سيصبح تاريخاً للغد، والأجيال المعاصرة للحدث إن احتاجت إلى معرفة الحقيقة دون تلبيس، فحاجة الأجيال القادمة التي لم تشهد هذه الأحداث أشد؛ لتستفيد من عبرها ودروسها، وحتى لا تبدأ الطريق من بنيان الأولى في أحداث تتكرر وتتشابه، وليس من فارق فيها سوى فارق الزمان أو المكان.

حرب الإعلام:

معارك اليوم تعتمد الإعلام، وتتكئ على آلاته الحديثة، وقنواته واسعةُ الانتشار، بالغة الأثر.. ومن هنا فلا بد لأصحاب الحقِ أن يأخذوا بنصيبهم الوافر من هذه الآلة المؤثرة في المعركة، فيدعموا (القائم المفيد)، وينشئوا (الجديد)، ويهتموا بوسائل الاتصال المجتمعية الحديثة، حتى تكون هذه وتلك عوناً لهم على بيان الحق، وكشف الباطل، وحتى لا يضطروا إلى وسائل أو مؤسسات إعلامية (لا يملكونها)، وقد تخونهم أحوج ما يكونوا إليها.. وهنا مسؤولية مشتركة، فإعلاميون متميزون يقترحون ويخططون، ومفكرون وعلماء يدعمون بعلمهم وفكرهم، وأغنياء ومنفقون يدعمون بمالهم، وشركات إعلامية لها سبق، وبيوتُ خبرة تتبرع بتجاربها وتقصر الطريق على المبتدئين.. وهكذا تتكامل القوى، ويتعاون الناسُ على البر والتقوى، وفي النهاية سيكون لهذا الإعلام دورٌ في محاصرة ترويج الباطل عبر آليات ووسائل إعلام فاسد، يعتمد الكذب وتزوير الحقائق، وفتنة الناس.

الفأل الحسن وحُسن الظن بالله:

فالفألُ الحسن دائماً وفي زمن الشدائد بالذات، نهج الأنبياء عليهم السلام وأتباعِهم، وأول الرسل ﷺ تتقاصرُ القرون في دعوته، وصبره وحسن ظنه بربه: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ

سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] حتى أخذهم الطوفان، بل بلغنا بالخبر الصادق أنه دعا قومه (ليلاً ونهاراً) (سراً وجهاراً) وخاتم المرسلين ﷺ قال لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وأُوحِي إليه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وفي سيرته العملية دروسٌ في الفأل وحسن الظن، يكفي من ذلك أنه في غزوة (الأحزاب) وزلزلة أهل الإيمان يَعِدُ أصحابَه حين الاستعداد للمعركة وهم يحفرون الخندق بفتوحات ستكون في الشام، وفارس، واليمن، وفي نهاية المعركة يبشر المسلمين ويعدهم على أثر الهجمة الشرسة للأحزاب ويقول (متفائلاً) بمستقبل زاهرٍ للإسلام والمسلمين: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)، وقد كان، فلم يغزُ المشركون المدينة بعد الأحزاب، وفي رواية: ففرح المسلمون واستبشروا[1].

وبين نوح ومحمد (عليهما الصلاة والسلام) موسى عليه الصلاة والسلام، يعِدُ قومَه (بني إسرائيل) ورغم الاستذلال والاستضعاف بالقوة والتمكين: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩]، والنتيجةُ تحقق وعدُ الله، وصدق فألُ موسى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

إن على أتباع المرسلين أن يبعثوا هذه الروح المتفائلة دائماً، لا سيما حينما تنقبض النفوس وتصاب بالإحباط على أثر الضربات والصدمات المتتالية، وأن يربطوا الناسَ بخالقهم، فلا يقع شيءٌ في هذا الكون إلا بإذنه.

والدعاء سلاحٌ متين:

به يُكثر القليل، ويُهزم الجمعُ، ويتهاوى الظلمُ، وينتصر المظلومون، وطالما فرطنا في هذه العبادة والعبودية لله (الدعاء هو العبادة)، به استنصر المرسلون، وبه كشف اللهُ الضراءَ، ومنادي السماء يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، والرحمن يذكرنا برفع البأساء ويقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام:٤٣].

ومن الدعاء المطلوب: التعوذ بالله من الفتن، وجماعها في دعاء النبي ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، وفتنة القبر، ومن فتنة النار)[2].

حتى لا يَخْلَقُ الإيمان:

فالإيمان قولٌ وعملٌ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقد ثبت في الحديث: (إن الإيمان ليَخْلَقُ في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم)[3]، والواقع يشهد أن الأزمات والفتن تحرك الإيمان، فإما أن تزيده أو تنقصه، ومن علائم أهلِ الإيمان أن الفتن كلما اشتدت كلما زاد سوقُ الإيمان في قلوبهم، أوليس الله قد قال عن خيار الأمة: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]، ومن علائم أهلِ الريب والنفاقِ أنها تضيقُ صدورُهم بالنازلات والمحن، وربما ودّوا أنهم خارج دائرة المكان، أو لم يكونوا في ذلك الزمان، وقد قال الله عنهم: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٢].

وكثرة العبادة برهان على الثبات:

فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، وإنما الإيمانُ عقيدةٌ، وتكاليفٌ، وعبادةٌ، وأياً ما كانت هذه العبادةُ خاصةً لذات الإنسان لتزكية نفسه وفلاحها، أو متعديةً لنفع الآخرين ودعوتهم.. فتلك مؤشرٌ على استقرار النفس، وعظيم الثقة بالله، والقربِ منه، والأنسِ بعبوديته، وحيث تشحنُ النفوسُ في الفتن وربما انشغلت بالقيل والقال، أو مجرد متابعة الأخبار، كان أجر العبادة في الهرج (الفتن) كهجرة إلى المصطفى ﷺ كما صح الخبر بذلك: (العبادةُ في الهرجِ كهجرٍ إليّ).

مشاريع جماعية ورسم خريطة طريق مستقبلية:

وحين تكون الهجمةُ على أهل الإسلام جماعيةً، ومن أصحابِ الملِ والنحلِ، أو الأفكارِ الهدامةِ؛ فلا بد أن يكون اتقاءُ هذه الهجمة بشكل جماعي، يتداعى فيه المسلمون وبكافة شرائحهم وأعمارهم وأجناسهم للتعاون على البر والتقوى، والتناصرِ، والتناصحِ، وجمعِ الكلمةِ، وردمِ فجوات الاختلاف، ومن لم يستطع القيام بوحده بمشروع لخدمة الإسلام، يمكن أن ينضمَّ إلى غيره، وهكذا تتضافرُ الجهودُ، وتستثمرُ الطاقاتُ، ولا يبقى في المجتمع عاطلٌ أو مترددٌ، فالحكم لله، ومن يبتغي

(١) فتح الباري: ٣٩٧/٧.
(٢) متفق عليه.
(٣) صحيح الجامع: ٥٦/٢.

غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وعليكم بالجماعة فإن يدَ الله مع الجماعة، وإذا توحد من أصلهم الافتراق كان حقاً على أهل السنة والجماعة أن يتحدوا ويتعاونوا، ولا بد من الوعي بأن أعداءَ الأمة (يمرحلون) خصومهم، لكنهم في النهاية يستهدفون كلّ من وقف رافضاً سبيلهم، مستنكراً هجمتهم، وإن بدأوا (بالثور الأسود) (فالأبيض على الطريق).

والحذر الحذر من الانتكاسة، والحور بعد الكور.. فالهداية فضلٌ من الله وتوفيقٌ.. والثباتُ على الحق حتى الممات فضلٌ ومنّةٌ.. وقد صح عن المصطفى ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[1].

لا بد من الوقوف عند أحاديث الفتن وتأمّل فقهها، ولا بد من الدروس والمحاضرة في الثبات وعوامله، ولا بد من أحاديث عن الانحراف عن صراط الله المستقيم ومخاطره.. وفي النهاية لا عاصم من أمر الله إلا من رحم، والدعاء بالثبات مطلب.

نعم، هم القدوات والمنارات، والظن بهم الثبات والتثبيت للناس، وحيثما زلوا أو ضعفوا كان الضعفُ والانحرافُ لمن وراءهم كبيراً.. لا بد من العلم والحذر من فتنة الشبهات والشهوات.. ولا بد من الإكثار من قراءة سير الثابتين، وفي مقدمتهم الأنبياءُ والنبلاءُ، ولا بد من تواصيهم بالحق، وتواصيهم بالصبر، وقبل ذلك وبعده لا بد من سؤالهم وإلحاحهم على ربهم بالثبات أسوةً بمن سلفهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ألا يا عباد الله فاثبتوا.. وثبّتوا تغنموا ويسلم غيرُكم.

(١) صحيح مسلم: ح ٢٣١.

تصحيح المصطلحات وقلب التهم:

ثمة مصطلحاتٌ يتلاعب بها المبطلون، ويُوصف بها البرآءُ من الناس، وفي كل حينٍ تُرحّلُ التهمُ إلى آخرين، حتى تتم محاصرةُ الأخيارِ، بل المتدينين بشكل عام، بهذه الألقاب المثيرة للمجتمع، مثل مصطلحات (التطرف)، و(الأصولية)، و(الإرهاب)، وهكذا من مصطلحات جديدة تروّج الآن، وما من شك أن (الإرهاب) منه محمودٌ كما في قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومنه مذمومٌ، وهو ما تجاوز به المرءُ حدودَ الله، وأرهب خلقَ الله بغير حق. وكذا (التطرف) مذموم لكن بشقيه (الغالي، والجافي).. وهكذا تُحرّرُ المصطلحات، ويُمنع تلاعبُ أهل الريب فيها وتصديرها.

ومن الجميل كذلك ومع تحرير المصطلح أن يُقلبَ على أهل المنكر منكرُهم، وتُرد إليهم بضاعتُهم، ويوصفون بما يستحقون، ومصطلح (الاسترهاب) مصطلح قرآني ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وهذا المصطلح (الاسترهاب) خليق بمن يتهمون بغير حق، ويُرهبون بلا برهان، فهل نسوّق لهذا المصطلح الشرعي الغائب عن الساحة؟

ركنا الصدع بالحق وأقل درجات الإنكار:

ليس يخفى درجاتُ إنكارِ المنكرِ في السنة.. لكن هناك مقولة جميلة للذهبي حدد فيها ركنين للصدع بالحق فتأملوها، قال الإمام الذهبي - رحمه الله - في ترجمة (الإمام أحمد): (الصدع بالحق عظيمٌ، يحتاج إلى قوةٍ وإخلاص، فالمخلصُ بلا قوةٍ يعجز عن القيام به، والقوي بلا إخلاص يُخْذَلُ، فمن قام بهما كاملاً فهو صِدِّيقٌ، ومن ضعف فلا أقل من التألم والإنكار بالقلب، ليس وراء ذلك إيمان، فلا قوة إلا بالله)[2].

فقه إدارة الأزمات:

لا بد من فقه في إدارة الأزمات يحافظُ على المكتسبات، ويحقق مزيداً من المنجزات، ويفرق بين ما يصلح في مكان دون مكان، أو زمان دون آخر، والقراءةُ الفاحصةُ للأحداث بعمقٍ يتجاوزُ الوقوفَ على مجرد الأسباب للأزمة إلى عمقها وآثارها، والموقف الشرعي منها، وكيف الخروج فيها بأفضل المكاسب وأقل الخسائر.. ومن تأمل في سيرة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وجد فيها فقهاً وعمقاً لإدارة الأزمة حري بأتباعهم أن يقتدوا بهم.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١١ / ٢٣٤.

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

Available on the iPhone App Store

على مَنْ يتنزَّل النصر؟

■ د. أشرف عبد المنعم(*)
abo_nour_a@yahoo.com

في مصر، قلب العروبة والإسلام النابض، ومركز الثقل الأكبر، والأقرب إلى الأرض المقدسة في فلسطين، ومن حيث تعلقت قلوب المسلمين بالتغيير؛ وقع أسوء تغيير معاكس بانقلاب عسكري، يمارس أشرس صور الإقصاء والاستئصال للحركة الإسلامية، ولكل المكتسبات الثورية، بعنف زائد ظن أنه سيمهد له الطريق.. فمهد لغيره طريقاً آخر.. فلماذا ثبتوا؟

مع أن المحنة شديدة، والخطر داهم، والطاقة البشرية محدودة، وقد عز الناصرون، وتكالب المعتدون؛ ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].. وهذا هو المشهد.

مع أن هناك من يشكك، وهناك من يدعي الواقعية؛ ﴿لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣]، وهناك من يعتذر بظروفه الخاصة؛ ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣]، وهناك من يدعونهم لما يزينون أنه سلامة عاجلة في دعوة ﴿الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]، في ظل إبداء استعداد للتنازل مراعاة لميزان القوة ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].. وهؤلاء كانوا بيننا، و﴿كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

لكنهم رأوا الحق واضحاً

ليس لأنهم لم ترد عليهم الشبهات، فقد ملأ المجرمون بها الأسماع والأبصار، فإن ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وهذا قدر رباني لامتحان الناس ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، لكن للشبهات أهلها ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣]، وما هم بهؤلاء.

إن منهم العالم والجاهل وبين ذلك، منهم المثقف المتابع ومن دون ذلك، منهم الصغير والكبير.. تفاوتوا في أشياء كثيرة، وجمعت بينهم بصيرة إيمان وبقية فطرة سوية، ففهموا استنكار ربنا حين قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، فلم يسووا بينهما.

لقد وهبهم الله ما فرقوا به بين الحق والباطل، تصديقاً لوعده الكريم: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وغاب أثر الفوارق الأخرى بينهم، كهؤلاء الذين يقرأون بين عيني الدجال «كافر»، فقد قال ﷺ: «يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب» [أخرجه مسلم، عن حذيفة بن أسيد الغفاري]، فعاد التمييز إلى الإيمان، واختفى أثر الوسائل الدنيوية التي تفاوت المؤمنون فيها، من ذكاء وتعلم ونحوهما.

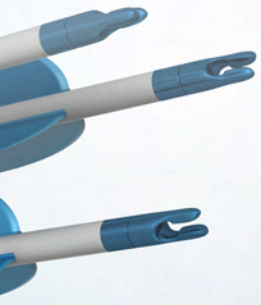

(*) عضو اللجنة العلمية والدعوية بالجبهة السلفية.

واجتمعوا على نصرته

كما لم يجتمعوا قبل ذلك، على تفاوت الانتماءات والاجتهادات، بل على التفاوت في الاستقامة نفسها. جمعهم حق مشترك أحبوه وأعلوه على ما سواه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، حين شعروا بالخطر يتهدد دينهم ويتهدد الأمة والأجيال.

ففيهم وريث الصديق وابن حنبل، من أئمة الحق والتقى، وممن تميز بنصرة الحق والثبات عليه بين الناس، اللذين قال فيهما علي بن المديني: «إن الله أعز هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة»[١].

وفيهم وريث أبي محجن الثقفي، الذي قيد بذنبه، فلما رأى المعركة تدور، لم يهن عليه إسلامه، وعز عليه أن تكون معصيته سبباً لحرمانه، بل اشتاق إلى ما يكفر سالف زلاته، فقال:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا
وأترك مشدوداً عليَّ وثاقيا

ثم انطلق يبذل الروح في سبيل الله؛ تطهيراً للروح، وتقرباً لله[٢].

فهذا أوان الثبات

لأنه إنما يحتاج إليه في موطن الامتحان بالرغبة والرهبة، ولهذا امتنَّ الله به على الفتية المؤمنين أصحاب الكهف، حين قاموا للسؤال بين يدي ملكهم الكافر: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ [الكهف: ١٤].

يحتاج إليه حين يكثر العدو ويقل الناصر، حين يحيط العدو بأسبابه الأرضية، وتقل أسبابنا المادية بإزائه، كما كان حين تحزبت الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ١٨/ ٧١.
(٢) الاستيعاب للقرطبي ٤/ ١٧٥٠.

يحتاج إليه حين يكون له ثمن، فلا يكون مجرد كلمة جميلة يسهل أن تسمع في خطبة، أو تقرأ في كتاب، أو حتى يتمناها الإنسان لنفسه أو يدّعيها. حين يعلو تهديد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١]، فلا يجدون إلا استمداد العون الرباني على الثبات حتى الممات ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

في تلكم اللحظات العصيبة، التي تتلفت فيها الأمة، تبحث عن الثبات وأهله، تحتاج إليهم؛ لأنهم في تلك اللحظات طوق نجاتها، وسر حفظ الحق الذي به وجودها، يكون أوان الثبات. فليس التلون ذكاء، ولا التراجع حكمة، ولا سلامة الدنيا أعلى المطالب.

ورأوا القدوات

كما رآهم النبي ﷺ في خطاب ربنا - تعالى -: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ورآهم كذلك المؤمنون، بل ورأوه ﷺ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] «في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - عز وجل - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين»[٣].

ورأوا أئمة المسلمين وأبطالهم قديماً وحديثاً، فلم يجدوا منهم إلا ثباتاً في وجه الباطل، وانتصاراً في وقت الحاجة، وكلمة حق في وجه الطغيان، وتقديماً للمصالح العليا للأمة على ما سواها من المصالح الضيقة، وإيثاراً للآخرة في مقابل التضحية بالدنيا.

ونظروا أمامهم فإذا بالبطولات تتجسد؛ وقوف في وجه السلاح، وتحت زخات الرصاص، محاولة لإسعاف مصاب، وحمل لجثة شهيد، تقدم للصفوف من شاب يافع، وارتقاء من بجوارك شهيداً في لحظة لا تكاد تفرق بينك وبينه.

بل امرأة تقف أمامهم، ترفض أن تتراجع، تستحث الرجال بوقفة تبذل

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٣٥.

فيها روحها، وشـــيخ كبير يكفيه من وقفته أن يبرئ ذمته، ولا يبقي عذراً للقاعدين من الشـــباب، ودعـــاء بالتثبيت والنصر يتردد بين جنبات المكان وأنفاس الزمان.

رأوا كيف توقن القلوب وتطمئن لما بشرهم به ربهم من نصر، رأوا سكينة الحي في لحظات الضيق، ورأوا ابتسامة الشهيد بعد أداء الواجب. رأوا كيف تتكافأ دماء المسلمين فكلها غالية، وكلها ملؤها التضحية، وبعضها يفدي بعضاً رضا وطواعية.

فطاحت العبارات، وطاشـــت الإشـــارات، ولم تعد تغني الهيئات، وانتصب القـــدوات بأعمالهم، ربما لم يحز بعضهم ألقاباً كبيرة قبل اسمه، وربما منهم من لا يكاد يعرف اسمه.. لكنهم ســـطروا أســـماءهم بأحرف من نور، في لحظات من نار، فانحطت ظلمات الأرض، وارتقوا معروفين في الســـماء، يعرفهم ربهم وملائكته، وغداً يعرفهم العالمون في مقام كريم.

فالحق إنما يُحفظ بثبات أهل العزائم

لـــذا وجب إنكار المنكر على أهلـــه، وكان هذا هو الإيمان الواجب في هذه الحال، فمـــن جاهدهم «فهو مؤمن.. وليس وراء ذلـــك من الإيمان حبة خردل» [مســـلم، عن عبدالله بن مســـعود]، بل كان بذل الروح في ســـبيل حفظ الحق بالكلمة، ســـبيلاً إلى أعلى درجات الشهادة «ســـيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله»[1].

وهذا الثبـــات الظاهر دائر بين الوجوب والاســـتحباب، ودليله «ما جاء في الشـــريعة من الأمر بالوقوف مع مقتضى الأمـــر والنهي مجرداً، والصبر علـــى حلوه ومره، وإن انتهض موجب الرخصـــة... فأباح التكلم بكلمـــة الكفر، مع أن ترك ذلك أفضل، عند جميع الأمة أو عند الجمهور. وهذا جار في قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن الأمر مســـتحب، والأصل مســـتتب، وإن أدى إلى الإضرار بالمال والنفس، لكن يزول الانحتام ويبقى ترتب الأجر على الصبر على ذلك»[2].

فإن حُفظ الحق بغيرك كانت النصرة منك مستحبة، وإن لم يُحفظ بغيرك كانت النصـــرة عليك واجبة. فإنه «إذا كان الفعـــل مندوباً بالجزء، كان واجباً بالكل»[3]؛ لأن في ترك ذلك «مضادة لإظهار شعائر الدين»[4].

(١) صحيح، صحيح الترغيب والترهيب ٢٣٠٨، عن جابر بن عبدالله.
(٢) الموافقات للشاطبي ١/ ٣٢٤-٣٢٦.
(٣) الموافقات للشاطبي ١/ ١٣٢.
(٤) الموافقات للشاطبي ١/ ١٣٣.

والوجوب هنا يتأكد بأمريـــن: أولهما: القرب من العدو، فمن كان أقرب، كانت المجاهـــدة والمرابطة عليه أوجب منها على من هو أبعد، لهذا كان التولي يوم الزحف كبيرة، والثبات على من شهد الوقعة واجب، فإن غيره لا يسد مكانه.

ثانيهما: النعمة من اللـــه، فمن أوتي من الله مزيد نعمة، فـــي دين أو عقل أو صحة أو مـــال أو غيرها، فالواجب عليه أكبـــر وأوكد منه على غيره ممـــن نقص حظه من هذه النعم، فإنه ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًـــا إِلَّا مَـــا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وما دام قد آتاها فقد كلفها.

فيلحق الوجوب كل قادر - بحسب قدرته - ما دام فرض الكفاية لم يســـد؛ «لأن القيام بذلـــك الفرض قيام بمصلحة عامة. فهم مطالبون بسدها على الجملة. فبعضهم قادر عليها مباشـــرة، وذلك من كان أهلاً لها. والباقون - وإن لم يقدروا عليهـــا - قادرون على إقامة القادريـــن. فمن كان قادراً على الولاية فهو مطالب بإقامتها، ومن لا يقدر عليها مطالب بأمر آخر، وهو إقامة ذلك القـــادر وإجباره على القيام بها.. إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بالإقامة، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[5].

وعلى هؤلاء يتنزّل النصر

فإن أهل العزائـــم هم المقدمون المنصـــورون في المحن، لذا كان الأمر الرباني ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُـــلِ﴾ [الأحقـــاف: ٣٥]، وكان الثناء على أكابر الأنبيـــاء ﴿أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَـــارِ﴾ [ص: ٤٥]، ووراثتهـــم إنما تكون بقـــدر ما يتحقق تابعوهم بصفاتهم، وبقدر ما يقومون به من رسالتهم.

بل إن الوجـــود الصحيح للأمة هو الـــذي يكون امتداداً لوجـــود النبي ﷺ؛ لذلـــك يحفظ الوجـــود الصحيح للأمة بالطائفة الظاهرة على الحق المنصورة، حتى إن الإمام النووي في شـــرحه لصحيح مسلم لما ذكر حديث الطائفة، قال: «فيه دليـــل لكون الإجمـــاع حجة، وهو أصح ما اســـتدل به له من الحديـــث»[6]؛ لأنه إذا حصل الإجماع، فمن المؤكد أن الطائفة المنصورة مع مـــن أجمع، وهي ظاهرة على الحق، فيكون هذا الذي أجمـــع عليه هو الحق.. فهم الامتداد العظيم للنبي ﷺ ولرسالته في الأمة.

(٥) الموافقات للشاطبي ١/ ١٧٨-١٧٩.
(٦) شرح النووي على مسلم ١٣/ ٦٩.

لذلك كانت ظاهرة على الحق، معلنة له، تتحمّل وتتكبّد تكاليف إقامة الحق وحفظه، بل هي تقاتل على الحق، كما في روايات كثيرة من الأحاديث: «يقاتلون على الحق» [مسلم، عن معاوية بن أبي سفيان]، وفي لفظ آخر: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[1].. فهذه الطائفة تمثل العصمة للأمة؛ لقربها من النموذج النبوي في فهم الدين، وأداء دوره الرسالي، بإظهار الحق وتغيير الحياة على مقتضى هذا الحق، ويستمرون في ذلك إلى آخر الزمان.

أما عن خصوصية ذكر الدجال، فلأن فتنة الدجال كما قال النبي ﷺ: «والله ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أعظم من الدجال»[2].

والنبي ﷺ أخبر عن أثره على الناس فقال: «ليفرن الناس من الدجال في الجبال» [مسلم، عن أم شريك].. لكن الطائفة تجتمع لقتال الدجال، فهي لا تجتمع للفرار من الدجال، ولا للمحافظة على دينها وفقط، بل لقتاله؛ لأنها امتداد للدور الرسالي الذي قام به النبي ﷺ أول مرة.

وبينما هم مجتمعون لقتال الدجال، وأقاموا الصلاة ليصلي بهم إمامهم، ينزل عليهم عيسى - عليه السلام - ويقودهم، ويقتل الله على يده الدجال [مسلم، عن النواس بن سمعان]. لكن هل تأملتم على من نزل عيسى عليه السلام؟!.. إنه لم ينزل على هؤلاء الذين فروا يطلبون النجاة بإيمانهم، مع علو ما قاموا به من خير؛ لكنه نزل على المجتمعين لقتال الدجال.

فهل تأملتم هذا الفقه للدين؟!.. إنهم يعلمون أن الدجال لن يُقتل حتى نزول عيسى - عليه السلام -، فإنه لا يقتل الدجال إلا عيسى، فالمنتظر أنهم يجلسون وينتظرون نزول عيسى - عليه السلام -.. لكنهم فقهوا أن من قعد.. لا ينزل عليه النصر.. إنما يتنزل النصر على من تجهز للقتال.. وسار في الطريق.. لا على من نأى في الجبال.. ولا على من جلس ينتظر الوعود، من غير أن يعد لها عدتها.. إن هؤلاء هم الطائفة الظاهرة، وهم الذين يتنزّل عليهم النصر.

ولا يضرهم خاذل أو مخالف

فقد وصف النبي ﷺ حالهم مع الناس وحال الناس معهم، فقال: «لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» [مسلم، عن معاوية بن أبي سفيان].. أما لماذا يخذلهم خاذل ويخالفهم مخالف؟.. فلأنهم يتحملون الأمر الثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].. إنهم يحملون رسالة تغييرية للحياة، وليست رسالة توافقية مع الحياة، ولذلك يكثر مخالفوهم: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي» [متفق عليه، عن أم المؤمنين عائشة]. أما من غيّر وانحرف، فقد خرج بانحرافه عن العداء بقدر ما خرج عن الصراط المستقيم. بل إن كثيراً من هؤلاء المنحرفين كانوا يفاخرون بحسن علاقتهم بمن يجب عليهم شرعاً أن يعادوهم..!! فخرجوا بذلك عن خط العداء.. عن خط الاستقامة.. عن خط التغيير.. عن خط النبي ﷺ الذي اختطه لهذه الأمة إلى آخر الزمان.. عن الخط الذي به يحفظ الدين، وبه تحفظ الأمة، وحين يغيب.. توشك شمس هذه الأمة أن تغيب.. بل توشك شمس الحياة الإنسانية كلها أن تغيب.

أما لماذا إذن ذكر رسول الله ﷺ الخاذل قبل المخالف: «خذلهم أو خالفهم»..؟ فذلك لأن الخاذل يحدث من النكاية في القلب أشنع مما يحدث المخالف، فالمخالف يعاديهم، يقول لهم: أنتم مخطئون. فهناك انفصال بينهم منذ البداية. لكن الخاذل يقول لهم: ما أحسن هذا الكلام.. وما أجمل هذه الحياة.. لكن لكم أنتم.. وليس لي أنا.. هذا عمل عظيم.. لكن قوموا أنتم به.. وادفعوا أنتم ثمنه.. وحدكم.. أنا لن أسير معكم في هذا الطريق.. أنا لن أتحمّل شيئاً من تكاليف هذا التغيير.. أنا لا أريد أن أخاطر بشيء من مكتسباتي ومعاشي الدنيوي!

لقد ثبتوا مع كثرة الخاذلين، الذين كانوا ينتظرون أن يكونوا لهم ناصرين؛ لأنهم في الأصل موافقون، وليسوا مخالفين، لكنهم إذا حان وقت النصرة.. خذلوا.. وتركوا.. وباعوا.. لتدفع الطائفة الظاهرة على الحق الثمن وحدها، وتستحق بذلك الشرف والمنزلة.. وحدها، بأن تكون ذلك الامتداد الكريم للنبي ﷺ في هذه الأمة، بل وفي الناس، بحملها راية الإسلام، وحقائق الدين، وروح التغيير للحياة الإنسانية، لتكون على مقتضى إرادة الله - سبحانه وتعالى - وشرعه الذي يحبه لخلقه أجمعين.

فلهذا ثبتوا.. وبهذا تميَّزوا.. و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، فالله واسع العطاء.. وهو - سبحانه - عليم بمن هم أهل لعطائه.. فأين أنت منهم؟

(١) صحيح، صحيح أبي داود ٢٤٨٤، عن عمران بن حصين.
(٢) صحيح، مسند أحمد ١٦٢٩٩، عن هشام بن عامر، وصححه الأرناؤوط.

التربية في الحلقات القرآنية

■ فايز بن سعيد الزهراني
@fayz_zhrani

أولاً: أنه منهج رباني ارتضاه الله تعالى لنبيه ﷺ

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فلم يكن النبي ﷺ مقتصراً في رسالته على تلاوة ما نزل من كتاب الله ليحفظه أصحابه الكرام، بل كان شارحاً لمراده، مبيّناً لأحكامه، بوحي من الله يأمره بذلك؛ فهو ﷺ يجمع – كما نصّت الآية – بين العناية باللفظ والحفظ (يتلو)، وبين تربية الناس عليه (يزكيهم)، وبين تعليم أحكامه (يعلّمهم).

أيّ عملية تعليمية تُعنى بحفظ الحروف دون تعليم الأحكام وتزكية النفوس: عملية تعليمية ناقصة، ولقد أدرك الصحابة – رضي الله عنهم – ذلك، يقول الإمام المقرئ أبو عبد الرحمن السلمي – وهو ممن عرض القرآن على ابن مسعود رضي الله عنه –: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخر حتى يتعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به»(١).

ولعلّ ذلك هو المعلّل لنزول القرآن الكريم مفرقاً حسب الأحداث والمواقف والوقائع، ليكون مؤثّراً على قلوب من يتلقونه ويسمعونه ويحفظونه، ويقع منها موقعاً عميقاً، يغيّر من سلوكهم ويهذّب نفوسهم.. تنزل الآية من كتاب الله فيحفظونها، ويعرفون معناها، ويعتنقون توجيهاتها.

تأمّل حال الصحابة حين رجعوا من الحديبية كسيري النفوس؛ قد صُدّوا عن المسجد الحرام، وبالكاد حلقوا رؤوسهم ونحروا بدنهم.. أعينهم ترمق مكة، وقلوبهم هوت إلى البيت العتيق، وآمالهم تعانق الفتح الكبير.. حينها نزل قول الله الكريم ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥].

تأمّل كيف استثمر القرآن الحالة الوجدانية لأصحاب النبي ﷺ ليغرس في أعماق وجدانهم مفهوماً مهماً عن حقيقة الفوز عند الله، وأن دخول الجنة وتكفير السيئات هما أعظم المرابح وأحسن الجوائز، وأنها أكبر من الانتصار على الكافرين، وأنها تكون بالإيمان وطاعة الرسول ﷺ.

لقد رجع أصحاب النبي ﷺ من هذا الموقف ومن هذه الآيات بمفاهيم تربوا عليها وازدادوا في هذا الدين رسوخاً، الأمر الذي دعا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى أن يعمل أعمالاً صالحة يرجو بها تكفير مراجعته للنبي ﷺ في الحديبية.

إن منهج النبي ﷺ في تعليم القرآن الكريم، المنهج الذي يجمع بين التعليم والتزكية والتلاوة؛ لهو المنهج المؤثر، وهو المنهج الذي ارتضاه الله لرسوله ﷺ.

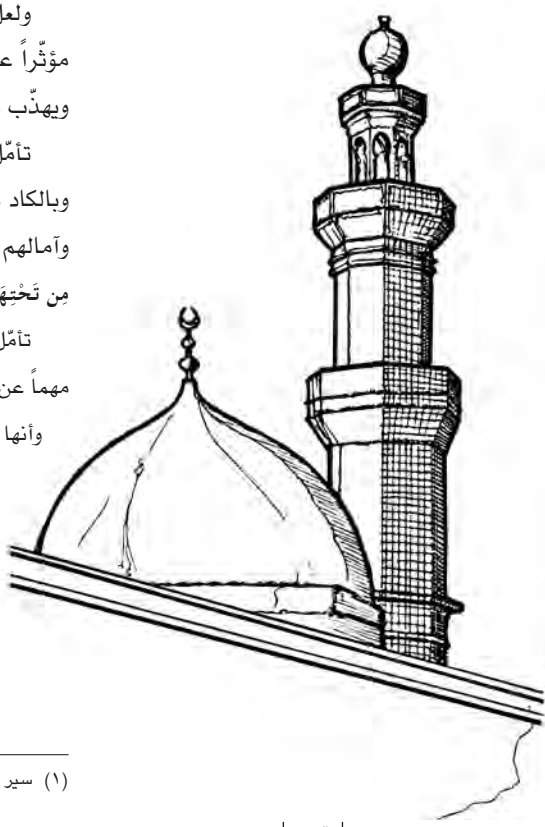

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٩.

ثانياً: يتلونه حق تلاوته

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله».

وعن مجاهد قال: «يتبعونه حقّ اتباعه»(١).

بهذه الآية يتبين أنّ المدح والرفعة والشأن كل الشأن ليس لمن يقرأ القرآن ويحفظه فحسب، بل الشأن كل الشأن لمن اتبع أحكامه وعمل بما فيه، وهذا هو حق التلاوة. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن لفظ التلاوة إذا أُطلق في مثل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾، تناول العمل بالقرآن كما تقدم عن ابن مسعود وغيره(٢).

إن تعليم القرآن الكريم تلاوة ولفظاً دون تعليمه أحكاماً وآداباً، ضعفٌ في المهمة التعليمية، ولا يكون تعليم القرآن في الذروة من الفضل والأجر والتأثير إلا إذا أتبع تحفيظ القرآن تعليم العمل به.

عن النواس بن سمعان - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران»(٣).. فإذا كان هذا فضل أهل القرآن العاملين، فكيف بفضل معلمي القرآن الذين يربّون التلاميذ على العمل بما فيه! كيف بفضل معلمي القرآن الذين خرّجوا العديد من التلاميذ يتلون كتاب الله حقّ تلاوته! وإننا بحاجة في هذا الزمان إلى حلقات تخرّج طلاباً يتلون القرآن حق تلاوته، يحلّون حلاله ويحرمون حرامه، ولا يكون ذلك إلا بالتربية الإيمانية القرآنية التي يمارسها معلم القرآن الكريم.

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٢٦.
(٢) مجموع الفتاوى ٧/١٦٧.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ١/٥٥٤، رقم ٨٠٥.

ثالثاً: توصيف من يحفظ القرآن الكريم دون أن يفهم معانيه أو يعمل بأحكامه

جاءت الشريعة بذم حافظ القرآن المضيّع لأحكامه والمفرط في العمل به والمنتهك لحدوده.

ففي موضع نبّه القرآن على أن ذلك من صفات اليهود، محذراً من سلوك سبيلهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قال القرطبي: وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلّم معانيه ويعلم ما فيه لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء(٤).

وعن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في الرؤيا التي رآها، قال: «أمّا الذي يثلغ رأسه بالحجر، فإنه يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن المكتوبة»(٥)، وفي رواية: «والذي رأيته يشدخ رأسه فرجلٌ علّمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به في النهار»(٦).

ونعى الله تعالى الذين لا يتدبرون القرآن فقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ونعى الله تعالى قوماً آخرين فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، قيل في تفسيرها: إلا تلاوة(٧)! فلم يعلموا ما فيه، ولم يعملوا بما فيه. قال الفضيل: إنما نزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً(٨).

العديد من الآيات والأحاديث التي تذم الاكتفاء بقراءة القرآن وحفظه دون فهمه والعمل به.. ليس لقارئ القرآن حظ من الرفعة والأجر دون أن يُتبِع ما حفظه بفهم وعمل.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/٦٢.
(٥) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، ٤/٣١٠، رقم ٧٠٤٧.
(٦) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، ١/٤٢٦، رقم ١٣٨٦.
(٧) تفسير ابن كثير ١/١٦٦.
(٨) أخلاق حملة القرآن، الآجري، ص ٣٧.

قال الحسن البصري – رحمه الله –: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله.. وما تدبّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَس! والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة.. متى كانت القراء مثل هذا؟ لا كثّر الله في الناس أمثالهم[1].

ويقول ابن عمر – رضي الله عنه –: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به[2].

ولذا؛ كان لزاماً على معلّم القرآن أن يشفع تعليم حروفه تعليم حدوده، وإلا فسيخرّج طلاباً يقرؤون القرآن ولا يعملون به، يلحقهم الذم وينالهم الإثم فيما بعد.

رابعاً: الحلقات القرآنية من أقوى المحاضن في الجاهزية التربوية

يعدّ المحضن التربوي إحدى الركائز الأساسية في العمل التربوي، حيث الوسط الذي يتفاعل فيه التلميذ مع أقرانه ونظرائه، ويتلقى فيه المفاهيم التربوية، وتعالج فيه أخطاؤه، وتصحح فيه انحرافاته.. وهو البيئة التي يتمكّن المربي فيها من غرس القيم والمفاهيم، ويتعاهد سقيها ورعايتها، وينقح فيها هذه المفاهيم والقيم مما يشوبها.. وهو المكان الذي يلبي التلميذ كافة احتياجاته الشخصية: الوجدانية والجسدية والعقلية والاجتماعية والثقافية.. يبدع ويبتكر، يشارك ويقود.

ولو قمت بمقارنة بين المحاضن التربوية من جهة أثرها في العمل التربوي، لوجدت أن الحلقات القرآنية من أقواها تأثيراً، إن لم تكن هي الأقوى؛ لما في هذه الحلقات من الجاهزية التربوية التي تعين المعلّم على أداء دوره التربوي بكفاءة وفاعلية.

وتتمثل الجاهزية التربوية في حلقات تعليم القرآن الكريم في عدة جوانب.. كل واحد منها يعدّ كافياً لإنجاح عمل تربوي، فكيف بها مجتمعة؟! منها: تأثير البيئة.. المسجد.. بيت الله.. مكان مقدّس مبارك، حيث ضيافة الرحمن.. عن جبير بن مطعم – رضي الله عنه – أن رجلاً قال: يا رسول الله! أي البلدان أحب إلى الله؟ وأي البلدان أبغض إلى الله؟ قال: لا أدري حتى أسأل جبريل. فأتاه جبريل، فأخبره أن أحسن البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق[3].

وعن سلمان – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (من توضأ وجاء إلى المسجد فهو زائر الله – عز وجل –، وحقٌّ على المَزورِ أن يُكرم الزائر)[4].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (ما توطن رجل المساجد إلا تبشبش الله إليه كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم)[5].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[6].

هذه الآثار التي سردتها في فضل المسجد والجلوس فيه، وغيرها كثير؛ تدلّ في مجموعها على الأثر الجميل على التلميذ في الحلقة، حيث الأمان النفسي، والهناء الداخلي، والسعادة القلبية، والسرور والبهجة.. ببركة المكث في المساجد والجلوس بين يدي أهل القرآن، حيث تعاقب الكفوف على حمل دفتي المصحف.

هذه المعاني الهادئة والعميقة التي يجدها التلميذ في بيت الله وهو متطهر يقرأ كلام الله، تجعل منه قلباً مفتوحاً للتوجيه التربوي المصاحب لتلاوة آيات القرآن الكريم.

إن التلميذ حين تملؤه المخاوف، ويكتنفه الاضطراب؛ لا يستطيع استيعاب التوجيهات ولا التطلع للسير نحو الكمال.. لهذا كان المسجد، وهو يحتضن الحلقة القرآنية، فيه مصدر طمأنينة وفرصة لأهل التربية ليرتقوا بتلاميذهم إلى الكمال البشري فيعلمونهم مراد الله من كتابه، ويؤدبونهم بآدابه.

أصحاب النبي ﷺ، والتابعون، وأئمة العلم والسنة، والفاتحون، والمعلمون... كل هؤلاء تخرجوا في المساجد، وتلقوا فيها القرآن وتربوا عليه.. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح أولها.

ومن جوانب الجاهزية التربوية في الحلقات القرآنية: الاختيار.

---

(١) الزهد لابن المبارك ص ٢٧٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٩.
(٣) صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٤٨ رقم ٣٢٥.
(٤) صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٤٨ رقم ٣٢٢.
(٥) صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٥١ رقم ٣٢٧.
(٦) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٤٧ رقم ٢٦٩٩ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

يغلب على تلاميذ الحلقات القرآنية أنهم التحقوا بها رغبة واختياراً دون ضغط أو إكراه، ودون عقوبة أو حرمان.

هناك دوافع متعددة تجذب التلميذ إلى الحلقة، يشـــملها إطار (الاحتياجات النفســـية) في الغالب، وبذلك يكون التلميذ قد أعطى زمام قلبه لمعلمه، ليقوده إلى روح القرآن.

خامساً: المنهج المتفرد

المنهج المتوافر في حلقات تعليم القرآن الكريم منهج متفرد.. متفرد في الأهداف.. متفرد في المحتوى.. متفرد في الوسيلة.

الأهداف التي يسعى إليها معلمو ومشرفو الحلقات القرآنية أهداف نبيلة وغايات ســـامية، وأهم أهـــداف تعليم كتاب الله تعالى: أن يكون الإنســـان متوجهاً بقلبه وبجوارحه إلى الله في كل حركاته وسكناته: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وهذا هدف عام وغاية عظمى يمكن الوصول إليها إذا صنع المعلمون والمشرفون أهدافاً واتبعوا السبيل نحوها، ويمكن أن تشمل هذه الأهداف تعظيم الشـــعائر التعبدية والورع عما يكرهه الله ويسخطه، والأخلاق الحســـنة، والآداب العملية... وغيرها من الأهداف التي تحقق معنى العبودية لله.

والمحتوى الأســـاس في الحلقات: كتـــاب الله، وهو الكتاب المحكـــم المفصل، لا يأتيه الباطل، معصـــوم.. لا أقول معصوماً من النقص فحسب، بل هو معصوم من شوائب الكمال والجمال والجلال. والتربية على منهج يستمد أصوله وفروعه من القرآن: منهجٌ معصوم يقي التلميذ من كل عقيدة فاسدة أو فكرة هدامة أو ســـلوك منحرف ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَـــوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إنها فرصة المربين في الحلقات أن يســـتقوا من هذا المعين لينشـــئوا الأجيال الصاعدة على فهم كتـــاب الله تعالى والعمل بأحكامه والتأدب بآدابه، وهم آمنون من زلل المنهج واضطراب الفكر.

والوسيلة المتبعة هي تعليم القرآن تلقيناً وتسميعاً وتوجيهاً.. كل حرف له به حســـنة إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.. وثبت في الدراســـات والأبحاث المتعددة أن ملازمي القرآن هم الأوفر تحصيـــلاً والأكثر ذكاء والأقوى في مهـــارات التفكير، وهذا سيكون له الأثر الكبير في غرس المفاهيم والقيم والتربية عليهم.

سادساً: ما يترتب على خلو الجو القرآني من الجانب التربوي

في البناء هناك عناصر تصل به إلى الجودة وعناصر تصل به إلى ما فوق الجودة: الإبداع. وبفقد شيء من عناصر الجودة يصبح البناء مشـــوهاً فيه ضعف ونتوء. هكذا الجانب التربوي؛ فهو عنصر جـــودة للحلقة القرآنية، وبفقده تفقد الحلقة جانباً رئيســـياً من عناصرها. وعندما تفقد الحلقة أجزاء من بنائها، لا سيما التربوي، فإن عدداً من المفاسد والأمور السلبية ستنتج من جراء ذلك، منها:

• بنـــاء منهجية غير صحيحة لحفـــظ القرآن، حيث يكتفي التلميذ بحفظ ســـور القرآن دون التربية على العمل بما فيها. هنا.. ستنشـــأ أجيال تعتقد أن طريق القرآن هكذا، وأن حفظه أولى من تدبره والعمل به.. وهذا أحد مسببات اختلال التوازن في بناء الفرد المسلم القارئ للقرآن.

• تنشـــأ صورة ذهنيـــة لدى التلميذ بأن القـــرآن الكريم لا يمكن العمل به أو تحكيمه في شـــؤون الحياة، أو على الأقل أن ذلك غير مطلوب من المســـلم، حيث تمرّ الكثير من الآيات التي تأمر وتنهـــى دون أن يكون لذلك أثر في حياته الخاصة، ودون أن يكـــون للمعلم تنزيل للآيات علـــى واقع حياته. هذه الصورة

الذهنية تتسع يوماً بعد يوم، وهذا منهج خفي غير مقصود، وهو الأخطر في تشكيل المفاهيم وتكوينها – على المدى البعيد –، حيث يضعف اليقين بما أنزل الله لدى الأجيال الناشئة.

• يتفاجأ المجتمع بين الفينة والأخرى بسلوك وأعمال تصدر من بعض طلاب الحلقات – أحياناً – لا تليق بأهل القرآن وطلابه، وهذا يلقي بظلاله في التنفير من كتاب الله ومن مجالس تعليم كتاب الله. وحين يشب التلاميذ ويكبرون وهم على هذا الحال، فسيكونون مثالاً سيئاً لحامل القرآن. وأذكر أنني وبعض زملائي ذات مرّة وبينما نحن نتنزه على شاطئ البحر الأحمر، رأينا مجموعة من الشباب من المرحلة المتوسطة والثانوية وما فوقها، يطبلون ويتمايلون رقصاً، فقدمنا إليهم منكرين ومبيّنين لهم حرمة ما يفعلون، وكانت المفاجأة أنهم طلاب حلقة قرآنية! ومعهم معلمهم!.. إنها الحلقات حين تخلو من الجانب التربوي.

لقد لمست، من خلال تتبّعي آثار السلف حول تعليم القرآن الكريم؛ تشديداً وحرصاً على ربط التحفيظ والتسميع بالتربية والتأديب والتعليم.. لقد كانوا أنفذ بصيرة في هذا الشأن، وفي كل شؤونهم.

سابعاً: التباين في المخرجات بين التلاميذ في الحلقات التي تربي والحلقات التي لا تربي

من واقع الخبرة في الإشراف على الحلقات، هناك فرقٌ كبير وواضح بين التلاميذ الذين تلقوا تربية في حلقاتهم، والتلاميذ الذين لم يتلقوا تربية بالقدر الكافي في حلقاتهم، من حيث الأدب، والسمت، والاستقامة على منهج القرآن، والمبادرة إلى الطاعات.. بل ثمة فرق أيضاً بينهم في الإبداع، والحفظ، وحسن الأداء، وغير ذلك.

إنه القرآن الكريم، حين تصنع آياته النفس البشرية، فإنها تصهرها وتزكيها، ولا يحتاج إلى شيء إلا إلى معلّم ماهر ومؤدب بارع.. هو من يقوم بصهر التبر ليصنع منه سبائك ذهب تبهج الناظرين.

وقد شهد المجتمع بهذا التباين، وشهدت المدارس بوجوده، وأصبح شيئاً ظاهراً.

ثامناً: حاجتنا في هذا الزمن إلى التربية أشد من ذي قبل

إذا كان السلف الصالح – رحمهم الله ورضي عنهم – قد حرصوا أشد الحرص على المنهجية المتكاملة في تعليم القرآن، والتي تجمع بين الحفظ والفهم والعمل، لما لها من أثر، ولما في التفريط فيها من خطورة.. فإننا في هذا الوقت أشد حاجة، بل الحاجة ملحّة، حيث كثرت وتنوعت قنوات التواصل مع التلميذ، وكثيرها غير منضبط، واتسعت رقعة التوجيه السلبي، فأصبح لزاماً على كل المحاضن الشبابية أن تقدم دوراً تربوياً وجهداً قيميّاً يحفر في النشء مفاهيم الإسلام ويربيهم عليها.

ثم إن هذا النشء أحوج ما يكون إلى أن يتلقى توجيهاً سلفياً على منهاج النبوة، يتحرزون به من الفكر الغالي، ويتحصنون به من الأفكار الهدامة والمذاهب الإباحية.

ضخٌّ هائل، على مدار الساعة، مليء بالشبه والأفكار الدخيلة والثقافات الأجنبية، يراد منه صياغة جيل لا يحمل من الإسلام إلا اسمه، ولا يعرف من القرآن إلا رسمه، يزيح الدين عن شؤون الحياة ويقترف الآثام بحجة (إن الله غفور رحيم).. وعلى معلمي الحلقات – كغيرهم – أن يكونوا سداً منيعاً ضد هذا الوافد، وجبهة مقاومة وممانعة ضد هذا الدخيل.

وإن تأصيل مبدأ الاسترشاد بالقرآن وجعله مصدر هداية في نفوس الناشئة، لمن أهم الواجبات المحتمات على الحلقات القرآنية في هذا الزمان.

تاسعاً: المرحلة العمرية مرحلة تعلّم وتلقي

الأغلبية العظمى من التلاميذ الذين التحقوا بالحلقات القرآنية، هم في مرحلة تعلّم.. في مرحلة تكوين الشخصية وبنائها.. الطفولة والمراهقة.. هذا باب خير ومفتاح خير، وفرصة ثمينة، حيث التربية على كتاب الله في هذه المرحلة أسهل وأعمق من التربية في غيرها من المراحل العمرية.

وإذا كانت المؤسسات الرسمية في الدول تعتني بتطوير تعليمها لهذه المرحلة، وتصرف لأجل ذلك الكثير من المال، وتتيح لتحقيق أهدافها الكثير من الموارد.. فإن معلمي الحلقات والمشرفين عليها هم أولى بهذا التطوير والتجويد؛ لأن بين أيديهم أعظم منهج.

يجب على معلمي القرآن ومشرفي الحلقات أن يطوروا أساليب ومقررات تربيتهم لتلاميذهم على كتاب الله، وألا يأخذوا المسألة على أنها ثانوية.. بل هي أساس.

وإذا أوجدنا المنهج الرائع، وقدمناه للتلاميذ المتهيّئين، فإن الأمل كبير بأن تكون مخرجاتنا جواهر آدمية، وجديرة بأن تكون قرآناً يمشي على الأرض.

عاشراً: التربية على القرآن لها دورها الكبير في وحدة المجتمع وانسجامه

التربية على هدي القــرآن أعظم مؤثر في وحدة المجتمع، "فالتربية على الأخلاق الإســلامية والآداب القرآنية في بيئات الحلقات القرآنية، تقوي انتماء الفرد لمجتمعه وتحقق له الأمن والأمان والطمأنينة النفسية في الحلقات القرآنية، حيث يتعلّم الأخوّة والإيثار والعدل والأمانة وغير ذلك من القيم الإسلامية التي يشعر معها بالأمان، وهذا يجعله يعمم هذا الشعور الإيجابي لدى الناس، فيحب لهم ما يحب لنفســه، ومن ثم يتعاون معهم، ويكون عطوفاً على الآخرين.

إن التربية في الحلقات القرآنية تقوي التواصل بين طلابها والمجتمع؛ لأن تعاليم القــرآن تؤكد التواصل بين الناس وتوثيق الروابط بينهم وإشــاعة المودّة والحــب والتعاون وإبعاد عوامل الشقاق والتقاطع والتدابر، وهذا ما يحتاج إليه المجتمع البشري فــي كل زمان ومكان، وتزداد الحاجــة إليه في واقعنا المعاصر الذي ســادت فيه قيم الحضارة الغربية وطغيان المادة في حياة الناس، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَــتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْــدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُــمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَــفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣][١].

حادي عشر: التربية على القرآن لها دورها الكبير في تنمية الطاقات وعمارة الأرض

حيــث التوجيهات الربانية التي حثــت على عمارة الأرض واســتثمار الطاقات بما ينفع عند الله فــي الدارين. ولا أدلّ علــى ذلك من التغيّر الهائل الذي أحدثه القرآن في نفوس تلك الثلة المؤمنة التي صحبت النبي ﷺ فتحوّلت من عبّاد للأصنام مختلي التفكيــر محبطي الهمم، إلى قادة للأمم تصنع الممالك والأمصار، وتنشــر العدل، وتبعث الحياة في الناس.. ربع قرن من الزمان، هو الوقت الذي استغرقته التربية القرآنية لصناعة حضارة تهتم بالإنسان وتصنعه وترفعه.

إن التوجيهــات القرآنية إذا تلقاهــا التلميذ عبر منهج تربوي مقصود، تبعــث الطاقات المتنوعة والتي أوجدها الله في كل إنســان، بما يناســبه، وكل ميسّــر لما خُلق له، حيث حثت على العمل الصالح بمعناه العام، وحثت على فعل الخير بمعناه الشامل.. فتُبنى شخصية التلميذ على العمل والمبادرة والمثابرة واستثمار الوقت، ما ســيؤثر على مستوى النهوض بالأفراد والأمة.

إن التوجيهات القرآنية إذا تلقاها التلميذ عبر منهج تربوي مقصود، تفتح عقله، وتنمي فيه كل أســاليب التفكير الإيجابي وأنماطه، وتكســبه منهجية علمية ســليمة، فهــو ناقد ومبدع ومحلل.. تنمي فيه مهارة الاستذكار والحفظ، فهو حافظ متقن.

إن التوجيهات القرآنية إذا تلقاها التلميذ عبر منهج تربوي مقصود، تحثه على الإسهام في بناء الحضارة، وتبني فيه حسّ المســؤولية الحضارية وعمارة الأرض ورفاهية الناس الروحية، فيصبح بانياً للإنسان وحضارته.

ثاني عشر: التربية على هدي القرآن لها أثرها في حماية المجتمع

التربية علــى هدي القرآن في الحلقات القرآنية لها أثرها في حماية المجتمع من الجنوح والجريمة، "وبهذا يتحقق القول: افتح حلقــة قرآنية تغلق ســجناً. ولو تتبعنا الســيرة الذاتية للجانحــين والمجرمين في دور الرعاية الاجتماعية والســجون فســنجد أن الملتحقين بالحلقات القرآنيــة لا وجود لهم غالباً ضمن قائمتهم"[٢].

وفي دراســة ميدانية حــول أثر حلقات القــرآن الكريم في تقويم ســلوك الســجناء، أعدها الباحث: سليمان العقيل ١٤٢٢هـ؛ خرج الباحث بعدة نتائج، منها:

- أن ٨٢٪ من المنتمين للحلقات وجدوا أن الحلقات غيّرت مواقفهم من أشياء معيّنة وأعادت تصحيح مسار حياتهم.
- أن ٩١,٦٪ مــن المنتمــين للحلقات واظبــوا على قراءة القرآن واســتغلال وقت الفراغ، بــل إن ٨٩,٢٪ يرغبون حفظ القرآن كاملاً[٣].

والتربية على هدي القرآن في الحلقات القرآنية لها أثرها في حماية المجتمع من العدو الأجنبي، حيث تنص تعاليم القرآن على ضرورة الاجتماع وعدم التفرق، وتوفّر منهجاً ســليماً في التعامل مع الأعداء يتفق الجميع عليه، وبالتالي ســيكون هذا المجتمع الــذي تربى على هدي القرآن وتعاليمه صفاً واحداً لا يستطيع العدو اختراقه، لا فكرياً ولا عسكرياً.

---

(١) أثر الحلقات القرآنية في تحقيق الأمن الاجتماعي ص ١٤.

(٢) أثر الحلقات القرآنية في تحقيق الأمن الاجتماعي ص ١٣.

(٣) انظر: علاقة التحاق الطالب بحلقة تحفيظ القرآن الكريم ببعض المتغيرات التربوية، دراسة ميدانية، ص ٨٢.

أسباب الارتقاء وموانع السقوط

قراءة في خُلق النبي ﷺ وصاحبه قبل البعثة

■ أحمد عبد المجيد مكي(*)

أشـــرت في مقال سابق تحت عنوان «الجاذبية الأخلاقية: قـــراءة في خُلُق النَّبِيِّ وصَاحِبِهِ قَبْلَ الْبَعْثَة»، إلى بعض الفوائد الخُلُقية المســـتفادة مـــن حدثين من أحداث الســـيرة النبوية، أولهمـــا: قول خديجة رضي الله عنها فـــي حادثة بَدْءِ الْوَحْي: «كَلَّا، أَبْشِـــرْ، فَوَاللَّه لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَـــداً؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتصدُق الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ (أي: تنفق على الضعيف واليتيم والعيال، والكَلُّ أصله: الثقل والإعياء)، وتكسب المعدوم، وَتُقْرِي الضَّيْفَ (أَيْ: تُكْرِمُهُ)، وَتُعِـــينُ عَلَى نَوَائِبَ الحق (أي الكوارث والحوادث)».

وثانيهما: وصف رجل من المشـــركين يقـــال له ابْنُ الدَّغِنَةِ لأبـــي بكر حين خرج مهاجراً نحو أرض الحبشـــة ليلحق بمن سبقه إليها من المسلمين، فلقيه هذا الرجل فقال له: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي. قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِـــبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُـــدْ رَبَّكَ بِبِلاَدِكَ. فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلاَ يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكْسِـــبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ... إلخ.

وفي هذا المقال ســـأقف مع بعض الفوائد التربوية والنفسية المستفادة من الوصفين السابقين في الإشارات التالية:

(*) باحث دكتوراه في مقاصد الشريعة.

الوقفة الأولى: بإنجاز الممكن نتغلب على المستحيل

إنَّ مشـــكلة كثير مِنَ الناس في مجتمعاتنا ليســـت مع المســـتحيل أو الصعب أو البعيد الذي لا تناله أيديهم، وإنَّما مع الممكن والسهل والقريب والمستطاع والمتيسَّر. وبالتدقيق في الخصال المذكورة نجد أنَّ فعلها ليس مِنَ المســـتحيلات، بل هو مما يقع في مقدور الإنســـان العادي، ومع ذلك يعجز البعـــض عنها، مـــع أنَّ الله عز وجل - بمنِّـــه وكرمه - قد أعطانا الرخصة ما دمنا قد بذلنا ما في وســـعنا، فمن قام بما يقدر عليه من الإصلاح لـــم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه؛ أشار إلى ذلك قوله تعالى حكايةً عن نبيه شُـــعَيْب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، أَيْ: إِنْ أُرِيدَ إِلَّا الْإِصْلَاحَ جَهْدِي وَاسْتِطَاعَتِي، وقوله تعالى: ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْسـاً إِلَّا وُسْـعَهَا﴾ [المؤمنـون: ٦٢]، أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها.

وقـــال النبـــي ﷺ: «إذا أمرتكـــم بأمر فأتـــوا منه ما اســـتطعتم»، أي: افعلوا ما تقـــدرون عليه، وما عجزتم عنه فإنه ســـاقط عنكم.. لكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدَّت عليه أبواب الحيل.

فـــإذا أردنا أنْ نمتثل لأمر الله تعالى على قدر الوســـع والطاقة، فعلينا أنْ نباشر ما هو ممكن ومتيسَّر لنا؛ فمشوار الألف ميل يُبدأ بخُطوة، وأول الغيث قطر ثم ينهمر، والجبال من الحصى، والبحار من القطـــر، وإذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً.

الوقفة الثانية: امتلاك الإرادة القوية

كثيـــراً ما تختلط علينا القدرة بـــالإرادة، حيث نظن أو نعتقد أنَّنا لا نســـتطيع فعل عمل ما، وتكـــون الحقيقة أنَّنا نســـتطيع فعلاً القيام به وبمثله معه، لكن لا نريد أنْ نفعله، والســـبب الرئيســـي في ذلك هو ضعف الإرادة، والحكماء يقولون: «مَنْ له إرادة تكون له القوَّة»، وقد صدقوا؛ فالإرادة هي سِـــرُّ النجاح، ولا يكون جمود الأعمال أو توقُّف نشاطها إلا حين يفقـــد صاحبها القدرة على التأثُّر أو الاســـتجابة نتيجة اللامبالاة أو انعدام الإرادة.

وقد أوضح لنا القرآن الكريم أنَّ الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك - غزوة الْعُسْرَةِ - كانوا غير صادقين حين ادَّعوا عدم القدرة على الخـــروج، والحقيقة أنَّهم كانـــوا يفقدون النية والرغبـــة والإرادة؛ بدليل عدم الاســـتعداد للخروج، وعدم الســـعي إلى توفير متطلباته، وفي هـــذا يقول الحق: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، أي: لَهَيَّؤوا له ما يلزم من ســـلاحٍ وزادٍ ومركوبٍ، وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، لكنهم كانوا عازمين على عـــدم الخروج بحال من الأحوال، ولـــو لم يأذن لهم النبي بالتخلـــف لتخلَّفوا مخالفين قصده متحدين أمره.

وهؤلاء أنفســـهم هم الذين سعوا إلى التحقير من هِمَّة المســـلمين الفقـــراء الذين تطوَّعوا بالقليـــل رغبةً منهم في المســـاهمة - على قدر طاقتهم - في الجهاد والْعُدَّةِ له، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قول الحق: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

ولـــك أنْ تقارن بين إرادة هؤلاء وإرادة هذا الرجل من فقراء المســـلمين الذي بات يعمل ليحصل علـــى صاعين أجرةً له، جاء بأحدهما لرســـول الله ﷺ فقـــال عنه هؤلاء: إنَّما أراد أنْ يذكر بنفسه!

الوقفة الثالثة: الاهتمام بالأشياء الجزئية التي نظنها صغيرة والإعلاء من شأنها

(إذا كان الْجَبَلُ مجموعة من حَبَّات الرَّمْل، فليس هناك شيء صغير).. مقولةٌ يرددها الحكماء تُفَسِّرُ قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَـــلْ مِثْقَـــالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلـــة: ٧، ٨]، والذرة في نظر المفسرين القدامى: هي شيء لا وزن له، أو هي البعوضة، أو الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس، أما فـــي العصر الحديث فهي أصغـــرُ حجم في الكون.

فَرَغَّبَهُمْ في القليل من الخير أن يعملوه، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكْثُرَ، وَحَذَّرَهُمُ الْيَسِيرَ مِنَ الشَّرِّ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكْثُرَ.

وقد ذكر المفســـرون جملة مـــن الآثار تبيِّن عظم هـــذه الآية، منها: قول ابن مســـعود: «هذه أحكم آية في القرآن»، وصدق. وكان النبي ﷺ يسمي هذه الْآيَةَ «الْآيَةَ الْجَامِعَةَ الْفَـــاذَّةَ». وقدم رجل على النبي ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ... الآيات»، قَالَ الرجل: «حَسْـــبِي، لَا أُبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا». وقال آخر: «أَقْرِئْنِي - يَا رَسُولَ اللَّه - سُورَةً جَامِعَةً». فَأَقْـــرَأَهُ: «إِذَا زُلْزِلَـــتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا»، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَـــا قَالَ الرجلُ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَداً». ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ! أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ!».

إن التغيّرات الصغيرة في عاداتنا وسلوكنا، والتي لا نلقـــي لها في العادة بالاً؛ هي التي تغيّر الكثير من ملامح حياتنا الخاصة والعامة، فهي تشكِّل إضافات اجتماعية مؤثرة، تماماً كما يحدث حين نضع درهماً فوق إخوة له لنبني منهـــا جامعة، أو نزيح حجراً من بين ألف حجر من طريق الناس لنوســـع لهم الطريق، وفي ضـــوء هذا المعنى نفهم بقيـــة النصوص، والتي منها:

- «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»، أي: سهل منبسط.
- «تبسّمك في وجه أخيك صدقة».
- «اعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ».

الوقفة الرابعة: القناعة بأن العمل الخيري درع حصين للمجتمع

إذا كانت المناعة في عالم الطب تعني الحصانة والقوة التي يكتسبها الجسم فتجعله غير قابل لمرض من الأمراض، فإنَّ مناعة المجتمعات لا تختلف كثيراً عن هذا المعنى؛ لأنَّ المنكرات كالجراثيم التي تؤثِّر في الجسد قطعاً، وإذا لم تمرضه فإنها تضعف مقاومته، ومن ثم التغلُّب عليه وقهره. وإذا نظرنا في سيرة نبينا وتأملنا أحاديثه، وجدنا أنَّ الشغل الشاغل له لم يكن ما يفعله الأعداء خارج مجتمعه، لكن ما يحدث داخل المجتمع ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقد تَأَمَّلْتُ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، فوجدته قد جاء في القرآن مرتين:

المرة الأولى: في أثناء الرد على شبهات اليهود والنصارى ومَن شابههم مِنْ المعترضين على أحكام الله وشرائعه حول تحويل القبلة.

والمرة الثانية: ورد في أثناء جدال اليهود والنصارى بالباطل حول موقف القرآن من الكتب السابقة، وفي هذا إشارة إلى أن الله يريد أن يصرف المسلمين عن الانشغال بما يبثّه أهل الكتاب ومَن شابههم مِنْ دسائس وفتن وتأويلات وأقاويل.

ويلاحظ أنَّ الله لم يأمر المسلمين بفعل الخيرات أمراً مجرداً فقط، بل أمرهم بالتسابق إليها، ومعلوم أنَّ الأمر بالاستباق قدر زائد على مجرد الأمر، فالاستباق يتضمن المبادرة وفعل المأمور به على أكمل الأحوال، فلا يصير فاعلها سابقاً لغيره إلا بأمرين:

الأمر الأول: المبادرة إليها وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها.

الأمر الثاني: الاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه الصحيح.

الوقفة الخامسة: القناعة بأن العمل الخيري يحمي فاعله من السقوط

إذا كانت للعمل الخيري فوائد لا تحصى، فإنَّ من أهم فوائده أنَّه أمر أساسي في المعالجة النفسية والسلوكية، حيث إنَّه يساعد على تفهُّم الشخص لطبيعته وقدراته وحدوده، ويجعله على وعي بالمميِّزات والخصائص المكوِّنة لذاته، كما أنَّه يساعد على تكامل تلك الذَّات، وتحقيق التناسق والانسجام الداخلي لمختلف أوجه الشخصية، وإحداث التكامل بينها.

كما يساعد على التخلص مِنْ الاكتئاب والملل والإحساس بالفراغ والشعور بالضآلة، إذ مِنْ خلاله يشعر المرء أنَّه يتواصل مع القيم الأعمق والأنبل في كيانه، قيمُ التضحية والتعاطف والتفوق على الذَّات والإيثار، والاهتمام بالآخرين، ما يجعله في مأمن بعيداً عن مرض الانطواء على الذَّات، ذلك المرض الخطير الذي من أوضح أعراضه: عدم الاهتمام بالعالم الخارجي، وضعف القدرة على الاتصال بالآخرين.

إضافة إلى أنَّ في العمل الخيري وسيلة لتقويم الأخلاق واكتساب الجيد منها، والتخلي عن الرديء، فالعلم بفضائل الأخلاق دون عمل لا يكفي، بل لا بُدَّ مِنْ مباشرتها، وإلا فماذا يستفيد المريض الذي أخذ وصفة العلاج لكنه لم يصرف الدواء أو صرفه ولم يتناوله، حتى إنْ كان طبيبه قد نجح في تشخيص الداء وجاءت وصفته بخير دواء؟!

وقد نَبَّهَنَا الله إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، أي: طهَّر نفسه مِنْ الذنوب، ونقاها مِنْ العيوب، ورقاها بطاعة الله، وأعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح، ولم يقل ربنا - تبارك وتعالى -: (قد أفلح من تعلَّم كيفية تزكيتها). والفلاح هنا لا يقتصر على الآخرة فقط، بل هو شامل الدنيا، حيث يعيش صاحبه حيَّ القلب، مرهف الحس؛ وشامل الآخرة، حيث النجاة مِنْ النار والفوز بالنعيم والرضوان.

ومِمَّا يدل على جودة هذا المسلك وأثره في تقويم الأخلاق؛ ما ورد في الحديث من أنَّ رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فقال له: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ».

اللهم أَعْلِ هِمَّتنا، وقَوِّ عزيمتنا، ووفقنا لكل خير.. آمين.

نماء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

للمربين..
..للأسرة..
..للدعاة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

أولادي والتقنية

بناء قيادات اجتماعية فاعلة

كيف نبني داعية مؤثراً؟

أريد بناء الخلق الحسن لدى ابنتي

ابني المراهق وعلاقته بالله

كيف أجعل طفلي منظما.

إعداد مؤسسة
المربي
ALMURABBI

إخراج و تصميم
BN
www.BNet.ws

حقيقة الغناء..

رؤية إيمانية نفسية تربوية

■ د. جمال بادي(*)
jamal956@gmail.com

أصلُ الموضوع هو في تعلُّق القلب وتوجُّهه، فالتوحيد هو صدق اللجوء إلى الله، وتعلّق القلب به سبحانه دون سواه، والأنس به، وإزالة كل العوالق والعوائق الأخرى التي تزاحمه.. ويتبع ذلك أن بغية القلب والروح هي في التعلق بالآخرة والرغبة فيها والاستعداد لها وتهيئة النفس للقدوم على رب العالمين.. وهذا يتطلب الجد والتشمير والسير الحثيث والاستعانة بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة وتجافي الجنوب في الأسحار للتغني بالقرآن، وتدبّر آياته ومعانيه، والانتقال مع تصويراته، والحياة مع تعليماته، وطلب هديه، والوقوف عند حدوده، وتعظيم شعائر منزله؛ لأن ذلك من تقوى القلوب.

بينما الغناء يعلِّق القلب بالرنين والإيقاع، وجميل النغم، ويحرّض على حب الدنيا وزهرتها ومفاتنها ومباهجها، مع التركيز على التعلق بالشهوة الجسدية، والوقوع في أسر العواطف، وما ترسمه الكلمات من صور ذهنية للمحبوب، الذي عادة لا يكون محبوباً على الوجه الشرعي الجائز، بل إن المحبوب يتعدد بتعدد المغنين الذين أصبحت أعدادهم بالمئات، بل بالآلاف، ويختار كل متطرب ما يحلو ويروق له من هؤلاء المغنين ممن يكون غالباً همه الدنيا، وليس بقدوة حسنة لا في أخلاقه ولا في أفكاره ولا في سلوكه ولا في مظهره وملبسه؛ فكل ذلك يخالف أمر الله تعالى.

كما أن الغناء يربي على اللهو والهزل، وهو واضح في سلوكيات الذين يتأثرون به، وهو بخلاف التربية الإسلامية التي تعتمد على الجد والمثابرة، والكدح والتنافس في فعل الخيرات والمعروف، وإن كان في ديننا فسحة للمرح والانبساط والمزاح لكن بقدر ووفق ضوابط حتى لا يطغى. كما أن الغناء

(*) الأستاذ في الجامعة الإسلامية بماليزيا.

يربي مستمتعه على الجرأة على انتهاك المحارم واستسهالها والتهيئة للانهماك فيها؛ لأنه يأخذ روحه ويلف بها دون مقاومة منه حول الحمى مرات كل يوم فكيف لا يرتع فيها؟

وقد قرَّر شيخ الإسلام في "الاقتضاء" بأن القلب لا يتسع لنقيضين: فإما القرآن وإما مزامير الشيطان. ووصّف سلفنا الغناء بـ "مزامير الشيطان" لعله من باب وصف آلة من أهم وأخطر آلات عدونا إبليس التي يستعملها في حرب عباد الله واستمالة قلوبهم لصرفها عن الحق والتلذذ بغير كلام الرحمن الذي يقود حتماً إلى هجرانه والانصراف عن هديه وحكمه ومواعظه.

إنه "التغيير السلبي باستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير"، فالذي يستمع إلى الغناء ويبالغ فيه ويتعلق به ويواصل التلذذ به؛ يتغيّر حاله، وقلبه، وفكره، وسلوكه، فمقل ومستكثر. وهنا تأتي مسألة غيرة الله على قلب عبده.

ومن مساوئ الغناء ومآلاته السلبية التعلُّق بالمغني إلى درجة العشق والهيام، حتى وجدنا من ينتحر عند سماعه بموت مطربه؛ يضاف إلى ذلك التعلُّق الشهواني إن كان المطرب من غير جنس المستمع، وتزداد الفتنة بمظهره ومفاتنه وحركاته وآهاته ولباسه ورقصاته ونظراته وبسماته!

وللموسيقى تأثير عظيم على القلب؛ فلها أثر نفسي وشعوري يجعل القلب يميل ويطرب ويتراقص مع نغماتها وإيقاعاتها وأوتارها، حتى قالوا في وصفها: "الموسيقى غذاء الروح"! فماذا بقي للروح إذن؟ وأي غذاء هو؟ أم أنه السم الزعاف؟ فما حال الروح التي تتغذى على كلام يحرّك همتها نحو الدنيء من الأقوال والتصورات، ويضعف شعلة الإيمان فيها، ويجرها نحو الفاني من الزخارف، ويلهيها عما خُلقت له من شرف العبودية لله تعالى؟

بناءً على ما تقرَّر آنفاً فإن هذا يستلزم من المؤمنين والمؤمنات العناية بقلوبهم وأرواحهم وتعهّدها بالرعاية والعناية والتربية للسير بها نحو الطريق المستقيم الذي سلكه الأنبياء والصالحون. فقلوبنا بحاجة إلى الغذاء الصحيح كل وقت وحين من الذكر والتذكر والفكر والتفكر فيما يقربها إلى خالقها والدار الآخرة والتواصي بذلك وعدم التهاون فيه أو السهو عنه، فإن القلوب إذا خلت من القرب من الله والأنس به سبحانه شدتها الجواذب، واحتوشتها العلائق، وتهاوشها قطّاع الطريق، وحينئذ علاها الران وأوشكت على الضياع والهلاك، ولا عاصم إلا الله، ولا قوة إلا به.

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١
المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ـ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

رئيس حزب الرشاد السلفي اليمني

الدكتور محمد بن موسى العامري لـ «البيان»:

• المرحلة التي تشهدها اليمن تستدعي أن يكون هناك حضور سلفي في المشهد السياسي.

• احتكار العمل لخدمة الإسلام من زاوية واحدة مع التزهيد في المجالات الأخرى عيبٌ ذريع.

• السلفية ليست حزباً معيناً وليست حكراً على طائفة بعينها.

• المسلمون جربوا المشاريع القومية واليسارية والعلمانية التي أوصلت الأمة إلى هذا التخلف، وحان دور المشروع الإسلامي.

• العمل السياسي جزء لا يتجزأ من مشروع الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

• غالبية الشعب اليمني لن يقبل بالتفريط في ثوابته ومصالحه.

■ أجرى الحوار: أحمد الصباحي
mosleh484@gmail.com
@AlsabahiAhmed

استهلال: يعدُّ الدكتور محمد بن موسى العامري من أبرز مشائخ وعلماء اليمن، ومن أوائل من تتلمذ على الشيخ مقبل الوادعي، ورحل إلى أرض الحرمين واستفاد من بعض مشائخها؛ كالشيخ عبدالعزيز بن باز، وابن عثيمين - رحمهما الله -، وغيرهما من المشائخ.. وأسس مركز الدعوة العملي بصنعاء، وهو نائب رئيس هيئة علماء اليمن، وعضو رابطة علماء المسلمين، ومؤخراً أسس مع بعض المشائخ أول حزب سلفي في اليمن باسم «اتحاد الرشاد اليمني». والشيخ العامري شارك في اللجنة الفنية للتحضير للحوار الوطني عن حزب الرشاد، ثم اختير عضواً للحوار الوطني، وبعد ذلك تم اختياره ضمن لجنة التوفيق في المؤتمر نفسه.. «البيان» التقت الدكتور العامري وحاورته عن المشهد السياسي في اليمن، والتجربة السلفية في العمل السلفي، وتداعيات التحول السلفي إلى العمل السياسي، والجدل الدائر عن الشريعة الإسلامية في مؤتمر الحوار، وغيرها من المواضيع في ثنايا هذا الحوار الشامل:

البيان: بداية كيف تصفون المشهد السياسي الحالي في اليمن؟

المشهد السياسي في اليمن يمكن أن ينظر إليه من زاويتين:

الأولى: وهي الجانب الإيجابي، وهو توافق القوى السياسية من خلال الحوار الوطني إلى بعض الصيغ التصالحية التي حالت دون دخول أبناء اليمن في دوامة الصراعات المسلحة والحروب الأهلية، وهذا الاتجاه بحد ذاته إذا نُظر إليه مجرداً يعد في الواقع مقارنة بما يجري في مناطق مشابهة إنجازاً لا بأس به، وهو ما أفرزته المبادرة الخليجية.

الثانية: وهي الجانب السلبي باعتبار ما يجري في الواقع على صعيد العملية السياسية بالغ التعقيد، سواء من حيث الأداء الحكومي لحكومة الوفاق الوطني وما يحيط بها من المناكفات السياسية والصراعات التاريخية بين القوى التقليدية التي قطفت ثمار الثورة الشبابية.. أو من الناحية الأمنية التي تزداد سوءاً وتدهوراً يوماً بعد يوم بسبب أعمال المليشيات المسلحة خارج إطار النظام والدستور لجماعة الحوثي وغيرها.

وكذلك بسبب الضعف الشديد في أداء الأجهزة الأمنية وغياب أو شبه غياب لتفعيل دور المؤسسة القضائية.

ولم يكن بعيداً عن ذلك الجوانب الاقتصادية التي جعلت من اليمن دولة أقرب ما تكون إلى منظومة الدول الفاشلة.

ويضاف إلى ذلك البطء الشديد في إجراءات وتنفيذ القرارات التي من شأنها ترسيخ مبدأ سيادة النظام والقانون ورفع المظالم ورد الاعتبارات للفئات المتضررة من مخلفات النظام السابق، وبخاصة في بعض المحافظات الجنوبية التي تشهد احتقانات متنامية بسبب هذه السياسة التي يرى كثير من المراقبين أنها مفتعلة؛ لإيجاد تسوية سياسية معينة تخل باستحقاقات المرحلة القادمة.

وفيما يتعلق بسيادة الدولة والحفاظ على استقلالية القرار فيها، هناك موجة

من السخط الشعبي بسبب الوصاية الدولية على سير العملية الانتقالية السياسية في اليمن، وفرض أجندة خارجية تستهدف النسيج الاجتماعي اليمني ومنظومة القيم والأخلاق المتجذرة فيه.

هذا عدا عن سلسلة الغارات الجوية الأمريكية في عدة مناطق يمنية بحجة القيام بمكافحة الإرهاب في اليمن.

البيان: بعد الربيع العربي اعتنق السلفيون العمل السياسي بعد أن كانوا يجرمونه ويحرمونه في السابق، فما الذي تغير؟

العمل السياسي وفق مقاصد الشريعة الإسلامية لم يكن محرماً ولن يكون كذلك عند علماء الإسلام عموماً وعلماء الدعوة السلفية على وجه الخصوص، باعتبار أن الإسلام دين ودولة وعقيدة وشريعة، وما يدور سابقاً ولاحقاً هو الحديث عن جدوى المشاركة السياسية في ظل النظم التي تتبنى مسلك الديمقراطية، وهي مسألة اجتهادية مصلحية تخضع العملية فيها لحسابات الربح والخسارة في فقه الموازنات الشرعية، وغالب علماء الدعوة السلفية وجمهورهم، سواء قبل أو بعد الربيع العربي، يرون أن هذا العمل يعد نوعاً من الحسبة متى ما رجحت مصالحه على مفاسده.

وهناك فئة قليلة جنحت إلى المنع من ذلك من منظور عقدي قد لا يكون له اعتبار في اليمن؛ لأن الدستور اليمني من الناحية النظرية ينص على أن الشريعة الإسلامية مصدر لجميع التشريعات.

وربما كان عزوف بعض السلفيين عن العمل السياسي يعود إلى مسالك بعض السياسيين من الناحية الواقعية التي لا تتعامل في مسيرتها السياسية وفق ضوابط الشريعة الإسلامية، وهو ما نتج عنه إخلال ملحوظ بالجانب القيمي والأخلاقي في تصرفات كثير من الوالجين في دهاليز العمل السياسي.

وهذا بحد ذاته لا يعد بالضرورة لازماً من لوازم العمل السياسي، إلا أنه قد أحدث نفوراً وردود أفعال لدى قطاع واسع من السلفيين.

وربما كان للمشاريع الدعوية والخيرية والتعليمية التي مارسها الدعاة السلفيون في اليمن وتكيّفت ظروفهم عليها؛ أثر بالغ في العزوف عن العمل السياسي، وهي جهود مقدرة وتتكامل وتتعاضد من وجهة نظرنا مع المشاركة في العمل السياسي، وبخاصة في هذه المرحلة التي يشهد فيها اليمن تحولات جذرية تستدعي أن يكون هناك حضور في المشهد السياسي وتفعيل دور العمل الاحتسابي في هذا المجال.

البيان: ما التصنيف الأيديولوجي الذي يمكن أن نصف به حزب الرشاد؟

حزب الرشاد اليمني جزء لا يتجزأ من الشعب اليمني، وينطلق في مبادئه من جملة من المبادئ، أهمها: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مرجعية المجتمع والدولة، وتقوم رسالته على تحكيم شريعة الإسلام وتحقيق نهضة اليمن وإصلاح المجتمع، وهي أمور ضرورية لكل توجه إصلاحي لا سيما في بلد الإيمان والحكمة التي لا يسع أي تيار سياسي أو اجتماعي إلا الالتزام بذلك.

وليس هناك أي تصنيف أيديولوجي يخصنا خارج إطار الجمل الثابتة التي يؤمن بها أبناء الشعب اليمني المنبثقة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما أجمعت عليه الأمة.

البيان: يعاب على السلفيين بُعدهم عن المشاركة في العملية السياسية والتنموية وتركيزهم على الجانب الدعوي، بالنسبة لحزب الرشاد كيف سيتعامل مع هذا الموضوع؟

ليس هناك ما يعاب على أي جماعة رأت أن بإمكانها أن تخدم الإسلام من أي منشط اجتماعي أو تعليمي أو سياسي متى ما كانت ترى نفسها مكملة ومترابطة مع غيرها، وإنما يأتي العيب من احتكار العمل لخدمة الإسلام من زاوية واحدة فحسب، مع التزهيد والتحقير في المجالات الأخرى، وكون بعض السلفيين قد اختار أن يسد ثغرة من ثغرات العمل الإسلامي المتعددة وفق رؤية تكاملية وشاملة؛ لا يعد في واقع الأمر عيباً، بل نراه منقبة ومزية تتدرج في منظومة التخصصات التي نفتقدها اليوم في أعمالنا المختلفة.

ونحن في «الرشاد» نرى ضرورة التكامل بين الأعمال ونسعى مستعينين بالله إلى ترسيخ ذلك من خلال دوائر وأنشطة الرشاد المتعددة.

البيان: البعض يعتبر أن الأحزاب السلفية في مصر واليمن وغيرهما من الدول، امتدادٌ للمدرسة السلفية

الوهابية، هل ينطبق هذا الأمر على حزب الرشاد، ولمن ينسب الرشاد نفسه؟

كثيراً ما يحاول خصوم المدرسة السلفية أن يحصروها في زاوية ضيقة ومختزلة، والذي نراه ونؤكد عليه دائماً هو أن السلفية تعني الالتزام بالكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف هذه الأمة، ومثل هذا الأمر يعنى به الإسلام بشموليته واستيعابه جميع جوانب الحياة، فالسلفية إذن ليست حزباً معيناً وليست حكراً على طائفة بعينها، وكون الإمام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – قد أحدث نهضة تجديدية أو غيره من أئمة الإسلام؛ هذا لا يعني بالضرورة الالتزام بجميع آرائه واجتهاداته، شأنه في ذلك شأن غيره من علماء وأئمة الإسلام الذين يستفاد من علومهم وإنجازاتهم وتجاربهم.

وحزب الرشاد لا ينسب نفسه لشيء سوى الإسلام والسنة، ويعتبر نفسه واحداً من المناشط التي قامت لخدمة الشعب اليمني والحفاظ على مصالحه وثوابته، سالكين في ذلك الطرق المشروعة السلمية، ومتعاونين مع كافة شرائح المجتمع السياسية والاجتماعية لتحقيق الشراكة النافعة التي يحتاج إليها اليوم أبناء الشعب اليمني في ظل هذه الظروف التي تعصف به.

البيان: كيف يجد السلفيون في اليمن أنفسهم وهم يمارسون العمل السياسي؟

هناك دون أدنى شك فارق كبير بين الجانب النظري في العمل السياسي والجانب التطبيقي، وكلاهما ضروريان، غير أن الدخول في العمل السياسي وممارسة ذلك مع بقية القوى السياسية يمتاز عن الجانب النظري بكونه أقرب ما يكون إلى الواقعية، ومعرفة سير العملية السياسية، وتشابك المصالح، وتقدير المصالح والمفاسد بصورة أنسب وأقرب إلى الحقيقة من مجرد التنظير السياسي الذي كثيراً ما يكون جانحاً إلى النظرة المثالية.

ومن ناحية أخرى، فإن الدخول في العمل السياسي من الناحية العملية يعد بحد ذاته مدرسة في تنمية القدرات والمهارات لدى العاملين في حقل العملية السياسية.

البيان: بعض الناس يتخوّفون من وصول الإسلاميين إلى الحكم بحجة أنهم غير قادرين على إدارة المرحلة الراهنة، هل أنت مع هذا التخوف؟

الذين يزرعون مثل هذه الإيحاءات أو التخوفات من وصول الإسلاميين إلى سدة الحكم لا يخرجون عن ثلاث فئات:

الفئة الأولى: وهم خصوم الإسلام، سواء كانوا من خارج دائرة الإسلام أو كانوا من المتلبسين بالإسلام والمنتسبين إليه من ضحايا المؤامرات الخارجية.

الفئة الثانية: هم الذي يجهلون حقائق المشروع الإسلامي وما يشتمل عليه من الهدى والرحمة والعدل والحقوق والحريات المشروعة وغير ذلك من معاني الخير.

الفئة الثالثة: وهم المتظاهرون بالإسلام الذين يريدون منه أن يكون مفصلاً على حسب أهوائهم، وهؤلاء يحاربون المشروع الإسلامي ووصول الإسلاميين إلى سدة الحكم خوفاً من انكشاف حالهم ومن بروز نموذج إسلامي يبين حقيقة ما هم عليه.

وأما القول بأن الإسلاميين غير قادرين على إدارة المرحلة، فإن الزاعمين لهذه المقالة هم أول من ينكرونها، ولو كانوا مقتنعين بذلك لما أقدموا على محاربة وصول الإسلاميين إلى الحكم ولأفسحوا لهم المجال ليظهر فشلهم، لكن لعلمهم ويقينهم بأن الأمر مختلف عن مزاعمهم فإنهم لا يألون جهداً في تقويض دعائم أي توجه إسلامي.

وقد جرب المسلمون مشاريع قومية ويسارية وعلمانية أوصلت الأمة إلى هذا التخلف المزري في جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية وغيرها.

البيان: لكن هل ترى أن السلفيين في اليمن مناسبون لدخول العمل السياسي؟

نعم، السلفيون سيقدمون بمشيئة الله الكثير من خلال مشاركتهم في العمل السياسي، وسيتكاملون مع غيرهم من القريبين منهم؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى سيقدمون – بإذن الله – نموذجاً جديداً للسياسة الشريعة والخطاب الإسلامي الراشد الذي كاد أن يتلاشى في ظل الحملات المسعورة على المشروع الإسلامي وانهزام كثير من الناس أمام هذه الحملات.

وبالجملة، فالعمل السياسي هو جزء لا يتجزأ من مشروع الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المقرر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

البيان: هناك من ينادي بإدماج الحركة السلفية مع الإخوان في إطار واحد أو مكون مشترك باعتباركم جميعاً تياراً إسلامياً، هل أنت مع هذه الفكرة، ولماذا؟

مسألة الدمج بين الحركات أو الأحزاب الإسلامية قد تكون إلى حد كبير مثالية في ظل الاختلافات الحاصلة بين مكونات العمل الإسلامي، وفي ظل الظروف الراهنة، وقد يكون التعدد متى ما حقق المقصود وهو التعاون على البر والتقوى والتنسيق في الأمور المشتركة التي هي محل اتفاق بين الجميع، قد يكون ذلك هو الأقرب إلى الواقعية وإمكانية التطبيق، وهذا بحد ذاته متى ما تحقق سيمهد لما بعده من التقارب أكثر بين العاملين للإسلام، على أن التعدد متى ما كان برامجياً وفي حدود الوسائل أو الاختلاف المقبول سيظل باقياً ما بقي الاجتهاد في الأمة.

البيان: كيف تقرأ مجريات الحوار الوطني الذي يقام حالياً في اليمن؟

مجريات الحوار الوطني يمكن النظر إليها من زوايا مختلفة ومتعددة، فالحوار لا شك جنَّب اليمنيين ويلات الدخول في صراعات مسلحة وحروب أهلية، وهذا بلا شك أمر لا يمكن التقليل من شأنه، ومن جهة ثانية أعطى نموذجاً جديداً لتلاقح الأفكار وسماع ما لدى الآخرين وسماعهم من غيرهم.

ولا ريب أن السماع من المخالفين مباشرة غير السماع عنهم؛ لأن ذلك يجعلنا نقف على حقيقة الأمور كما هي، وكثير منهم عندما التقوا الدعاة في هذا الحوار غيروا نظرتهم، والعكس حاصل، على الأقل في بعض الجوانب التي كان فيها شيء من التضخيم أو سوء النقل أو التلفيق، فكون كل طرف يسمع من الآخر بكل تأكيد سيجعل الأمر مختلفاً عن تلقف الأقاويل بالوسائط المختلفة، على أن الخلاف قائم وله خلفياته بين المتحاورين، لكن المكاشفة المباشرة ستكون مفيدة للطرفين.

ويضاف إلى ذلك مجريات الحوار الوطني مرصودة إعلامياً وبارزة للجميع، وهي فرصة لإيصال الخطاب الشرعي المفيد والحلول الحقيقية لعامة الناس بدلاً من الاكتفاء فقط بالمشاريع القاصرة أو الضارة، فهو إذن منبر جديد من منابر الخطاب الإسلامي العام للمجتمع.

البيان: ما أبرز مخاوفكم من هذا الحوار؟

الحوار بحد ذاته ليس فيه ما يدعو للمخاوف؛ لأن القرآن الكريم والسنة النبوية مليئان بالحوارات مع الموافقين والمخالفين، والتحاور والمجادلة بالتي هي أحسن من أهم السبل لإيصال الحق إلى الخلق، والتخوف الذي كنا قد أشرنا إليه في فترات سابقة مرده إلى أن مخرجات الحوار الوطني ستتحول إلى مواد دستورية وعقد اجتماعي بين الحاكم والمحكوم، ومثل هذه المواد يجب أن تكون محل رضا من الشعب اليمني المسلم، ولا يمكن أن تكون كذلك ما لم يكن المتحاورون يمثلون حقيقة عموم الشعب اليمني وفي مقدمتهم علماء الشريعة الإسلامية الذين أقصوا من المشاركة الفاعلة في الحوار الوطني، هذا مع أن تركيبة الأعضاء في الحوار الوطني لم تقم على أسس ومعايير موضوعية بقدر ما كان للبعد الخارجي تأثيره في أنماط المشاركين في الحوار الوطني بسبب دخول اليمن في أزمة خانقة بعد قيام ثورة الربيع العربي.

البيان: هناك جدل حول الشريعة الإسلامية في الحوار الوطني، ما الجديد في هذه القضية؟ وهل تم حسم الخلاف الدائر حول المادة الأولى من الدستور التي تنص على أن الشريعة هي المصدر الوحيد للتشريع؟

مسألة الجدل حول الشريعة الإسلامية في الحوار الوطني وكونها مصدراً لجميع التشريعات، ليس لها ما يبررها في الواقع؛ لأن معاناة الشعب اليمني وتعدد مشاكله كافية عن افتعال إضافات جديدة من الصراعات والوضع لا يحتمل مزيداً من المعاناة، والذين يفتعلون خصومات حول الهوية الإسلامية لا يخرجون عن صنفين من الناس:

الصنف الأول: وهم الذين لا يقدرون المسؤولية حق قدرها ولا يدركون معاناة الشعب اليمني وما فيه من اختلالات وإعاقات تستدعي الاصطفاف الشعبي لمعالجة المشكلات الحقيقية.

الصنف الثاني: وهم الذين يراهنون على خلق وإيجاد الصراعات المفتعلة لتسويق مشاريعهم التي لا تنمو إلا في أجواء الفتن والصراعات، فلذلك يحاولون زرع بذور الفتنة وإشغال

الناس عن البنـــاء والتنمية بمثل هذه الافتعالات.

ومن جهة ثانية يريد بعض الرافضين لأن تكون الشـــريعة الإسلامية مصدراً لجميع التشـــريعات، أن يسوقوا أنفسهم لدى الدوائر الخارجية لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية، والأخطر من ذلك كله أن يوجد من يســـعى لســـلب وصف الهوية الإسلامية عن الدولة لعزلها عن مجتمعها اليمني بقصد التحريض عليها وتأليب الناس عليها لاحقاً بغية ترويض الناس فيما بعد لمشاريع وأجندة خارجية ذات طابع عنصري وســـلالي أو مذهبي ومناطقي.

وبالجملـــة، فـــإن هذه المســـألة لم تحسم بعد ولا يزال الحوار جارياً فيها، وأملـــي أن يغلِّب أهل اليمن ما عرفوا به من الحكمة، وينأوا بأنفسهم عن الدخول فـــي متاهة الجـــدل حـــول المحكمات والمسلمات الشـــرعية، ويفوتوا الفرصة على المتربصـــين الذين لا يريدون لليمن أمناً ولا استقراراً.

البيان: ما الإجـراءات التـي يمكـن أن يتخذهـا العلمـاء والسـلفيون فيمـا إذا انحـرف مسـار الحوار الوطنـي إلى ما تحذرون منه؟

علماء اليمن لا شـــك أنهم يحظون باحترام كبير في أوســـاط المجتمع في عموم مناطق اليمن، ولا شك أن التجاهل أو التجافي عن محكمات الشريعة إذا ما تم، أو الإخلال بمصالح الوطن الكبرى؛ ســـيدفع العلمـــاء لأن يقومـــوا بواجب النصح والبيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومثل هذا ســـيكون له تأثير كبيـــر وخطير على مخرجـــات الحوار الوطني التي ستفقد شرعيتها ولن تكون محل رضا غالبية الشـــعب اليمني الذي لن يقبل التفريط في ثوابته ومصالحه، والمنطق الســـليم يقول إن إيجاد القناعة الشـــعبية والرضا عـــن المخرجات هو المحك الحقيقي لبناء الدول على أسس سليمة.

البيان: ما موقـف حـزب الرشـاد من فتنة الحوثي في صعدة؟

موقفنـــا من قضية صعدة في حزب الرشـــاد واضـــح تقدمنا بـــه في فريق صعدة في الحوار الوطني، حاصله أن ما قامت به جماعة الحوثي من أعمال في محافظة صعدة وما حولها من الدعوات العنصرية وحمل الســـلاح على المجتمع والدولة؛ أمر مرفوض شـــرعاً ونظاماً، وأن على الدولة أن تبســـط نفوذها في جميـــع مناطق اليمن حتـــى تحول دون قيام المشاريع الطائفية الممولة من إيران وغيرها.

وأوضحنا مـــراراً وتكراراً أن أعمال جماعـــة الحوثي وقيامهـــا بصلاحيات السلطة المحلية في صعدة، قد أدى إلى أن تفقد الدولة ســـيادتها، وســـتكون له انعكاساته السيئة على الأمن والاستقرار في المنطقة.

البيان: تعليـق أخيـر علـى مـا جـرى فـي مصـر، وهل سيؤثر على الإسلاميين في اليمن؟

بكل تأكيد مـــا جرى في مصر من الانقلاب العســـكري ومصـــادرة إرادة الشـــعب المصري وإعـــادة إنتاج النظام القمعي؛ سيكون له تأثيره على المنطقة عموماً واليمن بشـــكل خاص؛ نظراً لما تحظى بـــه مصر من مكانة سياســـية وثقافية وجغرافية في المنطقة، لكن ما يجري في مصـــر لا يلزم بالضرورة أن يستنســـخ تماماً في بلد آخر، ومن ذلك اليمن؛ لاختلاف الظـــروف والمناخات السياســـية، وللخصوصيات المجتمعية اليمنيـــة، فالعداء الصـــارخ للتوجهات العلمانية في مصر للمشروع الإسلامي قـــد لا يكون بالضـــرورة يحظى بنفس الحجم فـــي اليمـــن، وتركيبة الجيش المصـــري أيضـــاً تختلف عـــن تركيبة الجيـــش اليمنـــي، هذا إضافـــة إلى خصوصية اليمن مـــن الناحية القبلية ودورهـــا الكبير في مجريـــات العملية السياسية، وهي قوة لا يستهان بها في النســـيج الاجتماعي اليمني المحافظ، وقبل ذلك كله يـــرى كثير من المحللين أن ما جرى في مصـــر من تآمر دولي علـــى حملة المشـــروع الإســـلامي له دوافعه الاستعمارية وحساباته الدقيقة فـــي الموقع الإقليمـــي المصري المحيط والمجـــاور لدولـــة اليهـــود وتأثير ذلك المباشر على أمنها واستقرارها في حال نجاح التجربة الإســـلامية التي ســـعى خصومها لإجهاضها.

وبالجملة، فإن أخذ الدروس والعبر مما جرى في مصـــر أمر بالغ الأهمية، وهو دور منـــوط بكل مواطـــن صالح، وفـــي مقدمة ذلك أهل الحل والعقد من العلمـــاء والدعاة والقيادات السياســـية الواعية وشـــيوخ القبائل وبقية شـــرائح المجتمع.

الاستدلال الأعمى

■ د. فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@gmail.com
alajlan_f

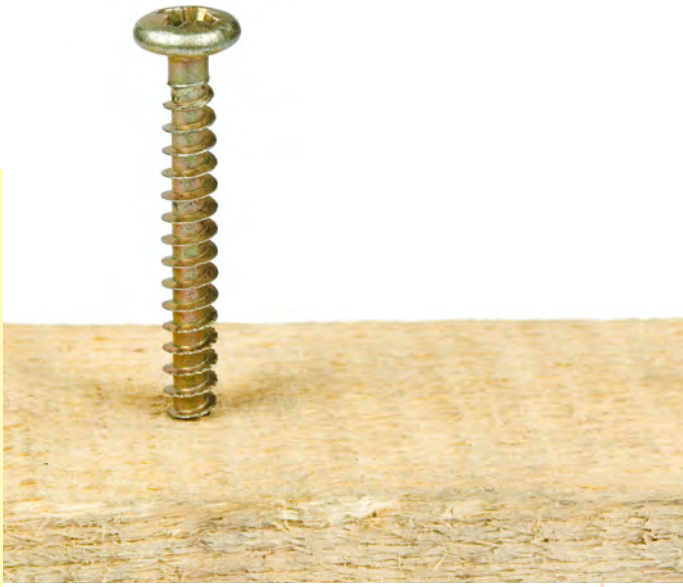

سأتجاوز كثيراً من المقدمات لأصل إلى هذه النتيجة المهمة:

لا يكفي أن تستدل بأي نص شرعي ليكون قولك موافقاً للشريعة، فالعبرة ليس بوجود أي استدلال بالشريعة، بل يجب أن يكون هذا الاستدلال صحيحاً ومستقيماً وفق الأصول المنهجية الموضوعية للاستدلال.

من قواعد الاستدلال المنهجي السليم: أن يكون النظر فيه شاملاً لجميع النصوص والقواعد الشرعية، فلا ينظر في بعض النصوص ويهمل بعضها، فهذه هي البذرة التي نبتت منها ظاهرة الافتراق في الدين فأنتجت الفرق والجماعات البدعية في الفكر الإسلامي، فإشكالية جميع هذه الفرق القديمة من شيعة وخوارج ومعتزلة وغيرها، أنها تأخذ ببعض الشريعة، وتستدل ببعض النصوص.

وبعض النفوس - نظراً لتعظيمها النصوص الشرعية - تتقبّل أي استدلال فتجعله مقبولاً بغض النظر عن سلامته، وهذا ما جعل بعض الصحابة يحذرون من خطر الجدال بالقرآن: (فإنه من اللسن الألد من أعظم الفتن لأن القرآن مهيب جداً، فإن جادل به منافق على باطل أحاله حقاً، وصار مظنة للاتباع على تأويل ذلك المجادل)[1].

(١) الموافقات للشاطبي ٣/٢٨٣.

سأضرب لهذا الخلل في الاستدلال بمثالين يشرحان طريقة من طرائق هذا الاختلال:

المثال الأول

في سياق حرص كثيرٍ من المعاصرين على التعايش الإنساني بين الأديان وتقديم صورة متسامحة عن الإسلام، يصححون سلوك أي طريقٍ لعبادة الله ولو لم يكن طريق الإسلام ما دام أن الشخص موحد لله ولا يشرك به شيئاً، أو يكون غير مكذب للرسول ﷺ، وقد يتجاوز بعضهم حتى عن هذا الشروط، ويستدلون بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فالشاهد من هذه الآية – بحسب فقههم – أن الله تعالى قد حكم بفلاح ونجاة من آمن به ولو كان يهودياً أو نصرانياً، فهو دليل – في نظرهم – في غاية الصراحة والقطعية على أن اليهود والنصارى المعاصرين إن كانوا مؤمنين بالله فهم مستحقون للنجاة يوم القيامة.

من يقرأ هذه الآية فقط ولا يعرف أي شيء من القرآن ولا أي شيء من سنة رسول الله ﷺ ولا شيئاً عن سيرته ولا إجماعات المسلمين؛ فإنه سيقول فعلاً هذه الآية تحتمل هذا المعنى، إلا أنه حين يقبل هذا المعنى فإنه سيهدم عشرات الأدلة الشرعية الأخرى، وسيهدم الإسلام كله؛ فالقضية ليست أن تستدل بأي دليل، بل يجب أن تعرف طبيعة استدلالك كيف سيكون؟

فالعلماء يفسرون الآية بأنها تحتمل معنيين:

الأول: أن تكون في اليهود والنصارى الذين أدركوا بعثة النبي ﷺ فآمنوا به.

الثاني: أو هي فيمن كان قبل بعثة النبي ﷺ ممن آمن بالأنبياء من قبله. وحين يضيف أحد احتمالاً ثالثاً وهو أن يكون شاملاً لكل اليهود والنصارى حتى في زماننا، فهو يهدم الإسلام كله بهذا الاستدلال من حيث لا يشعر!

فالله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، كما أن من لا يؤمن بالرسول ليس مؤمناً في لفظ الشارع كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ – ٢]، ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]، بل إن الله قد نفى الإيمان عمن لم يحكّم رسوله: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، فكيف يجعل الكافر برسوله والمكذب مؤمناً في لفظ الشارع؟! فلفظ الإيمان لا يتحقق في اليهودي والنصراني الذي لا يتبع الإسلام، وتسميتهم مؤمنين في مقابل الملحدين أو الوثنيين هو اصطلاح عرفي خاص ببعض المعاصرين فلا تُقرأ نصوص الشريعة بناءً عليه.

كما أن الله في القرآن جعل الناس صنفين: إما مسلم أو كافر: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ، وليس هناك في الشريعة مرتبة إيمان ليست بإسلام ولا كفر؟ فمن لم يؤمن بالرسول فهو كافر ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

كما أن في القرآن آيات كثيرة في الأمر بالإيمان بالرسول وطاعته واتباعه، والأمر بالإسلام والاستمساك به حتى الوفاة، وأنه دين الأنبياء جميعاً، وفيه كفر من لم يؤمن بالقرآن أو كذب بالرسول، وجاء فيه عموم رسالته للعالمين، وجزاء المعرضين والمجادلين في آياته، وأن طاعته سبب لدخول الجنة، وأن جزاء معصيته النار، والنهي عن الاستغفار والدعاء لمن كفر بالرسول، وأن التكذيب بالرسول تكذيب بالشرائع من قبله، وفيه آيات في كفر اليهود والنصارى، وغير هذا كثير من الدلائل التي ستتهدم بسبب قبول هذا الاحتمال الثالث!

وعلى طريقة هذا الاستدلال فيمكن أن يقرأ بعض الناس قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، فيقول: هذه الآية تحتمل تعدد الآلهة! ويمكن أن تستخرج من أشباهها من الأمثلة ما لا يحصر.

هذا مثال، يستدل بآية قرآنية على معنى يتفق المسلمون جميعاً على غلطه، بل كفره، فهو يستدل بالقرآن وقد أعمى بصره عن النصوص الأخرى وكأنه لا يعرف شيئاً آخر!

المثال الثاني

وفي سياق المصالحة مع مفاهيم الحرية الليبرالية الغربية يقرر كثير من المعاصرين أن الإسلام قد كفل حرية الاعتقاد والرأي مطلقاً إلا بشرط عدم الاعتداء والإضرار المادي، وأما ما دام في محيط الفكر والرأي والقناعة فالشريعة تكفل له هذا الحق ولو تجاوز قطعيات الشريعة أو اختار المجاهرة بالخروج من

الإسلام ورفض أحكامه، ويستدلون لهذا الحكم بقول الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يقولون: هذه آية محكمة صريحة قطعية الدلالة بأن الشريعة لا تكره الناس على المجاهرة بما يرونه ديناً وفكراً لهم، وربما تحمس بعضهم، فقال أحدهم: إن في القرآن عشرات الآيات القطعية المحكمة على هذه الحرية. وزاد آخر: إن هذه الآيات محكمة لا يمكن أن يشملها نسخ ولا تخصيص لأنها من الأصول الكلية.

هذا الحكم القطعي الذي فيه عشرات الآيات – لاحظ عشرات الآيات – كان غائباً عن فقهاء الإسلام ولم يكتشفه أحد من العلماء خلال قرون طويلة، فكان الفقهاء يقررون حد الردة كما هو قول جماهير الأمة وحكي إجماعاً، وحتى ما حكي من خلافٍ فهو في عدم القتل مع ضرورة العقوبة والحبس والاستتابة ولم يقل أحد منهم بتاتاً بحرية الردة، فعجباً كيف غابت عشرات الآيات القرآنية عن أعصار وأمصار المسلمين طيلة هذه القرون؟

طبعاً لم يغب عنهم هذا الشيء، وهم أفقه وأعمق في دلائل الكتاب من فوضى المعاصرين، وما يميز الفقهاء المتقدمين أنهم يستحضرون النصوص جميعاً فلا يستدلون بنص بما يهدم النصوص الأخرى، فلا أحد منهم بتاتاً أوجد معارضة بين قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقول النبي ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه)، بل كل تفسيراتهم للآية تعود إلى الكافر وليس إلى المسلم المرتد، لماذا؟ لأن جعل عموم الآية يشمل حتى المسلم يؤدي إلى هدم كليات شرعية كثيرة، فإذا قلتَ لا وجود لأي إكراه في الإسلام فمعناه أنه لا وجود لحدود ولا عقوبات شرعية، ولا وجود لواجبات ولا محرمات، وأن النظام الإسلامي يكفل للمنافقين شتم الرسول والتطاول عليه وإعلان محادة الإسلام، فعلى هذا تخرج جيوش الإسلام لتفتح الأمصار حتى تعطي الحرية لأهل الأمصار في الطعن في الإسلام والإساءة إليه والدعوة إلى هدمه!

وكل هذا باطل بداهة، ولا يمكن أن يقع في نفس فقيه، ولهذا لم يستطع العدد الكبير من المعاصرين الذين يقررون مثل هذا الاستدلال أن يأتوا برأي فقيهٍ واحدٍ فقط في أي عصر من العصور يقرر مثل كلامهم هذا، أو يستدل بالآية على مثل ما استدلوا عليه، بما يعني أن هذا الرأي، وتلك الطريقة في الاستدلال، لا علاقة له بالمنظومة الفقهية.

هذان مثالان، ولعل ثمّ أمثلة أخرى كثيرة قد سقطت على ذهن القارئ بعد مروره على هذين المثالين، لأنها ظاهرة شائعة في الحالة الثقافية المعاصرة؛ تستدل بالقرآن بما ينقض أحكامه، وتتبرع بتخريج الأفكار والاتجاهات الغربية بما يجعلها لا تخالف الشريعة!

يأتي الخلل عند هذا الاتجاه في كونه يبحث في القرآن والسنة فيستخرج منهما الاحتمال الذي يراه يفهم من دلالة الآية أو الحديث، من دون استحضار للأحكام الشرعية جميعاً بما يجعله يخرج فهماً من آية تنقض أحكاماً كثيرة!

لا تقع مثل هذه الاستدلالات عند أحد من فقهاء الإسلام المتقدمين؛ لأنهم يدركون أحكام الشريعة جميعاً، فلا يمكن لأحدهم أن يستدل بحكم ينقض أحكام الشرع الأخرى، فهو يعرف بناء الشريعة المحكم، فينظر إليها كمنظومة متكاملة، كما أن المجتهد في أحكام الشريعة كان عالماً بالفقه والحديث والقرآن والتفسير ولغة العرب فما كان يستخرج الأحكام بناءً على الاحتمال العقلي المحض!

القصور في فهم الشريعة، وضعف الاطلاع الشرعي الذي يجعل الشخص غير مستحضر لمقاصدها وفروعها وتفصيلات أحكامها؛ هو الذي يجعل الشخص يتهاون في قبول كثير من الأحكام ويتأول غيرها، فكثير ممن يخوض في هذه الأحكام من المتخصصين في العلوم المختلفة، حين تقارن معرفته التخصصية ومعرفته بفقه الشريعة يتبدى لك السبب، فإن كثيراً منهم لا يتجاوز طريقة أن يعرض الفكرة الغربية ثم يقرر أن الشريعة سبقت الغربيين في هذا، أو أن هذا مما تقرره الشريعة، أو في أحسن الأحوال أن الشريعة تقبل هذا إلا باستثناء مسألة أو مسألتين، فبدلاً من أن يستحضروا تفصيلات الشريعة وأصولها ويقدمونها كمنظومة متكاملة، أصبحت وكأنها هامش على المتن الأوروبي!

هذه الاحتمالات لم ترد على أذهان فقهاء الإسلام؛ لأن استحضارهم للنصوص الشرعية يعصمهم من استحضار أي احتمال ينقض أصولها، فهم لا يفهمون النصوص بناءً على التفكير العقلي المحض الذي يستحضر كل الممكنات العقلية، كما أنهم متجردون في فهم النصوص ولا يعيشون تحت ضغط منظومة مفاهيمية معاصرة يريدون التكيف معها فتتزين لهم الاحتمالات الليبرالية من بين النصوص الشرعية!

[المسلمون.. والعالم]

- الأزمة المصرية.. سيناريوهات المستقبل
  طلعت رميح
- الغرب والموقف من الثورة السورية
  مازن أبو بكر عبد الله باحميد
- الضربة العسكرية المرتقبة على سورية
  محمد قطب

الأزمة المصرية..
سيناريوهات المستقبل

■ طلعت رميح(*)

@talaatromaih

تخيِّم على المشهد المصري بكل مكوناته وقواه حالة من الارتباك في تحديد المواقف والمواقع. الرأي العام بات حائراً بحق بين رغبته وطلبه للاستقرار - الذي طال انتظاره - وما يعيشه وتعيشه البلاد من تقلبات متعاقبة على صعيد السلطة السياسية والأوضاع الأمنية والاقتصادية. وإذ تصور الجمهور العام أن ما شهدته مصر من عنف وقسوة وانفلات خلال مواجهات ثورة يناير قد ولى وفتح الطريق لتطور وتقدم واستقرار واحترام للديمقراطية وحقوق الإنسان؛ فقد وجد نفسه مجدداً أمام أحداث صادمة وأشد قسوة ومرارة وعنفاً ودموية على صعيد الضحايا والانفلات وتعطّل دورة الاقتصاد وفقدان بوصلة المستقبل والتشويش عليها. لقد تحول الرأي العام إلى الخوف مما يأتي به المستقبل، وهو الذي كان مستبشراً عقب إطاحة مبارك.

والأسوأ أن القوى السياسية ليست في وضع مختلف عن الرأي العام لأوجه متعددة وأسباب مختلفة؛ فهناك أن القوى الرئيسية التي تفاهمت خلال ثورة يناير باتت في وضع الاشتباك الدموي الحاد، فالحركة الإسلامية والمؤسسة العسكرية - وهما عماد التماسك الوطني والمجتمعي والسياسي - قد انفتح الطريق للصراع المفتوح بينهما، بل صارت الحركة الإسلامية في وضعية المطاردة الساخنة على نحو لم يكن يدور بعقل أي مواطن مصري من هؤلاء الذين ذهبوا إلى صناديق الاقتراع عدة مرات ليمنحوا الأغلبية لهم في التشريع والرئاسة والدستور بنفس القدر الذي لم يتوقعه أحد من القادة السياسيين الإسلاميين خاصة..

والرئيس والدستور وكل البناء السياسي الجديد الذي هو محور ما أُنجز سياسياً وشعبياً خلال عامين ونصف من الثورة؛ أصبحت من الماضي وسط وضعية صراع جماهيري ودماء تدفع من أجل العودة. والاقتصاد الذي كان محوراً لآمال وتوقعات زادت عن الحد في مطالبها الاجتماعية؛ صار يشهد تراجعات وحالة اضطراب متفاقمة دون أفق منظور للتحسّن، وهو أمر لم يربك الجمهور العام فقط، بل الساسة أيضاً؛ إذ هم لم يمتلكوا خططاً فعلية لتحقيق تغيير اقتصادي، بل هم لم يدركوا حجم التحدي الاقتصادي ومرتباته الاجتماعية ما بعد الثورة. وزاد من ضبابية المشهد وعوامل الإرباك والقلق أن الصراع السياسي باتت تتصاعد خطواته بثبات نحو الأسوأ، إذ تنتشر مقولات وتخوّفات عن احتمالات انزلاق البلاد نحو حرب أهلية.

(*) كاتب وباحث سياسي.

هذا الارتباك الذي يخيّم على المشـــهد السياسي والشعبي ليس إلا عنواناً لعدم وصول تلك الحالة المشـــتبكة إلى وضعية حاســـمة من الأقلية والأغلبية داخل المجتمـــع، ولعدم حدوث تغيير حاســـم في توازنات القوى يحقق فرصة حسم الصراع لمصلحة أحد الطرفين الرئيســـيين المتصارعين، وهو ما يفتح الباب لصراع متطاول يســـعى فيه كل طرف لاستخدام عوامل قوته على اختلاف طبيعتها لتحقيق انقلاب في موازين القوى وحسم النزاع.

والمعنـــى أن طرفي الصراع أو النـــزاع الجاري في مصر قد تحدَّدا على نحو يصعب فيه الوصول إلى وضعية الحلول الوسط، وأن الصراع الجاري هدفه تغيير توازنات الصراع عبر اكتســـاب القوى والأطراف الأخرى لصف أي من الطرفين الرئيسيين، وهو ما يعني بطبيعة الحال سعي كل طرف لتحقيق هذا الهدف وفقاً لطبيعة عوامل القوة والقدرة التي يمتلكها أو التي يســـتمدها من طبيعته الخاصة.

كيف وصلنا إلى هنا؟

منذ بداية ثورة يناير ٢٠١١ وتحذيرات الخبراء الاستراتيجيين متصاعدة حول هشاشة ما جرى من تغيير في السلطة السياسية والتنفيذية والمجتمع وعلى صعيد الاقتصاد والإعلام في مواجهة من تصوّر أن حســـم معارك الثورات ينتهـــي حين الوصول إلى الســـلطة، وأن التغيير يمكن أن يجرى من أعلى، وأن هذا التغيير من أعلى هو تغيير آمن يدفع نحو الاستقرار... إلخ.

وقد شهدت مصر منذ قرار تخلي مبارك عن الحكم، حالة حقيقيـــة من خطط إدارة الأزمات مـــن قبل القوى التي جاءت ثورة يناير على حســـاب مصالحها، دون أن تتعامل قوى الثورة وتعبيراتها بنفس الفهم الخططي؛ إذ سيطر على حركتها منهج ارتجالي اتكالي لا يفهم أصحابه لا طبيعة عوامل قوتهم هم ولا عوامل ضعف الآخر، ولا الطبيعة الصفرية للصراع الجاري منذ الثورة، ولا الطبيعة المعقدة للصـــراع الجاري في مصر داخلياً وإقليمياً ودولياً، بل لم يُظهر هؤلاء إدراكاً بحجم ما سينتج عن وصولهم إلى السلطة من تغيير حاد في مصر والإقليم والعالم.. وذلـــك هو ما مكّن الطرف الآخـــر صاحب الخطة المحددة من إنفـــاذ خطته التي فتحت الطريق إلى الصـــراع الجاري حالياً بعـــد أن انقلبت وتغيّرت عوامل القـــوة والضعف لدى الطرفين المتصارعين.

ويمكن تلخيص اســـتراتيجية القوى المتضررة من ثورة يناير في أربع مراحل؛ بدأت بالمواجهة والحســـم عبر قوات الشرطة، ومن بعد عبر الجماعات المســـلحة غير المنظمة (البلطجية في موقعة الجمل)، ففشلت، فتطورت الخطة إلى حالة "التماهي" مع الثورة وحركة الشارع برفع شعاراتها وإخراج مبارك من قمة هرم السلطة – دون فقد أي من أوراق قوتها الذاتية –، مع المحافظة على أجهزة الدولة وعناصرها، وهو ما نجحت فيه وتعمقت حتى صارت مع الوقت طرفاً مهيمناً على مشـــهد المرحلة الانتقالية.. وخلال المرحلة الثالثة تحوّلت تلك القوى المتضررة من الثورة إلى قـــوة ثورية، بل أكثر ثورية من الثوار – صناعة آباء مزيفين للثورة –، وصارت طرفاً سياســـياً فاعلاً في داخلهـــم، بما مكّنها من اختراق قوى الثورة من داخلها وتمزيق تحالفات القوى السياسية التـــي صنعت الثورة ووحدتها، وهو ما جـــرى متزامناً مع إبطاء وتعويق تحقيـــق أي منجزات للثورة على الأرض.. وهكذا انتقلت إلـــى المرحلة الختاميـــة التي تمثلت في صناعة وضع سياســـي وجماهيري تحدث عن نفسه في ٣٠ يونيو الماضي.

قامـــت الخطة، وهذا النمط مـــن إدارة الأزمة، على القيام بخطوات تراجع تكتيكية وشـــكلية، واغتنـــام الوقت في تفكيك جبهة القوى السياسية، وإنهاء حالة احتشاد الجمهور العام حول الثورة وقواها وإشـــعاره بالإحباط والضغط عليه معيشياً وأمنياً لجعله فـــي موقف تمنى لو أنه لم تقم الثـــورة، وهو ما تصاعد على نحو حاد قبل يوم ٣٠ يونيو مباشـــرة. وفي مقابلها لم تكن هناك خطة اســـتراتيجية حقيقية، كما لم تبادر قوى الثورة إلى اتخاذ خطوات أو اعتماد تكتيكات لإفشال تطور خطة خصمها، فظهرت في وضع المستســـلم اســـتراتيجياً. لقد سُرق الجمهور العـــام منها بينما هي تتعارك مع بعضها البعض على ما لا يعني الجمهور مباشـــرة. لم تدرك قوى الثورة ضرورات تشكيل نمط من الجبهات والاتفاقيات انطلاقاً من وجود خصم مشـــترك لها هـــو في الواقع أقوى من أي طرف منهـــا منفرداً. وحين وصلت القوة الرئيســـية للحكم عبر صناديق الانتخابات أفلتت يدها من العلاقة الأساسية الحاسمة مع الجمهور العام الذي لم يعد ثائراً معها حتى يكمل أهداف الثورة، إذ أجلســـته في مقاعد الانتظار بتصور أن وصولها إلى هرم الســـلطة التنفيذية ســـيكون كفيلاً بإنجاز كل الأهـــداف. لم تجرَ عملية تطورية متزامنة بين العمل مـــن أعلى ومن خلال دور الجمهور في الشـــارع، بل جرت إدارة الدولة والنظام السياســـي، وكانت البلاد قد استقرت عند هذا

المنعطف. لم تجرَ الاستعانة بالحركة الجماهيرية كأداة ضغط فاعلة لإحداث التغيير داخل أجهزة الدولة إمعاناً في التقدير بقوة القرار الرئاسي والتنفيذي.

انتهى الأمر لانقلاب الموازين عبر تشكيل مساحة واسعة من القوى المضادة، ممثلة في جبهة الإنقاذ التي ضمت القوى الليبرالية والقومية واليسارية وقوة أجهزة الدولة، خاصة الجيش والشرطة، التي انضم إليها قطاع من الجمهور العام الذي كان قد صوّت ضد مرسي في انتخابات الرئاسة (بمن فيهم الأقباط)، وآخر لا انتماء له تحت ضغط المشكلات المعيشية الحادة التي صُنع بعضها صنعاً. انقلبت الموازين وجرت أحداث ٣٠ يونيو ومن بعدها بيان ٣ يوليو، لتدخل البلاد دوامة جديدة تخيم عليها الضبابية وصعوبة تحديد الجمهور غير المسيَّس للمواقف.

الوضع الراهن.. الدورة العكسية مجدداً!

تتمسك سلطة يونيو بمواقفها ومواقعها، وتسارع الخطى لإحداث التغيير الشامل لكل ما جرى في الدولة والمجتمع بعد ثورة يناير، كما تسعى لإقامة نظام سياسي جديد الجانب الأبرز فيه هو تلك الحالة الاستئصالية للحركة الإسلامية من العمل السياسي ومن الوجود المنظم. وعلى الجانب الآخر، تجرى عملية مضادة متعددة الاتجاهات، إذ تحولت الحركة الإسلامية من الحكم إلى المعارضة – ولكل لغتها وأدواتها وطريقة الحضور والدور فيها –، كما تحاول تلك الحركة إعادة تشكيل تحالفاتها مع القوى السياسية الأخرى لتشكيل جبهة واسعة لمواجهة ما يجري من سلطة يونيو. والأهم أن الحركة عادت للإمساك بأيدي الفعل الشعبي واعتماد أسلوب الضغط الشعبي المتصاعد.

ويلاحظ المتابع الساعي لتقدير الموقف أن سلطة يونيو، رغم سطوة فعلها وقوته وسرعته واعتمادها الحسم الأمني والعسكري المباشر، بدأت تشهد تفككاً لعناصر مكوناتها وتحالفاتها التي سبق أن مكّنتها من تشكيل مظلة أطاحت بحكم الدكتور مرسي؛ فقد تغيّر موقف حزب مصر القوية برئاسة د. عبد المنعم أبو الفتوح الذي تحول إلى القول بأن ما جرى في مصر هو انقلاب عسكري، كما لم يعد حزب النور في موقع المشارك، بل في موقع المتحرك بحسب كل موقف أو موقعة. أما الدكتور البرادعي، وهو الثالث والأخير في قائمة الوجود السياسي للسياسيين يوم إعلان بيان ٣ يوليو؛ فهو لم يغادر السلطة فقط – مستقيلاً من منصب نائب الرئيس المؤقت للشؤون الخارجية –، بل غادر البلاد، وأصبح ملاحقاً قضائياً بتهمة خيانة الأمانة. وهكذا الحال لبعض من الرأي العام الذي تزلزل خلال أحداث فض اعتصامي رابعة والنهضة، وأصبح يجد نفسه أمام حالة من تكرار ذات الوعود والأهداف التي لم تتحقق منذ ثورة يناير، فضلاً عن تخوفات متنامية لدى الفئات الوسطى في المجتمع المخاطر التي تحيط بأوضاع المجتمع من جراء الصراعات الحادة التي يراها البعض أحد مؤشرات وقوع نمط من الحرب الأهلية فعلياً.

وفي المقابل يجد المتابع تطور قدرة الحركة الإسلامية على ترميم ما لحق بسمعتها ومكانتها من خسائر خلال وجودها في الحكم وبسبب الدعاية الجوبلزية التي تواجهها في أجهزة الإعلام من بعد، وأنها صارت تحشد قطاعات متوسعة من الرأي العام والقوى السياسية حول موقفها الراهن.

لقد تشكل التحالف الوطني لدعم الشرعية، فلم يعد الإخوان المسلمون وحدهم من يدفع لعودة الشرعية، وفي ذلك أصبحت القوى الإسلامية محتشدة ومجتمعة مع غيرها من شخصيات ورموز وقوى وطنية وديمقراطية. كما نجحت القوى الإسلامية في حشد وجذب وتعبئة فئات مجتمعية جديدة لصالح زخم حراكها، وهي أبدت تنبّهاً إلى ضرورة الاستفادة من أخطاء الطرف الآخر في الصراع؛ إذ هو اعتمد لغة الحسم وقوة الفعل – بما في ذلك إطلاق الرصاص على المتظاهرين – لفرض الحقائق سريعاً على الأرض، دون أن يسمح لأي تيار أو حزب أو جماعة في المجتمع بالاختلاف أو التعبير عن الرفض الجزئي أو الكلي لما تقرره تلك السلطة.

وتُظهر تطورات الأحداث الجارية في مصر حدوث قفزة في وعي الإسلاميين يمكن لمتابعها أن يقول إن ذلك هو أحد أهم إنجازات تجربة المرحلة منذ ٢٥ يناير ٢٠١١ حتى أحداث ٣٠ يونيو.

الأمر البارز في دلالات تطور وعي الحركة الإسلامية يتمثل في عدم الانجرار إلى دوامة العنف المضاد رغم كل هذا الضغط الجاري عليها لدفعها لولوج هذا الطريق.. هذا الأمر بالغ الأهمية؛ إذ لم تشهد مصر من قبل سقوط هذا العدد من الضحايا في تظاهرات من قبل، بما كان يتوقع معه حدوث حالة صدمة تدفع إلى ممارسة العنف المضاد. هذا الوعي وعدم الوقوع في منطق رد الفعل هو مؤشر مهم للغاية. ويلاحظ المتابع أيضاً أن الحركة الإسلامية ظهرت متمرّسة على حالة التظاهرات الواسعة في الشوارع، رغم أن ممارستها لهذا النمط من الحراك السياسي لم تجرِ لفترة زمنية طويلة مقارنة بالتيارات السياسية اليسارية والناصرية. وفي ذلك بدا لافتاً ومدهشاً سرعة اكتساب

الخبرة مـــن أحداث يناير كما ظهر الأمر فـــي اعتصامي رابعة والنهضة – والأول بالذات –؛ إذ جرت عملية معقدة من الحفاظ علـــى المعنويات إلى الإعداد لما هو قادم بعد فض الاعتصام إلى الإدارة السياسية المجتمعية داخل مجتمع الاعتصام... إلخ. هذا النمط من القـــدرة على تعايش هذا الكم من البشـــر وصموده في مواجهة كل تلك الدعايات الإعلامية والحرب النفسية؛ مثّل طفرة في وعي الأحزاب الإسلامية التي تمكّنت من أداء كل ذلك وهي في وضع التحالف والترابط – إذ شـــكلت التحالف الوطني لدعم الشـــرعية –، وهي التي عانت طوال تاريخها من الخلاف والتشرذم والتفكك.

ومن ملامح هذا الوعي: تغيير تكتيكات التظاهر والاحتجاج الضاغط، فتلك الحالة المعتصمة في رابعة والنهضة لم يجهضها فـــك الاعتصام ولـــم يصبها بحالـــة انهيار لدورهـــا وجهودها الاحتجاجية، إذ هي نجحت في التحول الســـريع والمباشـــر إلى تظاهرات متوســـعة منتشـــرة في مواقع وميادين وشوارع شتى. ومرة ثانيـــة، إذ وجدت تصاعداً في أعـــداد الضحايا في ذاك اليوم التالي لفض الاعتصام؛ طوّرت خطتها وقامت بالذهاب إلى المدن والمراكز لا إلى عواصم المحافظات، وإلى المناطق والأحياء الطرفية في المدن الكبيرة لتوســـع رقعـــة المظاهرات ولتتفادى حالات الصدام والمواجهة أيضاً.

يمكن القول بأن الحركة الإسلامية سجلت وعياً خططياً كان ينقصها كثيراً من قبل، وإنها أظهرت حرصاً مدققاً ومشدداً على أرواح أعضائها ومناصريهم، رغم تلك الحالة الاستشهادية التي عملت قياداتها على تسييدها والتركيز عليها ما بعد تحوّلها من سدة الحكم إلى قمة المعارضة.

غير أن جانباً من الوعي يبـــدو أنه لا يزال بحاجة للإجلاء فيمـــا يتعلق بنظريات التغيير ودور الجماهير وكيفية التعامل مع أجهـــزة الدولة خلال مراحل الانتقـــال، وكلها قضايا تحتاج إلى حوار في ضوء تجربة حكم الدكتور مرسي لعام كامل.

سيناريوهات متوقعة

تبدو صعوبة الوصـــول بالتحليل إلى تصور ســـيناريوهات واضحة لتطـــور النزاع الجاري في مصـــر، ذات أبعاد متعددة؛ فهناك أن الصراع يجري بين القوتين الرئيســـيتين في المجتمع، ولا تستطيع أي منهما حســـم الصراع لمصلحتها، إذ إن إمكانية الحســـم تتحقق فقط لمن يتمكّن من حشـــد وتعبئة الرأي العام والحراك الشعبي والقوى السياسية الواقعة في مسافة الصراع بـــين القوتين. والصعوبـــة بادية أيضاً من أن القوى السياســـية والحراك الشعبي غيَّر مواقفه ومواقعه من مرحلة لأخرى خلال فترة قصيرة زمنية بما يربك تحركاته.

ويبدو العامل الحاسم في تقديرات وحسابات طرفي الصراع هو عامل الوقت، إذ يعتبر الطرفان أن عنصر الوقت هو أســـاس حســـم الصراع؛ فطرف ســـلطة ٣٠ يونيو يســـابق الزمن لإنهاء عملية التغيير بأي تضحيات وباســـتخدام أدوات الدولة الصلبة تحت غطاء من القصف الإعلامي العنيف.. بينما يراهن الطرف الإســـلامي على إطالة الوقت لما يتيحه من حركة تثوير وحشـــد الجمهور العام وحســـم مواقف الأطراف المتـــرددة أو المتذبذبة وإعادة ترتيب عوامل القوة والضعف.

وفـــي حـــدود التصورات العامـــة يمكن القول بـــأن الأزمة الداخلية المصرية تسير نحو أحد من أربعة سيناريوهات عامة.

الســـيناريو الأول: أن تتمكّن ســـلطة يونيو من تثبيت أركان حكمها عبر كســـر وتطويـــع إرادة قطاعات مهمـــة من الحركة الإســـلامية عبر مختلف الأساليب الجارية الآن. وفي ذلك تعود القوى الإسلامية إلى مربع أقل مما كانت عليه قبل أحداث يناير، بالنظر لتصاعد الدلائل والمؤشرات على حدوث تغيير في عقيدة حكم الدولة والتوجه نحو حالة من الأتاتوركية.

الســـيناريو الثاني: أن تتمكّن القوى الإســـلامية من تحريك الشـــارع وحشد قوى سياســـية متعددة وجمهور واسع والوصول بالبلاد إلى وضعية ازدواج ســـلطة – معتمدة على وجود الرئيس والدســـتور ومجلس الشـــورى –، وتطوير تلـــك الحالة لإحداث التغيير، من خلال شل قدرة الحكم الراهن على تحقيق إنجازات على الأرض – بنفس الطريقة التي حدثت مع د. مرســـي –، بما يفتح أفقاً للتغيير في داخل جهاز الدولة، أو لإحداث تغيير أشد ثورية مما جرى خلال ثورة يناير ذاتها.

السيناريو الثالث: أن لا تتمكّن السلطة من تحقيق الاستقرار ودون أن تتمكن الحركة الإســـلامية من فـــرض التغيير، وهو ما يُدخـــل البلاد في مواجهـــة متواصلة ومفتوحة بلا ســـقف مع الحركة الإســـلامية، وهو ما يدفع البلاد نحو حالة من الشـــلل التام وربما الانزلاق نحو حالة عنف متوســـعة، لتدخل مصر إلى سيناريو سورية أو الجزائر، وعند البعض سيناريو الصومال وارد أيضا (وهو في رأينا غير وارد).

السيناريو الرابع: أن تتحوّل سيناء إلى نقطة ارتكاز للمواجهة الواسعة مع الكيان الصهيوني، بما يربك المعادلات ويعيد تشكيل إحداثيات العلاقات السياسية والمجتمعية على أساس وطني، وإن بعد فترة من الوقت.

الغرب والموقف من الثورة السورية

■ مازن أبو بكر عبد الله باحميد
mazenbahomaid@gmail.com

وصلت ريـــاح الربيع العربي إلى ســـورية فاندفع الشـــعب السوري في ثورة سلمية عارمة ضد الاستبداد القائم في البلاد، لكن هذا الاســـتبداد القائم أجبر الشـــعب على عسكرة الثورة.. ومنذ عامين والأرض الســـورية تشهد معارك ضارية بين الشعب والنظام.. ومنذ انطلاق الثورة الســـورية والموقف الغربي المعلن هو التأييد لثورة الشـــعب الســـوري ضد نظام الأسد المستبد.. لكن بعكس الموقف الغربي المؤيـــد للثورة الليبية الذي وصل إلى حد التدخل العسكري لإسقاط نظام القذافي؛ فقد جاء الموقف الغربي من ثورة الشـــعب السوري باهتاً ويثير كثيراً من علامات الاســـتفهام.. فبعد عامين من عمر الثـــورة ما زال الغرب يبحث إمكانية تزويد المعارضة السورية بالسلاح من عدمها، الأمر الذي يثير كثيراً من الشـــكوك والتســـاؤلات إزاء هذا التأييد الغربي المعلن.. لكـــن مع كل ذلك فإنه لا يمكننا أن ننكر أن هناك دعماً سياسياً غربياً واضحاً وملموســـاً للثورة السورية، وهو ما يشير إلى أن السياســـة الغربية تؤيد تأييداً بكل وضوح الإطاحة بنظام بشار الأســـد.. لكن يبدو أن هناك مشـــاكل في التفاصيل هي التي أبقت الغرب متردداً في تقديم دعم عسكري حقيقي للثورة السورية طوال عامين من عمرها. لعل عدم الوضوح في الموقف الغربي يأتي من الحساسية البالغة لمنطقة الشرق الأوسط وكثرة التناقضات السياسية والاجتماعية والأمنية في هذه المنطقة.

إن مصالح الغرب في ســـورية تدفع بالسياســـة الغربية إلى الســـعي لإقامة نظام علماني مســـالم ويكـــون بعيداً عن المحور الإيرانـــي.. وهذه معادلة من الصعـــب تحقيقها إزاء واقع الثورة الســـورية على الأرض؛ فسقوط بشار الأسد سيخرج سورية من المحور الإيراني، لكن ســـقوط سورية في يد المعارضة المسلحة لا يضمن للغرب إقامة نظام علماني مسالم، فالجماعات الجهادية الإســـلامية حاضرة بقوة في المشـــهد العسكري، وهي جماعات معلـــوم بكل وضوح من خلال أدبياتهـــا أنها لن تكف عن القتال،

وسيكون هدفها الثاني بعد سقوط دمشق القدسَ الشريف، وهذا ما يجعل الغرب متردداً في دعم الثورة عسكرياً. وقد أوضح الرئيس أوباما ذلك عندما تحدث حول تردد أمريكا في تزويد المعارضة السورية بالسلاح فقال: «القضية تكمن في كيف لنا أن ندعم معارضة قوية وقادرة على عزل المتطرفين». ولذا نرى أن الولايات المتحدة سمحت بوصول بعض الأسلحة إلى المعارضة عن طريق حلفائها بالقدر الذي يبقي هذه المعارضة على قيد الحياة بهدف استنزاف هذه المعارضة الإسلامية واستنزاف نظام الأسد وحلفائه.

إن نظام الأسد سيكون الخيار الأفضل للغرب إذا ما قورن بالجماعات الجهادية الإسلامية، فطوال أكثر من ربع قرن عرفت الجبهة السورية الإسرائيلية في الجولان هدوءاً لا مثيل له بين بلد وبلد آخر يحتل أجزاء من أرضه.. لكن الغرب يتلمس أن تكون الثورة السورية فرصة لوصول نظام علماني مسالم إلى السلطة قادر على عزل من يسميهم المتطرفين، ويكون أداة لانتزاع سورية من المحور الإيراني، وهذا ما يعمل عليه الغرب دائماً.

من أهم العوامل التي تلقى اهتماماً غربياً كبيراً في المشهد السوري، هو ترسانة الأسلحة الكيماوية السورية.. فقد استحوذ هذا السلاح الاستراتيجي على اهتمام غربي كبير منذ اندلاع الثورة.. فالغرب يعلن صراحة خوفه من وقوع هذا السلاح بيد من يسميهم المتطرفين من الجماعات الإسلامية المقاتلة في سورية، فالسلاح الكيماوي هو السلاح القادر على تحقيق فعل استراتيجي عسكري يتجاوز الحدود السورية، وهو الفعل الذي سيجد الغرب نفسه مرغماً على الانحناء ولو قليلاً لتفادي أخطاره.. فمتى ما قرر طرف ما استخدام هذا السلاح ضد إسرائيل، فسيكون ذلك مشكلة حقيقية كبيرة تعجز منظومات الأسلحة الغربية المتطورة عن تفادي أضرارها السياسية والنفسية حتى قبل الاستخدام الفعلي لهذا السلاح.. وفي هذا تهديد حقيقي يستدعي الانتباه؛ ولذا كان التركيز الغربي منصباً منذ بدايات الثورة على هذا السلاح؛ فمنذ بواكير الثورة السورية أعلن الرئيس الأمريكي أن استخدام هذا السلاح هو خط أحمر.. والحق الذي لا جدال فيه أن ما يقصده الرئيس الأمريكي هو استخدام السلاح الكيماوي ضد حلفاء أمريكا، وفي مقدمتهم إسرائيل.. ولذا فقد استخدم النظام السلاح الكيماوي مراراً وتكراراً ضد المعارضة والشعب السوري ولم يرَ الغرب في ذلك تجاوزاً لأي خط أحمر.

ومن خلال تجربة النظام مع الغرب في استخدامه لهذا السلاح خلال السنتين الماضيتين، فقد كان على ثقة مفرطة بأن الغرب لا ولن يهتم بأي ضرر قد يلحق الشعب السوري والمعارضة السورية من جراء استخدام هذا النوع من الأسلحة، فبادر بكل جرأة وثقة إلى استخدام الكيماوي بكثافة على مقربة من دمشق في ٢١ أغسطس الماضي كما هو معلوم فيما يعرف بمذبحة الغوطة الشرقية.. فقد أقدم النظام على هذا العمل الإجرامي في ظل وجود فريق المراقبين الدوليين في دمشق، وهو ما يعكس الثقة العالية للنظام بعدم صدور أي إدانات له إزاء استخدام الكيماوي ما دام أن استخدامه بعيد عن حلفاء الغرب في المنطقة من خلال تجاربه السابقة.

لكن الموقف الغربي بدا مختلفاً هذه المرة ومفاجئاً.. فقد قرر الرئيس الأمريكي باراك أوباما معاقبة النظام السوري على استخدامه الكيماوي ضد شعبه بضربة عسكرية قال إنها لن تؤثر على ميزان القوى بين النظام والمعارضة على الأرض. وشدد على أن الضربة قد تكون قريبة، ومن ثم تم العمل على حشد القوة العسكرية الأمريكية في شرق المتوسط استعداداً للضربة، كما جرى إبلاغ المعارضة السورية بأن الضربة وشيكة وستكون خلال أيام، في حين أعلن قادة البنتاغون جاهزية الخطط للضربة العسكرية التي أسهب المسؤولون الأمريكيون في وصفها وفي كونها ضربة تستهدف ترسانة الأسلحة الكيماوية السورية بهدف إحداث شلل في قدرات النظام على استخدام هذا السلاح مستقبلاً، وأن الضربة ستكون محدودة ومدروسة بحيث لن تؤثر على موقف النظام العسكري، في تلميح واضح لإظهار حرص الغرب على ألا تسقط سورية في يد المعارضة المسلحة في هذه المرحلة.. وكان كل ذلك بمثابة إيحاءات واقعية تدلل على جدية الضربة العسكرية الأمريكية.

كانت الجدية التي ظهر بها الموقف الغربي ملفتة للنظر وتستدعي الاهتمام والتعجب؛ إذ تأتي هذه التحركات بعد عامين من عزوف الغرب عن تقديم العون العسكري اللازم للمعارضة السورية خوفاً من سقوط مدوٍّ للنظام في دمشق.. لأن الولايات المتحدة تدرك جيداً أن سقوطاً مدوياً للنظام في سورية سيضع حليفتها إسرائيل وجهاً لوجه أمام الجماعات الجهادية الإسلامية المقاتلة في سورية.. فكان من المستغرب جدية الغرب في توجيه ضربة للنظام في هذا الظرف. لكن مع كل ذلك كان الغرب يدعم

تحركاته بخطوات قوية فيها من الواقعية السياسية والعسكرية لإعطاء انطباع عن جدية التحركات بهدف إحداث ضغط حقيقي على النظام في سورية فيما يتعلق بالأسلحة الكيماوية.. ثم تتابعت التطورات الملفتة للنظر في الموقف الغربي، حيث أبدت بعض من الدول الغربية ترددها في الضربة، وأعلنت أخرى عدم مشاركتها فيها لعدم تسلمها طلباً للمشاركة.. وكان أكبر التطورات التي استدعت انتباه المراقبين ظهور الرئيس الأمريكي في موقف المتردد حين ربط تنفيذ الضربة بموافقة الكونغرس، مسقطاً بذلك حقاً دستورياً يخوله تنفيذ هذا الإجراء العسكري من دون الرجوع إلى الكونغرس.. ثم في تطور ملفت آخر أشار وزير الخارجية الأمريكي جون كيري إلى أن نظام الأسد يستطيع تجنّب الضربة العسكرية بالكامل إذا هو تخلى عما لديه من أسلحة كيماوية، وذلك بتسليمها للأسرة الدولية.. واتضح لاحقاً أن هذا التصريح وإن بدا هامشياً في أول الأمر، إلا أنه يختزل في ثناياه كامل الموقف الغربي من القضية برمتها.. ففي هذه الأثناء كانت السياسة الأمريكية تعمل من خلف الكواليس على توجيه الدبلوماسية الروسية للضغط على دمشق لقبول تسليم أسلحتها الكيماوية مقابل تجنب الضربة.. وهذا ما صرح به وزير الخارجية الروسي لافروف لاحقاً.. وتتسارع الأحداث، فبعد يوم من تصريح الوزير الأمريكي تم الإعلان في موسكو عن قبول دمشق وضع أسلحتها الكيماوية تحت المراقبة الدولية وكأنها خطوة أولى في طريق التخلص من هذه الأسلحة. ولقيت هذه الخطوة تأييداً كبيراً في الغرب الذي شرع في إعداد تصوراته في كيفية تنفيذ هذه الخطوة بما يضمن فعلياً تحييد أثر الأسلحة الكيماوية السورية من الواقع العسكري في منطقة الشرق الأوسط كلل.

قراءة سريعة لهذه الأحداث تدلل على أن الغرب كان يحاول انتهاز مجزرة الغوطة للضغط على النظام كي يجبره على التخلص من ترسانته الكيماوية، وهي الخطر الأكبر على الغرب وحلفائه في المنطقة، حيث تعد هذه الأسلحة ثقلاً استراتيجياً قوياً في المشهد السوري، فقد كانت العامل الأساسي في تعديل ميزان القوى بين سورية وإسرائيل.. وزوال هذه الترسانة من الأسلحة الكيماوية السورية سيعطي التفوق العسكري الإسرائيلي بُعداً جديداً مستقبلاً في منطقة الشرق الأوسط.. فضلاً عن أن زوال الأسلحة الكيماوية وخروجها من المشهد السوري سيجعل هذا المشهد أقل خطورة، وسيتيح للغرب مرونة أكبر في التعامل مع الأزمة السورية بكافة الخيارات. وتدلل الأحداث على أن التردد الذي ظهر به قادة الغرب ليس حقيقياً، بل كان تردداً مصطنعاً لإعطاء مزيد من الوقت وتوجيه دفة الأحداث نحو الهدف المرسوم للسياسة الغربية.

وبناء على ما سبق ذكره فإنه من الواضح أن الغرب لا ينوي إسقاط النظام في هذه المرحلة، لا عن طريق ضربة عسكرية ولا عن طريق دعم المعارضة المسلحة بما تحتاج إليه من سلاح.. وإنه من المؤكد جداً ومن خلال استقراء الواقع أن الحسابات الغربية تقتضي أنه في حال إقدام الغرب على تنفيذ ضربة عسكرية للنظام قد تؤدي إلى إسقاطه، فإنه من الضروري أن تتسع أهداف هذه الضربة لتشمل ضرب كثير من الجماعات الإسلامية الجهادية المقاتلة في سورية، والتي يرى الغرب فيها خطراً كبيراً على مصالحه الحيوية في المنطقة وأمنه القومي.

لا ألوم الغرب على مواقفه هذه، فالمصالح الغربية تحتم عليه هذه المواقف، والغرب يسعى وراء مصالحه دائماً؛ لكن اللوم كل اللوم على الحكومات العربية التي تتصادم مصالحها مع إيران.. ففي حين تدعم إيران من غير تردد أو خجل ومن دون أي حدود نظام الأسد بكل ما يحتاج إليه، نرى دول الخليج التي يقع التهديد الإيراني الأكبر عليها، وهي الدول القادرة على الدعم المالي؛ نراها تحجم وتتردد كثيراً في مدّ المعارضة السورية بما تحتاج إليه من سلاح للإجهاز على نظام الأسد الذي يعتبر امتداداً للمشروع الإيراني في المنطقة.

المعارضة السورية لا تحتاج إلى ١٢ ملياراً لتحقيق النصر على بشار – بإذن الله –، بل تحتاج إلى أقل من ذلك بكثير، فمع تردد الجميع في دعم هذه المعارضة بالسلاح إلا ما كان دعماً محدوداً، مع كل ذلك استطاعت هذه المعارضة أن تحقق نتائج مذهلة في مواجهاتها مع هذا النظام الذي يتلقى أحدث ما تنتجه المصانع الروسية والإيرانية من أسلحة.. فكيف إذا دُعمت هذه المعارضة بالسلاح اللازم؟

وأما ما يتعلق بالسياسة الغربية، فإنه من المرجح أن يستمر الغرب في سياسته القائمة في سورية، وهي العمل على استنزاف المعارضة والنظام لإجبارهما على التوافق على حل سياسي يضمن وجود نظام علماني مسالم تشارك فيه الطائفة النصيرية بعيداً عن المحور الإيراني.. ويجب أن نفهم جيداً أنه من بالغ الغباء والجهل التعويل على الموقف الغربي في تمكين الإسلاميين من الوصول إلى الحكم في سورية.

المؤسف في كل ما يجري هو ما يتعرَّض له الشعب السوري من الويلات، فنسأل الله أن يعجّل بفرجه على إخواننا في الشام وفي كل بلاد الإسلام.

جوال
الكبير
للإشتراك
ارسل رسالة فارغة
STC
الاتصالات السعودية
٨٨٠٠٤
موبايلي
mobily
٦٣٦٣٩٣
zain
٧٠٤٠٤٧
رسائلنا تحكي أهدافنا

الضربة العسكرية المرتقبة على سورية

■ محمد قطب
@kotobmohamad

كل الأنظار تتجه اليوم إلى الضربة العسكرية المرتقبة على سورية، التي تقودها الولايات المتحدة وفرنسا، بعد الانسحاب البريطاني منها. ولا شك أن سير الحملة تباطأ كثيراً بعد رفض مجلس العموم البريطاني لها وقرار الرئيس باراك أوباما انتظار التصويت عليها في الكونجرس قبل التنفيذ، والذي قد يرفض الضربة ويضع أوباما في موقف حرج للغاية. ومع قرار أوباما المفاجئ هذا، صرّحت بعض المصادر المطلعة أن السبب الرئيس لهذا التحول يعود إلى قناعته الشخصية بأن بوتين قادر على إجبار بشار الأسد على التنحي في ظل التصعيد العسكري الحالي، إضافة إلى القيام بمزيد من التشاور والحشد في قمة مجموعة العشرين G٢٠. ومع كل ذلك، فإن الدلائل ما زالت تشير إلى أن الضربة قادمة، من ذلك: تصريح أوباما ووزير خارجيته كيري أن الرئيس له صلاحية السير قدماً بالهجوم حتى من دون إذن الكونجرس، استعدادات الجيران تركيا والأردن والصهاينة لهجوم كيميائي محتمل وذلك من خلال توزيع الأقنعة ووجود مئات الخبراء هناك، تأهب قوات خاصة في الأردن للسيطرة على مخازن الأسلحة الكيميائية، نشر بطاريات الصواريخ على الحدود التركية والفلسطينية مع سورية، تحركات حثيثة لقوات بشار ونقلها أعداداً من السجناء إلى مراكز عسكرية قابلة لأن تشملها الضربة ونقلها المعدات العسكرية إلى المناطق السكنية والمدارس، وجود ٥ سفن حربية و٣ غواصات متطورة أمريكية في البحر المتوسط وبعض السفن وغواصة فرنسية كذلك، ثم لحاق سفينتين روسيتين بكل هذه التجهيزات... وغير ذلك. وحيث إن التجهيزات العسكرية للضربة تناقش علناً وبتفاصيل يفترض أن تبقى طي الكتمان، وهو أمر مريب، فقد لحق بتلك السفن سفينة برمائية أمريكية قادرة على نقل مئات من جنود البحرية إلى الداخل.

ويأتي هذا الحراك بعد قرابة عامين ونصف من المذابح التي ترتكب بحق الشعب السوري من قبل عصابات الأسد النصيرية وأعوانهم من صفويي إيران ولبنان والعراق التكفيريين وبمساعدة أطراف إقليمية ودولية مختلفة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو ذاك المتعلق بتوقيت الضربة، لماذا الآن؟ وما الذي تغير؟ وكل هذا

بســـبب الضربة الكيماوية؟ والجواب الأول نعم، إن الأمر متعلق بالكيماوي من عدة جهات، كلها غير مرتبطة بالناحية الإنسانية. السبب الرئيس هو الخط الأحمر الذي تمنى أوباما أنه لم يحذر به، لأنه بمجرد ما أطلق ذلك التهديد وتجاوزه بشار الأسد فليس لـــدى أوباما خيار إلا الوفاء بتحذيره. وهذا ليس من باب صدق القول، وإنما من باب ما يســـمى الحفـــاظ على قوة «الردع» في الدراسات الاستراتيجية؛ فعدم الوفاء بعهد كهذا يجَسِّر الأعداء ويظهـــر الولايات المتحدة في مظهر الضعف والتردد في القرار. ويتأكـــد هذا في ظل ســـعي النظام الأســـدي ومؤيديه لبرهنة قدرتهم على زعزعة الاســـتقرار في المنطقـــة، وهو ما يُفهم من الحدثَيْن اللذين تَلَيا الكيمـــاوي، وهما: إطلاق ٤ صواريخ غراد من جنوب لبنان على شـــمال فلســـطين المحتلة في اليوم التالي، وتفجيـــرا طرابلس في اليوم الذي بعده. الأمر الآخر بالنســـبة للتوقيت هو أن اســـتعمال الأســـلحة الكيماوية يقلق الصهاينة، خاصة في بلـــدٍ مجاورٍ لهم، فهم لا يوَدّون رؤية اســـتعمال تلك الأســـلحة على تلك المقربة من حدودهم، وإن استُعمِلت ضد من يعتبرونهم أعداءً، فهم يخافون من وجود تلك الأسلحة في منطقة يسود فيها الفوضى، خشية أن تقع تلك الأسلحة في يد أعدائهم أو يد من قد يهاجمهم يأساً أو ترويجاً لكذبة المقاومة والممانعة.

بالنســـبة لطبيعة الضربـــة ومداها، فقـــد صرحت الإدارة الأمريكية أنها ضربة سريعة وقصيرة المدى، وهذا ما تشير إليه الدلائل؛ فالهدف المعلن ليس إســـقاط النظـــام وأمريكا لا تريد التورط في سورية على المدى البعيد. هذا وقد كرر أوباما رفضه إرســـال جنود على الأرض. إذن يبقى الســـؤال المهم عن جدوى هكذا ضربة. وبعد النظر فـــي مختلف تحليلات المراكز الكبرى للدراسات السياسية والاستراتيجية والمجلات المعنية بذلك، مثل: بروكنجز وستراتفور وفورين بوليسي وفورين أفيرز وغيرها؛ من الواضح أن هناك شبه إجماع على عدم جدوى الضربة السريعة والقصيرة التي تنوي واشنطن توجيهها، وذلك لأسباب، منها:

١ أن هكـــذا ضربة ربما تضعف النظـــام قليلاً لكنها لن تحدث تغييراً في توازن القوى على الأرض. أقول: وهذا مقصود لذاته.

٢ يبدو أن القيادة العســـكرية لم تـــدرج أياً من الأهداف الخطيرة التي سلمتها لها رئاسة هيئة الأركان السورية الحرة.

٣ أن الضربة الخفيفة لبعض قدرات النظام العســـكرية ربما تســـتفز إيران وروســـيا فيعوضوه بمال وسلاح يفوق تأثير الضربة عليه.

٤ أن أي هجـــوم لا يكون قاضياً عليه ســـيُقوّيه أكثر لأنه سيســـتغل الإعلام لتصوير الضربة على أنهـــا ضربة إمبريالية صليبيـــة، كما فعـــل القذافي وأنصاره في ثـــورة ٢٠١١، وأيضاً سيصور الانسحاب الأمريكي على أنه نصرٌ له.

٥ أن التدخل لا يمكن أن يكون جزئياً، وحالما تدخل أمريكا عسكرياً فلن يكون بمقدورها الانسحاب بتلك السهولة.

ولئن أردنا تحليـــل أهداف الضربة، فلقـــد أراحتنا الإدارة الأمريكية من عناء ذلك وبيَّنت علناً أن إســـقاط بشـــار ليس هو المقصـــود. وعندها يبقى احتمالان آخران: إضعافه أو إنقاذه. لو سلّمنا أن الضربة العسكرية ستضعفه من خلال استهداف بعض مواقع تمركز دفاعاته الجوية ومنصات الصواريخ ومراكز القيادة والسيطرة، وربما كذلك بعض مواقع الأسلحة الكيماوية، وإن كان مســـتبعداً؛ لنا أن نتساءل: أي إضعاف هذا الذي لن يستغرق إلا أياماً معدودةً وحملة الناتو على ليبيا استغرقت ٧ أشهر؟ وبحسب قيادات عســـكرية أمريكية فإن الدفاعات الجوية السورية أقوى بخمسة أضعاف من تلك التي كانت في ليبيا، وإن كان ثَمّة فروق بين حالة التدخل في ليبيا والتدخل الحالي في سورية.

أما إنقاذ بشـــار الأســـد، فذلك لا يعني إنقـــاذه من ورطته وإبقاءه، فذلك ضرب من المســـتحيل، وأمريكا وحلفاؤها يدركون ذلك. إذن إنقاذه سيكون من خلال إيقاف المد العسكري الجهادي الذي ســـيحكم الخناق عليه عاجلاً أو آجلاً، ثم إقناعه بالتنازل عن السلطة والجلوس مع المعارضة بهدف إحراز تسوية سياسية تنهي الأزمة وتســـتبقي أجزاءً كبيرةً من نظامه الفاســـد. وهذا الحل السياسي هو ما أشارت إليه مجلة فورين أفيرز، التي رأت أن الحل الأمثل هو الضربة السريعة التي تدفع النظام إلى طاولة المفاوضات. لكن ما لم تذكره هو موقف الثورة الرافض للتفاوض مع الأسد وقَتَلَته بأي حال من الأحوال.

ومع قوة خطاب أوباما ووزيـــر خارجيته من قبله والإصرار علـــى تنفيذ هذه الضربة، إلا أن الرجلين لم يُخفِيا كذلك حقيقة الحل الذي يرونه وهو الحل السياســـي مـــن خلال المفاوضات. ولعل هذا من الدروس القاســـية التـــي تعلمتها الولايات المتحدة من كارثتي أفغانســـتان والعراق، وهي أن العمل العســـكري غير المصحوب بمشـــروع سياسي بديل يورث الفوضى ونتائج عكسية ولا يصنع استقراراً.

وإذا صدقت الأخبار عن حدوث اتصالات ســـرية بين وكالة الاســـتخبارات المركزية CIA وضباط في جيش الأســـد لحثهم على الانشـــقاق والقيام بانقلاب عســـكري؛ فذلك يشير إلى أن

القوى الدولية بشـــكل عام والإدارة الأمريكية بشكل خاص لديها «سيســـي» ســـوري محتمل للالتفاف على ثورتنـــا وتفريغها من مضمونهـــا، وضمان مصالح الدول التي أتـــت به. لكن حيث إن الشعب الســـوري أثبت وعيه وبُعد نظره السياسي عبر العامين المنصرمين بالنسبة للمحاولات الدولية لشراء المعارضة وتحييدها عن أهداف الثورة؛ فإن الالتفاف على ثورته لن يكون أمراً سهلاً.

ولئن كانـــت نية إضعاف بشـــار موجودة فعـــلاً، فذلك لا ينطبـــق فقط عليه، وإنما كذلك علـــى المجاهدين، خاصة مـــن تعتبرهم أمريكا «إرهابيين». وقد بذلـــوا جهوداً مضنيةً للتعرف عليهم لاســـتهدافهم بطيارات دون طيار. بل في أحد اجتماعات المخابرات الأمريكية في الأردن فاجؤوا أحد القادة العســـكريين المعارضين بطلبهم التصدي لـــ «جبهة النصرة» حتى قبل مقاتلة الأســـد! وحيث إن اســـتخدام طيارات دون طيار لضرب «جبهة النصرة» وغيرهم ممن تستهدفهم أمريكا سيكون ضرباً من الحماقة والسخافة التكتيكية؛ فالمرجح أنهم سيستعينون ببعض العملاء لذلك أثناء الضربة، وبـ «السيسي» القادم و«الصحوات» التي سينشـــئها لضرب المقاتلين ببعض على المستوى البعيد.

ولا شـــك عند متابعٍ منصفٍ أن إطاحة المجاهدين بعصابة الأســـد كابوس مقلق للغرب، ســـواءً كانوا مـــن الجيش الحر أو ممن يســـميهم الغرب «الجهاديين»؛ فكلهم مُدرَجون تحت مظلة «الإســـلاميين الســـنة» الذين قد يصلون إلى الحكم في سورية، وبالتالي يقلبون الموازين. ولئن كان الكلام على هذا الأمر محرماً في الإعلام الغربي في بدايات الثورة، إلا أنه الآن يملأ صحفهم وتحليلاتهم دون خجـــل أو مواربة. وممن تكلم عن حاجة الغرب للتدخل في ســـورية وفي غاية الوضوح رئيس الوزراء البريطاني الأســـبق توني بلير، الذي علّل التدخل بالقضاء على «التشـــدد» ومنع ســـورية من أن تصبح ملاذاً للمتشـــددين أخطر بكثير من أفغانستان في التسعينيات!

لقد أدرك الشعب السوري منذ بدايات الثورة أن الغرب ليس له مصلحة في انتصار الثورة ووقف المجازر ســـريعاً، وإنما يريد إطالـــة أمد الصراع؛ إضعافاً للجهتـــين، وحفاظاً على مصالحه وأمن الصهاينة. وأدرك حينها الحراك الثوري أن الغرب سيتدخل فعلاً لكن في الوقت الذي يراه مناسباً ويحقق تلك المصالح. ومنذ ذلك الحين والشـــعب الســـوري على يقين بألا ناصر له إلا الله، ثم تضحيات المخلصين من المجاهدين والداعمين والسياســـيين والناشطين.

إذن يمكـن تلخيـص أهـداف الضربـة العسـكرية فـي النقاط التالية:

١ الحفاظ على ماء الوجه بعد جعل اســـتخدام الأسلحة الكيماوية خطاً أحمر.

٢ منع المقاتلين من تحقيق النصر على النظام الأسدي.

٣ التسريع في تسوية سياسية تحت أعين الدول المشاركة بالضربة وحسب شروطهم.

٤ الســـيطرة على الأســـلحة الكيميائية حفاظاً على أمن الصهاينة.

٥ استهداف المقاتلين الإســـلاميين الذين تصنفهم القوى الدولية بـ «الإرهابيين».

ومن المفهوم أن أنصار الثورة السورية في الداخل والخارج على مختلف مشاربهم، مجاهدين ونشطاء وعلماء وسياسيين؛ منقسمون في تأييد هذه الضربة من عدمه. وهذا الانقســـام طبيعي في فتن تجعل الحليم حيران وخيـــارات أحلاها مر. لكن لا ينبغي الوقوف عنـــد ذلك؛ لأن معارضة الضربة غالباً لن تجدي شـــيئاً في ظرفنا هذا، فواشنطن لا تلقي بالاً لمعارضة أحد إذا استيقنت أن مصلحتها تكمن في فعلها هـــذا. وهذا ما حدا بها الآن لتجاوز الأمم المتحدة والمجتمـــع الدولي لتجهز «ائتلاف الراغبين» الذي سيشـــاركها في الهجـــوم. وهذا مـــا فعلته في العراق في ٢٠٠٣، ولـــم تثنِها حينها المظاهرات العالمية المعبّرة عن الرفض العالمي لتلك الحرب الظالمة.

إذن، بغض النظر عن رأينا في الضربة وتأييدنا لها من عدمه، الأفضل هو العمل على اســـتغلال الضربـــة لتحقيق أكبر قدر من المكاســـب التي تصب في مصلحة ثورتنا، وذلك ســـيكون من خلال اســـتعداد المجاهدين التام للانقضاض علـــى مختلف مراكز القوة للنظام مستغلين معنويات الجنود المنهارة والهلع المسيطر عليهم من قرب موعد الضربة. وإذا صدقت الأخبار عن هروب بعض عائلات آل مخلوف وشاليش وغيرهما من أعتى مناصري النظام إلى لبنان، إضافة إلى ما ثبت من انشقاقات في صفوف الضباط منذ الإعلان عن الضربـــة؛ فذلك دليل علـــى فاعلية الحـــرب الإعلامية التي نســـتطيع شـــنها عليهم من خلال قنوات الإعلام ووسائل الاتصال الاجتماعي. والمطلوب اليوم العمل على رصّ الصفوف والتأليف بين الكتائب المجاهدة على أرض الوطن، والاعتصام بحبل الله جميعاً. والمطلوب كذلك التســـلح بيقين أن النصر مـــن عند الله وأن الكَوْن بيده يقدر فيه ما يشـــاء، ثم علينا الإدراك أن الحسم العسكري لن يكون إلا بأيدينا نحن، وعلينا التأكيد والتذكير بأُســـس الثورة وما خرجنا وقدمنا مئات آلاف الشـــهداء والجرحى مـــن أجله، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

سلسلة رحلة إبرهام

د. إيهاب عويص

متوفرة في مكتبة التدمرية
فرع الرياض - بريدة

ملحمة روائية جمع فيها المؤلف عناصر
التشويق والإثارة والحقيقة العلمية

التوزيع والنشر

مؤسسة دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

الرياض: - هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨
تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس:
٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات:
٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ -
٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
مكة وجدة والمدينة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠
المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩
منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

رواية
Rewayah

دار رواية للنشر
لندن
104 Queensway
London W2 2RR
UK
E-Mail: info@rewayah.net
www. rewayah.net

مرصد الأخبار

عمرو عبد البديع(*)
amro@albayan.co.uk

وضع حجر الأساس لبناء أول مسجد للمسلمين في سلوفينيا

وضعت رئيسة حكومة سلوفينيا حجر الأساس لأول مسجد في سلوفينيا، وذلك في العاصمة ليوبليانا، بعد ٤٤ عاماً على تقديم أول طلب لبناء مسجد.

وقالت المسؤولة السلوفينية خلال الاحتفال بوضع حجر الأساس: «إنه انتصار رمزي على كل أشكال التعصب الديني»، مضيفة أن أوروبا ما كانت لتكون بهذا الغنى الثقافي من دون الإسلام.

وينتهي البناء في خريف ٢٠١٦.. ويضم المسجد أيضاً مركزاً ثقافياً ومكتبة وقاعات دراسة. وتبلغ كلفته ١٢ مليون يورو ستدفع دولة قطر ٧٠٪ منها.

وتبلغ مساحة العقار الذي سيبنى عليه المسجد نحو ١١ ألف متر مربع، وسيبلغ ارتفاع بنائه ١٢ متراً، في حين أن ارتفاع المئذنة سيكون ٤٠ متراً.

(الإسلاميون: ٢٠١٣/٩/١٤)

مقتل ٤ أطفال في سيناء على يد الجيش المصري

قام الجيش المصري في سيناء بقتل ٤ أطفال وسيدتين خلال عملياته في قرية «اللفيتات» جنوب الشيخ زويد بشمال سيناء.

(محيط: ٢٠١٣/٩/١٤)

الجيش الفلبيني «يحاصر المجاهدين» في مدينة زامبوانغا

حاصر جنود فلبينيون عدداً من المجاهدين المسلحين كانوا قد اجتاحوا مدينة زامبوانغا جنوبي البلاد، ما أجبر الآلاف على الفرار من المدينة.

وقال الجيش إن نحو ٥٠ مسلحاً سقطوا قتلى، فيما اعتقلت السلطات ما يربو على ٤٠ آخرين؛ خلال حصار دام أسبوعاً دفع المدينة إلى حالة من الشلل التام.

(بي بي سي: ٢٠١٣/٩/١٥)

نائب رئيس الوزراء البريطاني يدافع عن حق ارتداء النقاب في المدارس

وجه نيك كليغ، نائب رئيس الوزراء البريطاني، انتقادات حادة للتصريحات التي أطلقها وزير الداخلية البريطانية، جيريمي براون، بشأن إجراء نقاش وطني حول تدخّل الحكومة لحظر ارتداء النقاب في المدارس والأماكن العامة.

وقال كليغ في تصريح له: «أرى أنه لا يجب أن ينتهي بنا المطاف مثل دول أخرى أصدرت قوانين برلمانية حول ما يمكن أن يرتديه الناس. وبريطانيا دولة تتمتع بالحريات، حيث يتمتع الجميع بحرية ارتداء ما يرونه مناسباً».

وأضاف كليغ: «قد يكون من غير الملائم بالنسبة للطلاب ارتداء النقاب في الفصول المدرسية، لكن هذا لا يعني أنه يتعين على الحكومة التدخل وفرض قيود على ما يمكن أن يرتديه الناس».

(مفكرة الإسلام: ٢٠١٣/٩/١٧)

(*) نرحب بمقترحاتكم البنّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

مرصد الأرقام

أكد «عمر الشـنيطي» – الخبيـر الاقتصادي – أن «العجـز المتوقع في موازنة العـام المالي للحكومة المصريـة ٢٠١٣/٢٠١٤ نحو ١٩٥ مليار جنيه، إضافة إلـى الحاجة لسـداد نحو ١١٥ مليـار جنيه كديون مسـتحقة، ما يجعل الحكومة بحاجة لاقتراض نحو ٣١٠ مليارات جنيه خلال العام المالي الحالي».

و«التقديرات تشير إلى أن عجز الموازنة الحقيقي قد يصل إلى نحـو ٢٥٠ مليار جنيه، ما يعني حاجة الحكومـة لاقتراض نحو ٣٥٠ مليـار جنيه في العام المالـي الحالي، ولـو اعتبرنا أن المرحلـة الانتقالية ستطول لسنة ونصف حتى نهاية ٢٠١٤، فإن الحكومة سـتحتاج لاقتراض نحـو ٥٠٠ مليار جنيـه داخلياً وخارجياً لسد العجز وسداد الديون المستحقة».

(بوابة الحرية والعدالة: ٢٠١٣/٩/١٤)

خلـص تقرير الثروة العالميـة الذي يصدره سنوياً بنك UBS السويسري، إلى أن دول الخليج وإسـرائيل شـهدت أكبر تزايد لرجال الأعمال فائقي الثراء عام ٢٠١٢.

وأوضـح أن ثـروة أصحـاب رؤوس الأمـوال الكبيرة في دول السعودية والإمارات والكويت وقطر وإسرائيل تزايدت بمقدار ٢٥ في المائة.

وقدر التقريـر بنحو ٢٨٥ مليار دولار ثروات أغنياء السـعودية التي باتت الآن تضم ما لا يقل عن ١٣٦٠ مـن أصحاب الثـروات الفائقة، أي بزيادة ١٧ في المائة مقارنة بالعام السابق.

لكن السـعودية تحتل المركز الأول من حيث عدد فائقي الثروة على مسـتوى منطقة الشرق الأوسط، التـي باتت تضم ٥٣٠٠ مليونيـر بلغ مجموع ثرواتهم ٨٨٠ مليار دولار.

(سي إن إن: ٢٠١٣/٩/١٦)

تراجعـت نسـبة الأميـة فـي الأراضي الفلسطينية من ١٣,٩٪ عام ١٩٩٧ إلى ١٪ عام ٢٠١٢.

(المركز الفلسطيني للإحصاء: ٢٠١٣/٩/١٣)

تغريدات

عبد العزيز الطريفي @abdulaziztarefe

إذا ربط بين الحاكم والعالم حبلٌ من المال ارتخت حبال الحق والعدل.

أحمد الصويان @Asowayan

رصاصـة طائشـة أطلقـت فـي غيـر مسـارها شـحنت الأفغـان بالحروب، ثم كان الفشـل وذهاب الريح! فهل يدرك أهل الشام أن أول الخسار أن يتوجه سلاحهم إلى إخوانهم؟!

ياسر الزعاترة @YZaatreh

هـذا الإذلال الذي يتعرض له فلسـطينيو قطاع غزة (على معبر رفح) من قبل أمن السيسـي وجيشـه؛ عارٌ عليه، وعلى من يقفون في صفه من الداخل والخارج.

إبراهيم السكران @iosakran

لا نريـد (الديمقراطيـة الغربيـة) ولا (الاسـتبداد الكسـروي)، لسـنا أرقاء.. لسـنا عبيداً.. لنا حق الاختيار.. نفوسـنا مشحونة وجدانياً بنموذج (الخلافة الراشدة).

د. محمد يسري إبراهيم @DrMohamadYousri

تقديم أهل سيناء كقرابين ولاءً لليهود لن يغني عنهم في الدنيا ولا في الآخرة شيئاً. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت. وسيعلمن نبأه ولو بعد حين.

محمد المختار الشنقيطي @mshinqiti

لا يوجـد أسـوأ مـن السـلطة المدنيـة الضعيفـة سـوى السـلطة العسكرية القوية؛ لأنها تبيع الناس وهْم الاستقرار المؤقت مقابل التنازل عن الحرية الدائمة.

محمد عبدالله الوهيبي @mohammadalwh

يفتخـر أسـامة كمـال، وزيـر البتـرول المصـري الأسـبق، بتوقف محطة كهرباء غزة، ويعتبر ذلك إنجازاً للجيش المصري!.. هنيئاً للصهاينة هذه الخدمة!

اليهود والتوتر بين غزة ومصر

■ د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com
@adnanabuamer1

لا تكاد «إسرائيل» تصدق ما تراه بأم العين من حراك للجيش المصري على الحدود الجنوبية لقطاع غزة بعد أن تواترت الأنباء عن أن ما تقوم به الآليات العسكرية المصرية ليس فقط هدم الأنفاق وإغلاق طرق التهريب، كما صرح عدد من المسؤولين المصريين، وهو ما يقع برداً وسلاماً على صنّاع القرار في تل أبيب.

بل إن حجم قلق الفلسطينيين، وعلى رأسهم حركة حماس، ازداد بصورة متسارعة في الأيام الأخيرة بعد ورود أنباء عن نوايا مصرية بإقامة منطقة أمنية عازلة على الحدود المشتركة، ورغم شح المعلومات حول هذا الموضوع، لكن ما توافر من معطيات يشير إلى أن الجيش المصري سيقيم منطقة عازلة على طول الحدود مع غزة بعرض ٥٠٠ متر، لمنع التهريب والسيطرة على الأنفاق.

وقد قام كاتب هذه السطور بجولة ميدانية على الحدود المصرية – الفلسطينية، وشاهد إزالة الجيش المصري كل ما يتواجد في المنطقة القريبة على الحدود مع غزة بمسافة ٢٥٠-٣٠٠ متر، كي تتحرك قواته على الحدود براحة أكبر، ويمكن بسهولة مراقبة التحركات العسكرية، وسماع دوي الانفجارات التي يقوم بها لتفجير المنازل التي يشتبه بوجود أنفاق أسفل منها.

منطقة مكشوفة

كما تواصلت هاتفياً مع بعض سكان المنطقة الحدودية المصرية مع غزة، وأكدوا أنهم تلقوا من الجيش بلاغات بضرورة إخلاء منازلهم، ودمر ١٣ منزلاً في حي «الصرصورية» بعد اكتشاف فوهات أنفاق بداخلها، وشرعت جرافات عسكرية بإزالة الأشجار الكثيفة المنتشرة على الحدود في رفح.

ورغم أن المنطقة العازلة سيتم إقامتها داخل حدود مصر، لكن أحد كبار العاملين بمجال الأنفاق في غزة قال إنها ستشكل كابوساً لقطاع التهريب، سواء الأسلحة أو البضائع؛ لأن الحدود المصرية – الفلسطينية بعد إقامة المنطقة العازلة ستشبه الحدود المصرية الإسرائيلية قرب مدينة إيلات، والحدود الفلسطينية الإسرائيلية شرق غزة.

وأضاف: ستكون منطقة جرداء مكشوفة للجيش المصري دون عناء أو استعانة بأقمار صناعية وأجهزة متطورة، بل

(*) كاتب فلسطيني.

يكفي نشـــر عدة أبراج عســـكرية على طول المنطقة كما تفعل إسرائيل، بما يعني القضاء على إمكانية تزويد غزة باحتياجاتها الأساسية.

وقد علمتُ من مصادر مطلعة داخل سيناء بخروج مسيرات حاشدة للمصريين من ســـكان المنطقة الحدودية بمحيط دوار «سلامة» بمنطقة الصرصورية ومحيط ميدان الجندي المجهول القريبـــين من الحدود في اليومين الأخيرين، وقاموا بإشـــعال عدد كبير من إطارات السيارات تعبيراً عن رفضهم للقرار.

وتحدث الصحفيون عن أن الجيش المصري أرسل تعزيزات عســـكرية من آليات ومدرعات لمحيط المناطق الحدودية التي تشهد تظاهرات، وحلقت مروحيات عسكرية شرق معبر رفح.

بل إن الخبير العســـكري المصري اللواء طلعت مسلم توقّع أن تشـــهد سيناء الفترة القادمة عمليات مسلحة من قبل بعض أهاليها ممن يستخدمون الأنفاق في تجارتهم، بعد تدمير قوات الجيش منازلهم.

على صعيد رد فعل حماس، فإن قنوات تواصلها مع مصر شـــبه منقطعة في جميع الاتجاهات، وقد علمت بقرار المنطقة العازلة من وكالات الأنباء، ما جعل الخبر يقع عليها كالصاعقة المدوية، ليشـــكل مفاجأة غير ســـارة، وحاولت بدقة متناهية صياغة رد فعل أولي حذر.

واقتصر رد فعل حماس الرسمي على القرار المصري، على الناطق باســـم حكومتها في غزة، إيهاب الغصين، الذي قال إن المناطق العازلة لا تكون بين الإخوة وحدود الدول الشقيقة؛ لأن غزة هي خط الدفاع الأول عـــن مصر، متمنياً ألا تكرس هذه الخطوة الحصار على غزة، وتفاقم معاناة أهلها.

واعتبر مشـــير المصـــري، عضو المجلس التشـــريعي عن حماس، المنطقة العازلة استكمالاً للجدار الفولاذي الذي أقامه الرئيس المخلوع «مبارك»، وامتداداً لجدار الفصل العنصري في الضفة الغربية الذي أقامه رئيس الوزراء الإســـرائيلي الأسبق «أريئيل شارون»!

تهدئة الميدان

فيما نفى د. يوســـف رزقة، المستشـــار السياسي لرئيس حكومة حماس في غزة إســـماعيل هنية، وجود أي حالة عداء بين غـــزة ومصر تبرر إقامة المنطقة العازلـــة، نافياً وجود أي أســـباب أمنية وعســـكرية لإنشـــائها، معتبراً أن إسرائيل هي الطرف الوحيد السعيد من هذا القرار.

ولئن كان رد الفعل الرســـمي الصـــادر عن حماس «ناعماً دبلوماســـياً»، فإن مصدراً مطلعاً فـــي الحركة قال إن المنطقة العازلة تفتح صفحة جديدة من التوتر مع الســـلطات المصرية، ســـواء لما تشـــكله من أضرار اقتصادية معيشـــية على سكان القطاع، أو ما سيســـفر عنها من تضييـــق الخناق على القوى المسلحة للتزود بالعتاد المطلوب الذي كان يمر عبر الأنفاق.

وأضاف: المفارقة التي نعيشـــها اليوم أن حماس تحدثت مع مصر إبان حقبة الرئيس المعزول محمد مرسي عن إقامة منطقة تجارية حرة على الحدود المشـــتركة، وتمت مناقشـــتها بينهما، وتحديدها على الأرض من الناحية التفصيلية، من أجل التبادل التجـــاري بين غزة ومصر، وإنهاء تجارة الأنفاق التي تدخل على مصر سنوياً قرابة مليار دولار، كما تقول المصادر الاقتصادية.

أما علـــى الصعيد الميداني، فقد نظم الجهاز العســـكري لحماس، كتائب القسام، عرضاً عسكرياً للعشرات من مسلحيه في مدينة رفح على الحدود مع مصر، أثناء ركوبهم سيارات دفع رباعـــي، بتاريخ ٢٠١٣/٨/٢٣، وقد أثار ذلك ردود فعل متباينة داخل حماس؛ لأنه يرسل رسائل استفزازية لمصر، وقد يزيد من تصعيدهم للعلاقة مع الحركة، واتهامها بأحداث مسلحة داخل سيناء، دأبت الحركة على نفيها دائماً.

فيما أعلنت جماعة الســـلفية الجهادية و«جيش الإسلام» في غزة، إقامة «خيمة دعوية» كبرى بمدينة رفح الحدودية مع مصر، رغم أن علاقتها بحماس ليســـت على ما يرام في الآونة الأخيرة، فيما أعلنت «كتائب المقاومة الإسلامية»، وهي تشكيل عســـكري جديد ظهر لأول مرة في نوفمبر ٢٠١٢ وله توجهات سلفية؛ أنها ستضرب تل أبيب إذا قام الجيش المصري باقتحام غـــزة، وأي قذيفة مدفعية تطلق على غزة من الحدود المصرية ستقوم بردها على إسرائيل.

ومع ذلك، فإن الأجواء السائدة في حماس لا تذهب باتجاه تصعيد الموقف مع مصر، ســـواء سياســـياً أو عسكرياً، بل إن هناك آراء تدفع نحو التهدئة معها، وعدم إفســـاح المجال لأي سلوك ميداني قد يزيد من حدة الموقف صعوبة على غزة.

أخيراً.. فإن الحديث السائد في قطاع غزة اليوم بعد قرار مصـــر إقامة المنطقة العازلة على حـــدود غزة، وصل إلى حد التكهن بإمكانية نشـــوب مواجهة مسلحة بين الجانبين، للدرجة التـــي دفعت وكالة «الرأي» الرســـمية التابعة لحكومة حماس، إلى عنونة أحد تقاريرهـــا بالقول: هل يهاجم الجيش المصري قطاع غزة؟

أصعب من ضربة سيف

■ بسام الطعان
bassamtaan@yahoo.com

سنوات طويلة وأيامها تفسدها الكآبة بإطلالتها البشعة.. سنوات وهي تنام على الحنين وتصحو عليه، لكنها لم تتقن التعب في يوم من الأيام، وحين جاءها الخبر الذي انتظرته طويلاً وهي تغسل البساط الصوفي في النهر، أطلقت شهقة وكادت تقع في الماء، غير أنها تشبّثت بصخرة كبيرة وسألت:

– بالله عليك يا ولدي، ما تقوله صحيح؟.. أين هو؟

– نعم يا خالة، رأيته بأم عينيَّ، كان في سيارة حكومية ومعه شرطي.

ولأن لا شيء يشبه الفرح الذي تلبسها، لا في حدود ولا في المطلق، دمعت عيناها أكثر من المعتاد، ظلت واقفة للحظات، أرسلت دموعها رسائل شوق لوجهه، ثم أسلمت قدميها للريح ومن خلفها تتساقط قطرات الماء من ثوبها، سارت بقوة الحب واندفاع الشوق، واتجهت إلى بيتها تسبقها لهفتها، في الطريق تذكرت أنها لم تخرج البساط من النهر، لكنها لم تهتم بذلك، فكل شيء يهون من أجل عينيه.

سبع سنوات مرت لم ترَ خلالها عباساً سوى مرة واحدة، كان ذلك منذ أربع سنوات عندما جاء ليخبرها بأنه قد تخرّج من كلية الحقوق، وأنه سيعيش في العاصمة، حينئذ رجته بحرارة أن يظل إلى جانبها أو ترافقه، لكنه رفض بشدة وتذرع بحجج واهية.

منذ ذلك اليوم وهي تحيا على أمل أن يعود، لكنه غاب دون رسالة أو سؤال يتيم حتى رسمت سنين الانتظار الخرائط على وجهها الخمسيني.

كانت تراقب الطريق المؤدية إلى المدينة كلما غسلت لقاء أجر زهيد بسط وصوف أهل القرية في النهر المسافر دائماً، كم حسدت هذا النهر، وكم تمنّت أن تسافر مثله؛ لأن ألف شوق يشدها إلى الغائب، رجت القلب مرة أن ينساه وما استطاع.

أبداً لم تتعب من ترقب عودته، وكلما جاء أحد من المدينة تسأله بلهفة عن الغائب دون سبب، فتتأسف وتتحسر، وتصبر، صبرت وانتظرت وشاخ انتظارها، أحياناً كانت الأيام تمر بلمح البصر، وأحياناً تبدو مثل الدهور المجحفة، وكانت كلما تشتد وطأة الوحدة عليها تجلس مع العتمة، تصادق الدموع، وتسأل عن سر عدم مجيئه إليها، فتهزمها الأجوبة ويرهقها التفسير وتفسير التفسير.

اقتربت من بيتها الطيني، فتملكتها دهشة لا تزول، لأنها لم تجد السيارة أمام الباب، دخلت بخطوات سريعة، بحثت عنه في أرجاء البيت، نادته بصوت أوله حنين وآخره حنين، لكنها لم تجد له أثراً، "أين ذهب يا ترى؟" تساءلت في داخلها واستعدت لتنظيف وترتيب البيت الذي تحجّرت أشياؤه ولم تتبدل مواقعها منذ سنوات.

بدأت عملها بسرعة ونشاط كما لو أن سرعتها هذه ستسرع في مجيئه، حملت لحافه الذي طال حنينه إلى الماء والصابون: "إيه.. يا نور عينيَّ.. لحافك ما زال كما هو، غبت كثيراً وها أنت تعود

لتزيّـــن هذا البيت بوجهـــك من جديد". نظفت فراشه والشوق والفرح يتحاوران في مخيلتها، مضت إلى البئر، أحضرت الماء، رشت به أرض الدار، ثم دخلت إلى غرفتها، توجهت نحو صندوق ملابسها، الصندوق الذي ظـــل مقفلاً منذ غيبته، فتحتـــه بصعوبة، نفضت عنـــه التراب، أخرجت فستانها القديم الجديد، لكنها تركته جانباً وتوجهت إلى المطبخ بعد أن ذبحت الدجاجة الوحيـــدة التي تملكها، أعـــدت الطعام، ثـــم ارتدت فســـتانها وجلست بانتظاره.

ياه.. كم مـــرة حملت أثقال الهموم؟ كم مرة نطقت باســـمه في أزقة القرية وحواريها؟ كم مرة بكت وسقطت دموعها فـــي النهر، وبـــح صوتها مـــن الحنين، ونسيت بعض الصوف في الماء، وجرحت أصبعها وهـــي تقطف الحشـــائش في البرية، أو تعد الطعام؟

كانت تضمـــه بخيالها إلى صدرها، تعاتبه حيناً، وحيناً تقبّله بحنان عجيب، لم تعـــرف كم مـــن الوقت مـــر عندما اســـتفاقت مـــن تخيلاتهـــا على صوت جارتهـــا وهي تطـــل برأســـها من فوق الحائط:

– ألم يأتِ ولدك بعد يا (نوفة)؟

– لا، ولا أعرف أيـــن ذهب. قالتها بحسرة واضحة.

– يقول زوجي إن عباساً موجود في المخفر.

– مخفر!! مـــاذا يفعـــل ولدي في المخفر؟

– لا تخافـــي، زوجي يقـــول إنه قد أصبـــح رجلاً مهماً فـــي العاصمة، لكن لماذا لم يأتِ إليك حتى الآن؟

لمعـــت عيناهـــا بالفـــرح وشـــردت للحظات:

– ألم تقولي إنه أصبح رجلاً مهماً؟ فلا بد أن لديه أعمالاً يقضيها مع رئيس المخفر.. على كل حال لا بد أنه ســـيأتي بعد قليل.

وراحت ترســـم لوجهـــه الذي طالما ســـهرت الليالـــي وطيفه يتـــراءى لها، صوراً عديدة؛ صـوّرته مرة مديراً، ومرة ضابطاً، ومرة قاضياً، ومرة وزيراً.

انســـدل الليل على جســـد النهار، ونشر عتمة تشـــبه عتمة زنزانة، فاشتد قلقها، فكرت بالذهاب إلى المخفر، لكنها ســـرعان ما غيّرت رأيهـــا: "لا يجوز أن أذهب وراءه، صحيح أنني في شـوق كبير إليه، لكن ذهابي قد يسبب له الإحراج". لـــم تســـتطع الانتظار أكثـــر من ذلك، فاتجهت نحو بيت جارتها وقالت لابنها:

– اذهـــب إلى المخفر وقل لولدي إن أمك بانتظارك.

– رأيته؟.. قلت له إن أمك تريدك؟ سألته بلهفة عندما عاد وهو يلهث.

– نعـــم، قـــال: "عندي شـــغل" ولا أستطيع الحضور الآن.

شعرت بأن عشـــرة سيوف انغرزت دفعة واحـــدة في صدرها، لكنها حاولت أن تكون كشـــجر الســـنديان الذي يبكي الفؤوس قبل أن يســـقط، جلســـت في مكانها، جـــادت عيناهـــا بدمعة واحدة فتاهت بين خطوط ووديان وجهها إلى أن وصلت إلى شفتها العليا، فحركت لسانها وهـــي تتذوق طعـــم الملح الـــذي أصبح مألوفاً لديها.

دون أن تنطق بحرف عادت إلى بيتها، وفي الطريق شـــعرت بأنها لن تراه أبداً، لكنها طردت هذا الشـــعور بعدما لعنت الشيطان، جلست على بساط رث بقلب منكسر، فمِن دونه لا راحة ولا فرح لها، ولا دفء يستطيع أن يعيش في فراشها، ولا خبـــز أو مـــاء يحيا علـــى مائدتها، وضعت كفها على خدها وانتظرت، وبغتة رفعت رأسها نحو الســـماء، تمتمت في همس، وأطلقت نداءاتها الجريحة.

شيئاً فشـــيئاً همدت الأصوات في القرية، ولم يعد يسمع سوى نباح الكلاب من بعيد، أسندت رأســـها على المخدة، لكنهـــا لم تغمض عينيهـــا، وإنما راحت تنظر نحـــو الباب وتنصت، تعبت عيناها من التحديق، هاجمها الوســـن جماعات وفرادى، غير أنها لم تســـمح له بالتغلب عليها، نهضت والحزن يخيّم فوق سفوح صمتها، تطلعت نحو الخارج، فشاهدت حمام ذاكرتها يطير إليه: "ها هو الفجر قد أقبل ولم يأتِ.. ســـأذهب إليه الآن". فتحت الباب، أغلقته، أســـندت رأســـها عليه: "لأي سبب أذهب إليه؟.. يبدو أنه نسي أن له أماً أرضعته حليباً وليس ماءً عكراً". عادت إلى مكانها وســـافرت إلى الماضـــي البعيد، رأت فيـــه زوجها الذي رحـــل ولم يتـــرك لها غير ابـــن تعذّبت كثيـــراً من أجله، كانـــت تنتحب بصمت مرير عندما سمعت جارتها وهي تناديها كعادتها من فوق الحائط، فنهضت دفعة واحدة، قالت واللهفة لا تزال بادية على وجهها:

– هل جاء ولدي؟

– لا. قالتهـــا وهي تهز رأســـها، ثم أضافت بشيء من الغضب:

– ابنك غادر القرية يا (نوفة)!

تجمّدت فـــي مكانها وهي لا تعرف أي حزن غـــاص في صدرها، شـــعرت بجراحهـــا تتـــوزع في كامل جســـدها، وبضبـــاب كثيف يغطي ســـماء أمانيها، لكنها استطاعت أن تقول بصوت خائف مرتجف خجول:

– متى ذهب؟

– قبل قليل.. اصعدي على السطح فسترين سيارته تغادر القرية.

لم تصدق ما سمعت، لملمت بعضها وصعدت الســـلم بكل مـــا فيها من بقايا قوة، ثم راحت تنظـــر إلى جهة الطريق دون كلام، دون حركة، دون صوت.

سقوط الليبرالية!

■ محمد وفيق زين العابدين(*)
w-afik@hotmail.com

لستُ هنا بصدد بيان مفهوم الليبرالية أو تحديد أطرها الأيديولوجية بقدر ما سأعنى بتقييم واقعها الفعلي في مصر فيما بعد ثورة يناير ثم فيما بعد الانقلاب العسكري؛ لأن الأمر لا يستحق الإغراق في هذه الجدالات اللفظية العقيمة إذا كان الواقع قد فرض نفسه على نحو معين يستحق التأمل والدراسة والنقد والكشف عن الأوهام المؤسسة لهذا الواقع.

فقد انطلق الليبراليون في مصر بعد انتصار ثورة يناير من مبادئ وتصورات تقوم على عدة مضامين، أهمها: حماية حريات المواطنين بجميع أشكالها العقدية والاجتماعية والجنسية، كفالة العدل الاجتماعي القائم على توزيع الثروة توزيعاً عادلاً، تمكين الكفاءات العلمية والعملية من المناصب، واحترام القانون وأحكام القضاء.

انطلقوا يؤصّلون لهذه المبادئ والتصورات في مناظراتهم ومحاضراتهم ومقالاتهم في الصحافة والإعلام على نطاق واسع لم يكن ليُسمح لهم بالتمدد فيه ولا في شبر منه على مدار تاريخ الدولة المصرية، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين اعتبروا ناقديهم ومخالفيهم أعداء التحرر ودعاة الاستبداد، مناهضي العدل ودعاة الظلم والجور ومنتهكي القانون.

حقاً استطاع الليبراليون تسويق رؤيتهم وخداع جموع الشعب المصري بالمُثل العليا التي ما برحوا يروجون لها ويزينونها للناس ويدافعون عنها، زاعمين أن الليبرالية هي الأفق النظري والفلسفي الذي طالما نزعت البشرية نحوه والذي لا يوجد بديل عنه في أي نظام ديمقراطي، وقد حدث هذا بمساعدة عاملين:

الأول: الآلة الإعلامية التي ساعدتهم على الترويج لأفكارهم وتعظيم رموزهم مع النيل من مخالفيهم والتشنيع عليهم بالشائعات وتعظيم الأخطاء.

الثاني: النظام الحاكم نفسه الذي كان مارس الليبرالية معهم، فحررهم من كل قيد، وأطلق لهم عنان الحركة والمعارضة بكل الوسائل مهما كانت خستها ودناءتها ومهما انطوت استهزاء وسخرية ومخالفة للقانون، بل سعى جاهداً للتعاون معهم وهم الذين دأبوا على التخريب والتأليب.

حتى وقع ما خططوا له مع أصحاب المصالح من الفاسدين والمنحرفين أتباع النظام القديم "الفلول"، فحدث الانقلاب العسكري ووقع المحظور، وقتل المصريون مصريين آخرين بأبشع الوسائل وأدوات القتل بلا أدنى رحمة، وتلوثت الأيدي بالدماء الكثيرة حتى أصبح من العسير حصر أعداد الضحايا وأعداد الأسر التي فقدت إما أباً لها أو أماً أو ابناً أو ابنةً.

ورغم ما لحق بالإسلاميين من خسائر في الأرواح والأموال والحقوق والحريات ومكتسبات ثورة يناير، إلا أن خسائر الليبرالية كانت أعظم وأفدح؛ فقد سقطت الليبرالية كليةً، وكان سقوطها سقوطاً مخزياً، فقد انكشفت مبادئها المضطربة، وانكشفت تصوراتها الخاطئة، وأيديولوجيتها المعيبة المشوهة.. عشرات

(*) قاضٍ في المحكمة الابتدائية المصرية.

الأخطاء وعشرات الانحرافات الخطيرة في شتى ممارساتها ومساحات عملها ونشاطها فيما بعد الانقلاب العسكري، لا في الحياة السياسية فحسب، بل تجاه الإنسان ومعالجة وجوده، وتجاه مصيره وصياغة هذا المصير بما ينسجم وإنسانيته وآدميته.

يمكننا أن نبرز أهم مظاهر سقوط الليبرالية في مصر في النقاط التالية:

- تبيّن للعالم والشعوب المحايدة الفرق بين حكم الإسلاميين الذين يجتهدون في رعاية الحريات وصيانتها ويحترمون الآراء المخالفة ويسعون جاهدين لاحتوائها، والحكم الليبرالي المزعوم الذي ينتهك الحقوق ويُهدر الحريات ويقمع الآراء المخالفة بالقتل والاعتقال وتلفيق الاتهامات، بل لا يجد أي غضاضة أو حرج في تبرير ممارسته القمعية غير الآدمية.

- تبيّن أن الليبراليين لا يجدون أي غضاضة أو حرج في التعاون مع أصحاب المصالح من الفاسدين والمنحرفين وظيفياً "الفلول" والاستعانة بهم في الحكم على جميع المستويات الوظيفية، بما لا يُمكن معه بحال من الأحوال تحقيق العدل الاجتماعي المزعوم، إذ لا سبيل للعدل الاجتماعي القائم على توزيع الثروة توزيعاً عادلاً إلا بمكافحة الفساد والحد منه وتقليل فرص انتشاره.

وقد بدت أعظم مظاهر الزيجة بين الليبرالية وأصحاب المصالح في المجال الإعلامي الذي يسيطر عليه من الناحية المادية أصحاب المصالح من أتباع النظام القديم "الفلول"، بينما يُديره ويسيطر عليه من الناحية الفكرية بعض الإعلاميين الليبراليين الذين لم يجدوا أي غضاضة في استخدام الكذب والشائعات وشتى الوسائل الخسيسة والدنيئة لترويج فكرهم والنيل من مخالفيهم وتحويل الإنجازات إلى انتكاسات وتعظيم أخطائهم بل وتبرير قتلهم وانتهاك حقوقهم.

وقد تبيّن بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يوجد أبداً ما يسمى الإعلام المحايد، بل هو موجه دائماً وأبداً كسلاح للتأثير على الناس، وهو السلاح الأهم في المعركة الفكرية بين الإسلام والليبرالية.

انكشفت الازدواجية الخطيرة للزعامة الليبرالية، حيث تبيّن أن الذين يبلغون أعلى المناصب منهم غارقون - في الوقت ذاته - لأبعد حد في أدنى وأحطّ المستويات اللاأخلاقية واللاإنسانية، ومن ثمَّ فقد انقطعت الصلات العملية بين وجودهم الفعلي والتغيير الذي لطالما دعوا إليه، وأصبح وجودهم الفعلي محض وجود نفعي استغلالي يقربهم كثيراً جداً من الفاسدين والمنحرفين "الفلول".

أكثر منظمات المجتمع المدني ومنظمات حقوق الإنسان المزعومة التي كانت تقوم أنشطتها على أساس ليبرالي فيما تزعم؛ تبيّن أنها لا تعمل لصالح الشعب والمجتمع المدني، بل تعمل لحساب أجندات داخلية وخارجية بعينها، وليس لها أي علاقة بحريات المواطنين وبحقوق الإنسان إلا فيما يخدم مصالحها فحسب.

فشل النظام الليبرالي أو العلماني بصفة عامة في إقامة الديمقراطية، بل في مواجهة كل التحديات الحضارية التي واجهتها منذ ثورة يناير، وقد تأكد للجميع أن الديمقراطية - عند الليبراليين - ما هي إلا محض وسيلة يستخدمونها لخداع الشعوب للسيطرة على الحكم ومقاليد الأمور، حتى إذا جاءت بخسارتهم انقلبوا عليها وتمردوا؛ لأن الليبرالية السياسية في الحقيقة نظام ديكتاتوري إقصائي متعنّت غير قابل على التعايش مع الإسلاميين ولو كان الدين مطلباً شعبياً للجماهير، فإبعاد الدين والإسلاميين عن الحكم شرط أساسي لقبول الديمقراطية، بل الأمر أسوأ من ذلك، إذ لا يمكن القبول بالمعارضة الإسلامية ومشاركتها في العملية السياسية إلا بقبول الأخيرة "روشتة" الليبرالية السياسية ورضوخها لها تماماً، أي أن تكون مجرد معارضة شكلية لاستكمال الشكل الديمقراطي المزعوم.

وفي التاريخ شواهد كثيرة على ما ذكرت، فلم تكن مصر الدولة الوحيدة التي عانت الاضطهاد الديكتاتوري العلماني، بل سبقتها تركيا والجزائر، والحركة الإسلامية في تونس قديماً.

وعلى النقيض من ذلك فقد أكدت الحركة الإسلامية في خطها العريض أن لديها رؤية شاملة وقدرة فعلية على احتواء الآخر وقبول معارضة سياسية حقيقية.

هذه بعض مظاهر سقوط الليبرالية والعلمانية المصرية، وهي في ذات الوقت أهم فوائد الإسلاميين من الانقلاب العسكري، وهي غيضٌ من فيض وقليلٌ من كثير، وإذا صدق ظني فإن الجنوح العلماني الديكتاتوري الدموي الذي اجتاح مصر سيكون ذا تأثير كبير على هزيمة العلمانية العالمية في الجولة الثانية من معركتها مع الإسلام، بعدما نالت المادية منها ما نالت في الجولة الأولى من المعركة، حتى قال بعض الباحثين الغربيين بحتمية سقوطها.

التلاعب بالعقول(*)

دور الإعلام في الثورة المضادة

■ سمير حمدي(**)
shamidi09@gmail.com

لا أحد ينكر الدور الذي لعبه الإعلام في التقلبات السياسية التي شهدتها المنطقة العربية وما زالت، وربما كانت منظومات التواصل الجماهيري (تلفزيون، وإنترنت) الأكثر تأثيراً في صناعة الرأي العام وتغيير المزاج الجماهيري وقولبته على النحو الذي يسعى إليه مستخدمو هذه الأجهزة، أو بصورة أدق المسيطرون عليها ومالكوها.. لقد أصبحت الشاشة أداة مركزية تتجاوز كونها وسيلة اتصال أو تواصل أو تختزل في مجرد قنوات تقدم برامج للتسلية والتثقيف لتصبح أدوات للضبط والتحكم السياسي والاجتماعي تؤثر في الأفراد والجماعات وتزيّف وعيهم وسلوكهم.. لقد تحولت الصورة إلى سلطة حقيقية من يملكها يصبح السيد الحقيقي، أو كما يقول ريجيس دوبراي «فإن سيد الصورة هو سيد البلاد».. ومثلما كان للصورة التي روّجها الإعلام البديل (الإنترنت) دور مركزي في خلخلة منظومات استبدادية والإطاحة بها أحياناً، فقد لعبت أدوات الاتصال الجماهيري دوراً مركزياً في خدمة القوى الاجتماعية والمالية المهيمنة من أجل إعادة السيطرة على العقول واستعادة السيطرة على البلد في لحظة موالية، وهو أمر يمكن أن نلاحظه من خلال الدور الذي لعبته أجهزة الإعلام في التهيئة للانقلاب المصري، أو في إثارة الاضطراب في تونس، وقبلها كان لها دور مماثل في التحريض على الانتفاضات والثورات.

تاريخياً ومنذ ظهور التلفزيون أدرك أصحاب السلطان والنفوذ أهميته ودوره بوصفه وسيطاً قادراً على الإقناع والإيهام والخداع، وتكمن قوته في أنه يسبك الرأي ويقولبه

(*) «المتلاعبون بالعقول» عنوان كتاب صدر عن طريق سلسلة عالم المعرفة عدد ٢٤٣ التي تصدر من الكويت، وهو ترجمة لكتاب (Mind Managers) من تأليف هربرت شيللر، ونشر عام ١٩٧٣م. يتكلم الكتاب عن التضليل الإعلامي والوعي المعلب وصناعة المعرفة في الولايات المتحدة الأمريكية وكيف يتم التحكم في الرأي العام. يعتقد شيللر أن صناعة التلاعب بالعقول تتم عن طريق خمس أساطير جرى ترويجها بعناية وذكاء، حتى باتت تلك الأساطير تشكل الإطار التضليلي الذي يوهم عقولنا بادعاء الحقيقة، وتتمثل هذه الأساطير التي تسيطر على الساحة الإعلامية بوصفها حقائق في (الفردية والاختيار الشخصي، الحياد، الطبيعة الإنسانية الثابتة، غياب الصراع الاجتماعي، والتعددية الإعلامية) (مجلة البيان).

(**) باحث في الفكر السياسي – تونس.

حسب صياغة خاصة، وهو ما جعل الأنظمة الشمولية تحرص على السيطرة على هذه الأجهزة، غير أن الثورة التقنية الحديثة جعلت من إمكانية السيطرة على الدفق الإعلامي المتواصل أمراً مستحيلاً، وهو الأمر الذي دفع القوى المتنفّذة إلى وضع استراتيجيات جديدة للسيطرة والتلاعب بالعقول وإبقائها تحت حالة من التلقي السلبي والخضوع للتوجيه بحسب مصالح وإرادة أصحاب النفوذ والسيطرة.

دور الإعلام في الثورة والثورة المضادة

يؤكد ريجيس دوبراي أننا نعيش عصر الشاشة، حيث أصبحت الصورة متداولة، فضلاً عن اكتسابها سمة جديدة هي الحركة باختراع التلفزيون والحاسوب والأقمار الصناعية، وأصبح تأثيرها أعمق وأشد؛ فهي تفرض إيماناً مطلقاً بحقيقة خطابها، فقد تحولت الصورة إلى كيان مرجعي قائم الذات يستمد قيمته من ذاته ولا يحيل إلى شيء آخر، فلا أحد ينكر مثلاً الدور الذي لعبته صور ضحايا الاستبداد في التحريض على الثورة ضد الأنظمة (صورة البوعزيزي وهو يحترق بنار الاحتجاج على المظلمة، أو صورة خالد سعيد الذي تحمّل آثار التعذيب المعبّر عن طغيان السلطة ووحشيتها).. وأثناء الثورة كان للفيسبوك دوره المركزي في نشر الصور والفيديوهات التي تنقل معاناة جماهير الناس وتتابع تحركاتهم في الشارع، إضافة إلى الدور المركزي الذي لعبته قناة مثل الجزيرة في تغطية التحركات الشعبية والصدامات الدموية في الشوارع أثناء الثورات، وهو ما أفضى في النهاية إلى سقوط بعض الحكام بشكل أو بآخر.

إن الصورة خلافاً للكلمة لا تتطلب مجهوداً كبيراً في التلقي، فالصورة جذابة وساحرة ورسالتها متضمنة فيها، وهو ما حولها إلى أداة تعبئة وتحفيز؛ إما على الموت (فيديوهات القاعدة التي تروج لبطولات منتسبيها)، وهي المحرض الأكبر أيضا على الثورة (دور وسائل التواصل الجماهيري في الثورات العربية المجتزئة)؛ أو على الاستهلاك والمتعة (الإشهار) أو الأداة الكبرى للتخدير في كل بقاع العالم، بل تحولت بعض الشاشات إلى مصدر لنفوذ بعض الدول وسطوتها (مثال الجزيرة التي حوّلت قطر إلى فاعل مؤثر في المشهد الإقليمي والدولي، أو ما تلعبه قناة العربية في الترويج لرؤى أنظمة شمولية تتناسق مواقفها مع الرؤية الأمريكية إلى حد التطابق).

لقد تفطن أصحاب المصالح ممن تضرر من الثورات العربية الحاصلة، إلى أهمية الصورة وسلطة الشاشات، فالأزمنة المعاصرة هي زمن حكم الصورة أو سلطة الشاشة، ومن هنا كانت الحملات المنظمة للتهيئة للإطاحة بالأوضاع الناشئة إثر التحولات السياسية الجزئية في بعض الدول العربية؛ تعتمد القنوات التلفزيونية أداة لتزييف الوعي وقولبة العقول، فهناك نسبة مهمة من الأفراد ممن لا يقرؤون الصحف أولئك الذين وهبوا أنفسهم جسداً وروحاً للتلفزيون كمصدر وحيد للمعلومات؛ كانوا هم الهدف المركزي لعملية إعادة تشكيل الوعي، وكما يقول بيار بورديو «إن التلفزيون يمارس نوعاً من العنف الرمزي، وهو عنف يمارس بتواطؤ ضمني من قبل هؤلاء الذين يخضعون له وأولئك الذين يمارسونه بالقدر الذي يكون فيه أولئك كما هؤلاء غير واعين بممارسة هذا العنف أو الخضوع له».

ويمكن في هذا المجال إيراد جملة من النماذج للتلاعب الإعلامي الذي تعرض له المتلقي في دول الثورات العربية، وتخصيصاً مصر وتونس، (بوصفهما النموذج الأولي للتحولات الطارئة):

- سعت القنوات التلفزيونية في إطار حربها على الأوضاع الجديدة (حكم مرسي في مصر والترويكا في تونس)؛ إلى دفع الأمور نحو إضفاء طابع الدراما بمعنى مزدوج، حيث تضع في المشهد واقعة أو حدثاً ثم تقوم بالمبالغة في أهميتها وفي صفاتها الدرامية (حادثة حمادة المسحول كما تناولها الإعلام المصري من أجل شيطنة نظام حكم مرسي، حيث تحول الشخص موضوع الحدث إلى صورة إعلامية متكررة تحمل مواصفات الحدث الدرامي الذي يستفز وجدان المتلقي ويثير خيالاته في العودة إلى زمن الاستبداد، وهو ذات ما عمدت إليه قناة التونسية مثلاً في حديثها عن الظاهرة السلفية والترويج لخرافات إعلامية من قبيل إمارة سجنان

(مدينة تونسية)، حيث تم تصوير الأمر على أنه يشكل لحظة فارقة في دخول البلاد التونسية زمن الفوضى والإرهاب).

• استخدام السخرية من النظام الناشئ، ورغم أن البرامج الساخرة ليست أمراً جديداً في الدول الديمقراطية العريقة، غير أنها في دول مثل تونس ومصر مثلت لحظة للإطاحة بهيبة الحاكم الجديد، خاصة ونحن أمام مجتمع ما زال قسم كبير منه يؤمن بهيبة صاحب السلطة. ويمكن في هذا الإطار ذكر برنامج باسم يوسف الذي تفنّن في السخرية من الرئيس إلى حد الابتذال والإطاحة بمنظومة القيم التي جعلت المتلقي العادي لا يرى في الحاكم الجديد سوى دمية لا يمكنها إدارة البلد، (والغريب هو توقف البرنامج بعد الانقلاب)، وهو أمر له شبيه في تونس من خلال فقرة كوميدية عُرفت باسم «اللوجيك السياسي»، والتي جعلت هدفها استصغار الحكام الجدد وتحويلهم إلى مادة للتندر والسخرية خارج ضوابط السياسة، بمعنى أن تكون السخرية تتعلق بذات الشخص وهيئته قبل السخرية من نمط ممارسته الحكم.

• الندوات الزائفة، وهي برامج حوارية تضم ضيوفاً دائمين، والواقع أن مثل هذه البرامج التي تضم المدعوين الدائمين، هي عالم مغلق على الذين يعرف بعضهم بعضاً، عالم يعمل وفق منطق «الدعم الذاتي» المستمر، حيث تبدو هذه الندوات في ظاهرها ندوات حقيقية، لكنها حقيقية بطريقة زائفة، ومن أبرز نماذجها في تونس: برنامج «ناس نسمة نيوز»، أو البرامج التي يقدمها عمرو أديب أو خيري رمضان أو وائل الإبراشي في مصر، حيث يتحدث مقدمو البرامج بخفة دون مراعاة لخطورة ما يقدمونه ولا عن المسؤوليات التي يتحمّلونها نتيجة ما يقدمونه للآلاف من المشاهدين دون فهم، (أحد المقدمين تحدث عن دور الإخوان المسلمين في سقوط الأندلس على سبيل الذكر، أو الحديث عن آلاف الجثث تحت ميدان رابعة اغتالهم المعتصمون)، ومثل هذه الكلمات تخلق الأشياء وتخلق التصورات والتخيلات الخادعة، وتحدِث الخوف، وتؤدي إلى الهلع والرهبة. وهذه القدرة على الاستدعاء لمعان خطيرة لها تأثيرات ونتائج تعبوية، (بالطبع استعداداً للحظة إثارة الناس ضد الحكم القائم، وهو ما سيتجلى فيما بعد الانقلاب عندما تم فض الاعتصام بدموية غاية في الوحشية).

• الدور الذي يلعبه مقدم البرنامج وهو دور يصدم مشاهد التلفزيون دوماً، حيث يقوم المقدم بتدخلات حاسمة يفرض من خلالها الموضوع ويفرض الإشكالية، وهي في غالب الوقت إشكالية بلا معنى، وهو من يفرض قواعد اللعبة، وهي قواعد ذات أشكال متغيرة، فهي ليست القواعد نفسها عندما يكون المتحدث من الطرف الآخر الذي يريد المقدم تقزيمه، ومثالها في برنامج التاسعة مساء بقناة التونسية تم استدعاء أحد الأشخاص حاملاً كفنه مهدداً وزير الداخلية (المنتمي لحركة النهضة) على المباشر، إضافة إلى طريقة التأثير الضمني (الحديث بلا كلمات) الذي يتم أثناء الحوار عن طريق النظرات، الصمت، الإشارات، الإيماءات، وحركات العيون، وصولاً إلى نبرات الصوت، (جافة مع الخصوم ولينة مع الطرف الذي يريد المقدم الانتصار له).. ويذكر الجميع طريقة الحوار غير اللائقة التي حاور بها مذيعو التلفزيون المصري الرئيس محمد مرسي في حينه، أو حالة الخضوع والتذلل التي أبداها مقدم برنامج التاسعة مساء وهو يتحدث مع الباجي قايد السبسي، وهو يقول «حاضر سي الباجي»، والتي تحولت فيما بعد إلى نكتة على صفحات التواصل الاجتماعي.

• يقدم بعض المذيعين أنفسهم بوصفهم متحدثين باسم الجمهور لمخاطبة الطرف الآخر بنوع من الاستخفاف وصولاً إلى الوقاحة، (إلى الحد الذي وصل فيه عمرو أديب إلى توجيه الخطاب للرئيس مرسي بالقول «يا كافر»، أو تلك المبالغة في الإيحاءات غير الأخلاقية التي قام بها بعض مقدمي البرامج في القنوات المصرية تعليقاً على حديث الرئيس مرسي عن الأصابع التي تتلاعب بالأمن القومي المصري).

إن كل هذه الملامح العامة للخطاب الإعلامي في تونس ومصر تكشف أن الهدف منها لم يكن بريئاً ولا محايداً، وإنما كان تحريضياً يستهدف التلاعب بعقول المشاهدين وصولاً إلى تعبئتهم للتمرد والخروج للإطاحة بأسس النظام الديمقراطي الناشئ. وما ينبغي ملاحظته أخيراً أن النقد الموجه للأطراف الإعلامية المناوئة للتحول الديمقراطي الحاصل في تونس ومصر؛ لا يعني براءة الطرف الآخر أو غياب وسائله الإعلامية عن لعبة التعبئة والتأثير، لكن التركيز على الطرف الأول ناجم عن كونه يقدم خطاباً سعى من خلاله إلى تقويض التجربة الديمقراطية الناشئة، وانتهى بانقلاب دموي في مصر وبالتحريض على الفوضى في تونس وبصمت مطلق على جرائم حاصلة كان قد قدم لها الإعلام تبريراً، مواصلاً تلاعبه بالعقول، مستغلاً سيطرته على الشاشات، وكما يقول ريجيس دوبراي «إن عصر الشاشة حين يغدو مسيطراً أينما كنا ستكون فضيلته الفساد ومنطلقه الامتثالية وأفقه عدمية مكتملة».

سفينة المسلمين في العيد

■ علي بن أحمد المطاع

العيدُ ما العيدُ والإسلام في فُلْكِ
وموجة البغي تعلو فوق قاربنا
قد أظلمت في سمانا الغيم واعترض الـ
كم عابدٍ ذاكرٍ لله قيل له
قف، لا كلام ولا تصوير حادثةٍ
وكُبَّ في السجن مرمياً إلى زمنٍ
وما جنى ذلك الداعي على أحدٍ
تجري السفينة والأعياد كاسفةٌ
ما دام في كبد العاني الجراحُ وفي
وطفلة دمعها يجري على وجنٍ
العيد، ما العيد؟ والآمال مُطرقة
لم يُكْتَرَثْ فيه أن يُلْقى به هزواً
ما العيد إن كان ديني وسط غربته
عيَّت لساني وخارت دون محبرتي
وعبرتي ذرفتْ حُزْناً على زمنٍ
وابيضَّ أسْودُ عيني والفؤادُ بكى
فليت لي عمراً أو سعداً أو بطلاً

تروع الناس فيه عواصف الشركِ
والريح تعصف بالبهتان والإفكِ
إعصارُ يقلع ما يلقاه في الفلكِ
لما دعا للإله: اليوم لا تحكِ
ولا ادِّكار صلاح الدين أو زنكي
ظلماً على ظُلَمِ النسيان والتَّركِ
ولا على نفسه بل سيق بالشكِّ
ما دام ذو فاقة في رحبها يشكي
صدر اليتيم أنينٌ دائمُ الفركِ
وحرقة الأم أمست قلبها يبكي
وسيدُ القومِ بات وديعَةَ (الشبكِ)
فالقردُ في الدارِ والآسادُ في (السيركِ)
ما العيد إن لم تقضقض بنية الشركِ
عجزت عن نظمِ قولٍ جيدِ السبكِ
ولَّى فخرَّ بناءُ العرش والملكِ
أسىً لما لقيا من عيشةِ الضنكِ
يعلي سبيل الهدى بفرنده المنكي

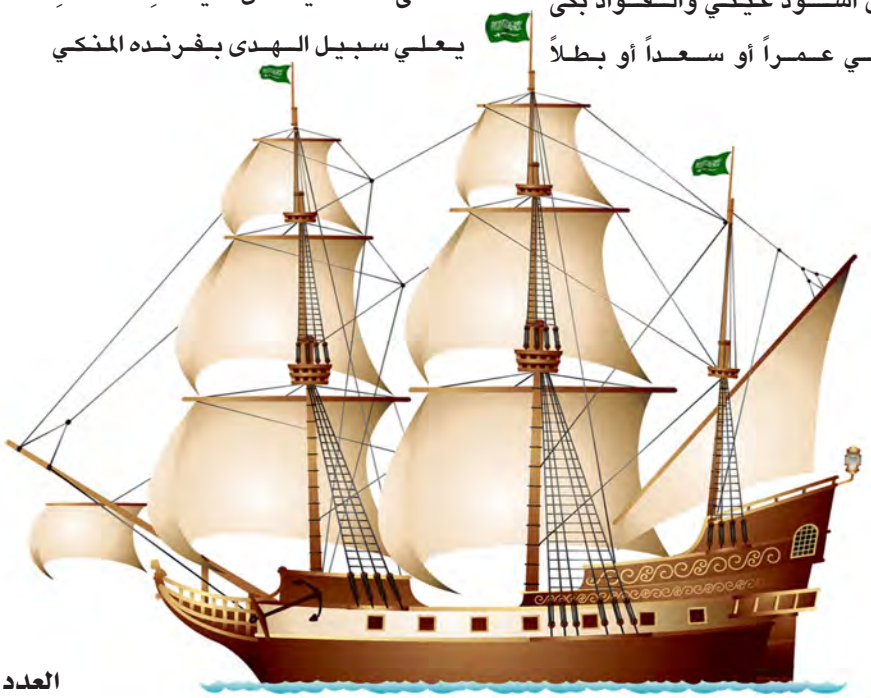

نشأة الشيعة عند المستشرقين

■ د. فرست مرعي
farsatmarie@yahoo.com

مما لاشك فيه أنه عند البحث عن الجذور التاريخية لأصل الشيعة ونشأتهم، فهي كغيرها من الفرق التي خرجت على منهج أهل السنة والجماعة؛ خضعت لتأثيرات أجنبية مختلفة: مجوسية، ويهودية، ومسيحية، وغنوصية.

وبناء على ما تقدم من الضروري بمكان الاطلاع على أفكار المستشرقين فيما يخص النظريات التي قيلت حول أصل ونشأة التشيّع؛ لأن كتّاب الشيعة يعتقدون أن غالبية آراء المستشرقين عن الشيعة جاءت وَفق رؤية أهل السنة! دون الالتفات إلى مناهجهم وأساليبهم في دراسة الفرق والحركات المهرطقة (أصحاب البدع) استناداً إلى مصادر الملل والنحل لأهل السنة والشيعة على حد سواء، فضلاً عن التطور التاريخي في العقائد الشيعية وانتحالها الأفكار الوثنية الإغريقية والمجوسية، وهذا ما جعله يحمل بين ثناياه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة التي حلّت محل بعض الأفكار الإسلامية، على حد تعبير المستشرق السويسري آدم ميتز.

ومن جانب آخر، فـإن كتّاب الشـيعة يثمنون عالياً كتابـات بعض المستشـرقين ويعدونهـم رواداً في مجال التشـيع والعرفان، أمثال الفرنسـيين لويس ماسـينيون وهنـري كوربان؛ لأنهم عدوا ولاية علي وأبنائه هي النبوة الباطنية، بعكس النبوة الحقيقية على أنها ظاهرية فقط. فـي الوقت الـذي يهاجمون فيه كتابـات جوبينيو وفون كريمـر وفريدلاندر وكولدزيهر ومارجليـوث وبروكلمان؛ لأنهم شـككوا في أهم سـند يعتمدون عليه في الترويج لعقيدتهم، وهو الوصية المزعومة يوم (غدير خم)، أي أنهم انتقائيـون في اختيار المستشرقين الذين تروق كتاباتهم لما يعزز أركان عقيدتهم في الوصية والإمامة، دون الالتفات إلى كتابات المستشـرقين الذين يهاجمون القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ الإسلامي.

فقد كتب المستشرق النمسـاوي فون كريمر في عام ١٨٦٨م عـن "التعصب المفرط للشـيعة وعـدم تحمّلهم لغيرهم مـن أتباع الطائفـة المحمديـة"، وبالمثل اعتبر المستشرق المجري اليهودي كولدزيهر المتوفى سنة ١٩٢١م "حرص الشـيعة علـى عدم الاحتـكاك بالآخر المختلف ديناً وعقيدة خوفاً من نجاسـته بمثابة استمرار للتقاليد الزرادشتية واليهودية".

ويضيف كولدزيهر في كتابه (العقيدة والشـريعة في الإسلام) بهذا الصدد: "إن الشيعة كانت على وجه الدقة المنطقـة التي نبتت فيها جراثيم السـخافات التي حللَت وقضت على نظرية الألوهية في الإسلام".

لذلك من الأهمية بمكان التطرق إلى هذه النظريات لمعرفة التطور التاريخي في نشـأة التشـيّع وتبلورها من فكرة إلى حزب سياسـي وفرقة ومن ثم طائفة لها رؤيتها الخاصة تدريجياً لما حدث فـي التاريخ، وفي نظرهم أن التاريخ الخارجي للمسـلمين – تاريخ السلطة السياسية (= الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون والعثمانيون) –؛ مختلف عن التاريـخ الداخلي الحقيقي، الذي هو في نظر الشـيعة المحافظة على الحقيقة التي كشـف عنها الأئمـة المتتابعون، وتم نقلها حسـب نظرية الإمامة التي تطـورت تدريجياً ابتداءً من القرن الثالث الهجري.. ومن هذه النظريات:

أولاً: القائلون بالأصل الفارسي

حـاول عدد من المستشـرقين الأوروبيـين: جوبينو الفرنسـي، وإدوارد البريطاني، والفرنسـي دار مستتر، والإيطالي جويـدي، والهولنديون دوزي وأوجسـت ملّر وفون كريمر؛ ربط التشيع بأصل فارسي، فيذهب جوبينو ومعه براون إلى "أن العقيـدة المتعلقة بالحق الإلهي التي أودعت في الأسـرة الساسـانية، كانت ذا أثر عظيم في تاريخ الفرس والتشيع، فلقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متماشـية مع ديمقراطية العرب، غيـر أنها لا يمكن أن تظهـر في نظر الفـرس إلا بمظهر ثـوري غير مطابق لطبيعة الأشياء"، ويبرر هذه النقطة المستشرق الدانماركي كريستنسن المتوفى سنة ١٩٤٥م في كتابه القيّم (إيران في عهد الساسـانيين)، بقوله: "إن الديمقراطية التي أدخلها الإسلام في إيران هي السبب في تدهور النظام الإيراني القـديم (نظام الطبقات)، فقد أدت إلى القضاء تدريجياً ونهائياً على طبقات الأشـراف"، بعدها يعلق كريستنسن بأن طبقات الأشـراف الإيرانيين كانت أساس الحضارة في العهد الساساني وضُيّعت الصفات التي كانت تميزهم عن غيرهم.

يقول الدبلوماسـي الفرنسـي جوزيف آرثر جوبينيو الذي خدم كدبلوماسـي فرنسي في إيران منتصف القرن التاسع عشر: "إن الملالي الفرس حاولوا من خلال التشيع الاحتفاظ بصور القديسين في الديانات الفارسية القديمة؛ حتى لا يفقدوا امتيازاتهم، لأنهم الورثة الشرعيون للكهنة الزرادشـتيين، وأن كافة المنظومة الشـيعية ليست سوى تلفيقاً جيد التنظيم لاستعادة نفوذهم، وشكلاً من أشكال الاعتراض المبطن على الغزو العربي لأراضيهم".

أما المستشـرق الهولندي دوزي المتوفى سنة ١٨٨٣م، فهو يذكر بهذا الصدد: "كانت الشيعة في حقيقتها فرقة فارسـية، وفيها يظهر أجلى ما يظهر ذلـك الفارق بين الجنس العربي الذي يحب الحرية، وبين الجنس الفارسي الذي اعتاد الخضوع كالعبيـد. كان مبدأ انتخاب خليفة للنبي أمراً غير معهـود ولا مفهوم؛ لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم، لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمد لم يتـرك ولداً يرثه، فإن عليّاً هو الذي كان يَجب أن يخلفه، وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية في آل علي.. ومن هنا،

فإن جميع الخلفاء ما عدا عليّاً كانوا في نظرهم مغتصبين للحكم لا تجب لهم طاعة. وقوّى هذا الاعتقاد عندهم كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية، فكانوا في الوقت نفسه يلقون بأنظارهم النهمة إلى ثروات سادتهم، وهم قد اعتادوا أيضاً أن يروا في ملوكهم أحفاداً منحدرين من أصلاب الآلهة الدنيا، فنقلوا هذا التوقير الوثني إلى علي بن أبي طالب وذريته. فالطاعة المطلقة للإمام الذي من نسل علي، كانت في نظرهم الواجب الأعلى حتى إذا ما رأى المرء هذا الواجب استطاع بعد ذلك بغير الأئمة أن يفسر سائر الواجبات والتكاليف تفسيراً رمزياً وأن يتجاوزها ويتعدّاها. لقد كان الإمام عندهم هو كل شيء، إنه الله قد صار بشراً، فالخضوع الأعمى المقرون بانتهاك الحرمات ذلك هو الأساس في مذهبهم".

وعلى نحو مشابه يتحدث المستشرق الألماني أوجست ملر المتوفى سنة ١٨٩٢م، ويضيف إلى هذا القول: "بأن الفرس كانوا تحت تأثير الأفكار الهندية قبل الإسلام بعهد طويل ويميلون إلى القول بأن الشاهنشاه (= ملك الملوك) هو تجسيد لروح الله التي تنتقل في أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء".

ويرى المستشرق الفرنسي دار مستتر: "أن العناصر الفارسية التي اعتنقت الإسلام ظاهرياً أدخلت في الإسلام الفكرة الهندية – الآرية التي تقول بالعائلة الإلهية المختارة، التي تنقل في أصلابها النور الإلهي جيلاً بعد جيل منتهية بـ (الساوسخايانت)، هذه الفكرة أدخلت في الإسلام وتبلورت في آل البيت وشخص علي".

أما المستشرق الإيطالي جويدي المتوفى سنة ١٩٣٥م، فيضيف إلى رأي سابقيه القول بأن: "انتشار هذه الأفكار الغالية كان نتيجة حملة دعاية إيرانية ثنوية (= مجوسية) منظمة لهدم الإسلام".

وبخصوص المستشرق السويدي نيبرغ المتوفى سنة ١٩٧٤م، فإنه يقول في مقدمة كتابه (الانتصار): "إن الشيعة كانت محل امتزاج الثنوية بالإسلام خاصة، إذ إن أفكارها من المناسبة لآراء الثنوية ما لا يخفى، مثال ذلك قولها في أئمتها وتجسيمها الذي هو أقرب شيء إلى تجسيم الثنوية، ثم ثبت على كثير من رجالها أنهم جمعوا بين الرفض والزندقة".

فيما يحاول المستشرق الفرنسي هنري ماسيه المتوفى سنة ١٩٦٩م، إمساك العصا من الوسط بقوله: "قد يكون هناك فائدة في التذكير بأن المذهب الشيعي ذو أصل عربي (وليس إيرانياً) من الناحية السياسية... دون أن نتكلم عن التفاصيل التي تجعلنا نقبل بوجود تأثيرات زرادشتية وأفلاطونية حديثة ومانوية، الأمر الذي نسب أحياناً إلى المذهب الشيعي أصلاً إيرانياً، وعدا ذلك... فهناك حيث انتشر في تلك البلاد (= إيران) ولم يكن دون تأثير في تجمع الفرس حول المذهب الشيعي، وهو أن الحسين بن علي (شهيد كربلاء) كان قد تزوج ابنة آخر ملك ساساني فارسي (= يزدكرد الثالث)، وكانت قد أسرت أثناء الفتح، وبهذا الحديث استفاد أعقاب علي من شرعية مزدوجة (من بيت الرسالة ومن أسرة ساسان)".

والظاهر في هذه النظرية أنها اعتمدت على أقوال بعض كتّاب المقالات (الملل والنِحل) ممن صوروا حركات الإيرانيين والشيعة الغلاة (= الذين ألّهوا علياً)، على أنها محاولات احتمت بآل البيت لهدم الإسلام من الداخل، وذلك عن طريق تقويض عقيدته، فيروي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ أن: "السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم (= الدولة الفارسية الساسانية) على أيدي العرب (= المسلمين)، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً؛ تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يُظهر الله الحق..."، فرأوا أن كيدهم على الحيلة أنجح، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علي، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى. وهذا الرأي أورده ابن حزم من قبل، فقال: "رأوا أن الكيد للمسلمين على الحيلة أنجح، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل بيت رسول الله واستشناع ظلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسلكوا بهم مسالك مختلفة حتى أخرجوهم عن الإسلام".

ثانياً: القائلون بالأصل اليهودي

ومن أشهر القائلين به المستشرق الألماني فلهوزن المتوفى سنة ١٩١٨م، الذي بنى نظريته على رواية وردت في الطبري، ويرى لها أصحابها سنداً فيما جاء في كتب المقالات، خاصة ما جاء على لسان الشَّعبي المتوفى سنة ١٠٤هـ، وما ذكره الإسفراييني المتوفى سنة ٤١٨هـ، وابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ، والشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ، نقلاً عن الشعبي في قوله: "أحذرك الأهواء المضلة، شرّها الرافضة، فإنها يهود هذه الأمة؛ يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية، ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله، لكن مقتاً بأهل الإسلام وبغياً عليهم، وقد حرقهم علي بن أبي طالب ونفاهم إلى البلدان... ذلك أن محبة الرافضة محبة اليهود. قالت اليهود: لا يكون الملك إلا في آل داود، وقالت الرافضة: لا يكون الملك إلا في علي بن أبي طالب، وقالت اليهود: لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر وينادي منادٍ من السماء، وقالت الرافضة: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل سبب من السماء. واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة... إلخ".

وهذا ما دعا المستشرق فريدلاندر إلى سوق العديد من الحجج في دراسته المشهورة بعنوان (عبد الله بن سبأ، مؤسس الشيعة، وأصله اليهودي)، والفكرة قائمة على أن دور عبد الله بن سبأ الرئيسي لم يكن في تأليه علي، بل في إنكار موته قائلاً "إنه لم يمت في الحقيقة، وإنما شبه للناس ذلك، وإنه سيرجع من السحاب". والفكرة أصلها ترجع إلى يهود اليمن وما يقوله الفلاشا في الحبشة من اليهود الذين تصوروا المسيح المنتظر هكذا.

ويؤكد هذا القول (النوبختي الشيعي) المتوفى سنة ٣١٠هـ في كتابه (فرق الشيعة) عن أخبار عبد الله بن سبأ بقوله: "وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي عليه السلام أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً عليه السلام وكان يقول على يهوديته في (يوشع بن نون) وصي موسى على نبينا وآله وعليهما السلام بالغلو فقال في إسلامه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام بمثل ذلك، وهو أول من أشهر القول بفرض إمامة علي عليه السلام وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه". يقول النوبختي: فمن هنا قال من خالف الشيعة إن أصل الرفض مأخوذ من اليهود.

ويتفق معه ابن حزم فيذكر أن: "هؤلاء (الكيسانية) صاروا في سبيل اليهود القائلين بأن ملكي صادق بن عامر.. والعبد الذي وجهه إبراهيم (عليه السلام) ليخطب ريقا بنت بنؤال.. وإلياس (عليه السلام) وفنحاص بن العازار بن هارون (عليه السلام) أحياء إلى اليوم"، وهو بهذا يشير إلى العقيدة المشتركة عند الغلاة القائلين بأن "الإمام ما مات ولن يموت ولا بد له أن يظهر ليملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً".

ثالثاً: نظرية الأصل اليهودي - المسيحي المشترك

والقائلون بهذه النظرية جمع من المستشرقين، من أشهرهم: المجري كولدزيهر، والبريطاني فريدلاندر؛ فيرى كولدزيهر أن "فكرة الرجعة تسربت إلى الإسلام عن طريق المؤثرات اليهودية - المسيحية، فعند اليهود والنصارى أن النبي إيليا قد رفع إلى السماء وأنه لا بد أن يعود إلى الأرض في آخر الزمان لإقامة دعائم الحق والعدل، ولا شك أن إيليا هو الأنموذج الأول لأئمة الشيعة المختفين الغائبين الذين يحيون لا يراهم أحد والذين سيعودون يوماً كمهديين منقذين للعالم".

أما المستشرق البريطاني فريدلاندر فيرى أن التشيع قد استمد أفكاره الرئيسة من اليهودية من حيث استمد منها فكرة المهدية، واستمد من المسيحية فكرة الموت الظاهري (الدوسيتزم) التي دخلت إلى الدوائر الإسلامية! (= التشيع والتصوف الغالي) بتأثير الديانة المانوية التي نادى بها النبي الإيراني ماني المقتول سنة ٢٧٦م، الذي مزج بين المجوسية والمسيحية وأعطى هذه الهرطقة (= البدعة) الجديدة شكلاً محدوداً، فالمسيح في هذه العقيدة المانوية ليس له حقيقة واقعة، فحياته كلها ومماته وتعميده وآلامه من أجل التكفير عن خطايا البشر، كل ذلك كان قضية ظاهرية لا حقيقة لها، فالشخص الذي ربط على الصليب - في رأيهم - لم يكن المسيح

بعينــه، وإنما كان عميلاً للشــيطان الذي أراد أن يوقف نشــاط المســيح فربطه المســيح على الصليب عقاباً له على ســوء سلوكه، أما المســيح فإنه اختفى وسيعود في المستقبل. وهذا شبيه بما كان يراه الشيعة الغلاة من أن الإمام لم يمت وإنما بدا للناس ذلك، وأنه اختفى وسيعود في الوقت المناســب قبل يوم القيامة؛ لإعادة العدل إلى الأرض بعــد أن ملئت جوراً، وإن من مات كان شــيطاناً تصور بصورة الإمام.

ويؤكد هــذا المفهــوم المستشــرق هنري ماســيه بقولــه: "... بعض عناصــر المذهب الديني الشــيعي، وخصوصــاً قاعدتــه الثيوقراطيــة والاعتقــاد برجعة الإمام المختبئ (= المهــدي المنتظر)؛ يبدو أنها يهودية – مسيحية".

وما له صلــة بالموضوع، أو ربما، اطلع المستشــرق (فريدلنــدر) على ما رواه العالم الأشــعري عبد القاهر البغــدادي المتوفى ســنة ٤٢٩هـ في كتابــه (الفرق بين الفرق) عن الســبئية قوله: فلما قتل علي رضي الله عنه زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً، وإنما كان شيطاناً تصور للناس في صورة علي، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيســى بن مريم عليه السلام. قال: كما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيســى، كذلك كذبت النواصب والخوارج فــي دعواها قتل علي، وإنما رأت اليهود والنصارى شــخصاً مصلوباً شبّهوه بعيسى، كذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلاً يشــبه علياً، فظنوا أنه علي، وعلي قد صعد إلى الســماء، وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه.

رابعاً: القائلون بالأصل العربي

ومــن أشــهر الداعين لــه المستشــرق البريطاني (مونتكمري واط)، الذي يرى أن حركة الفتوحات الكبرى ســبّبت نوعاً من القلق الروحــي والمادي، ما أدى إلى أن يفكــر البعض في (الخلاص) مــن الوضع الراهن الذي كان الناس يقاســون منه عن طريــق توقع زعيم أو قائد سياسي له من القدرات الروحية الفائقة ما يتمكّن معها من تخليص البشر مما يعانونه منها. ويؤيد نظريته هذه بدليلين، هما:

١- إن الدوائــر الشــيعية على اختــلاف فيما بينها نظرت إلى الإمامة باعتبارها قضية دينية، وليســت من المصالح العامة التي تفوض إلى الناس، وإن الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فالإمامة وراثة روحية.

٢- إن رجال الشــيعة الأوائل كانــوا من عرب اليمن الجنوبيــين، وكانــت اليمن أرض ســلالات الملوك الذين يتوارثون الحكــم، وكانوا يتصفون بصفات روحية تجعلهم رأس السلطتين الروحية والزمنية (مِزوَد). ثم يقول: "ومع أن الإسلام لا يشجع الملكية الوراثية؛ إلا أن كون هؤلاء من عــرب الجنوب ممن اعتادوا تقديــس الملوك يحملنا على الاعتقاد بتأثرهم بماضيهم التاريخي في هذا الخصوص".

خامساً: النظرية الغنوصية

الغنوص لفظة يونانية تعني المعرفة، والغنوصية هي مذهب العرفان الذي يضم خليطاً من المذاهب الفلسفية: الهرمسية الإســكندرية، والفلسفة الأفلاطونية المحدثة، والفيثاغوريــة، والرواقية، والقبالــة اليهودية، والأفكار الثنوية المجوســية، وطروحات فلاســفة حران، إضافة إلى الميراث الهندوســي – البوذي. ومن أشــهر القائلين بهذه النظرية: المستشــرق الفرنســي لويس ماسينيون المتوفى ســنة ١٩٦٢م، والمستشرق الفرنسي الآخر هنري كوربان المتوفى سنة ١٩٧٨م؛ وقد توصل الاثنان إلى نفس النتيجة؛ الأول عن طريق اطلاعه وتمرســه في ظاهرة التصوف والحلول عند الحلاج المقتول سنة ٣٠٩هـ على يد الخلافة العباسية بتهمة القرمطية والتجسس لصالح الدولة العبيدية (الفاطمية)؛ والثاني عن طريق دراســته التصوف الإشراقي عند السهروردي المقتول عام ٥٨٧هـ علــى يد الأيوبيــين بتهمة الزندقة، فضلاً عن التشــيع الإيراني، ومكوثه من أجل ذلك عدة ســنوات في إيران، حيث ترأس معهد الدراسات الإيرانية خلفا لماسينيون من ١٩٥٤ لغايــة ١٩٧٣م، فضلاً عن إقامة علاقات صداقة وزمالة مــع عديد من رجال الدين الشــيعة والفكر في إيران، حتى يقال إنه تقمص التشــيع. وبهذه المناسبة لا بد من الإشارة إلى قول الفيلسوف المصري عبد الرحمن بــدوي بحق كوربان عنــد تناوله كتــاب الأخير (تاريخ الفلسفة الإسلامية): "وفي هذا الفصل (= الكتاب) بالغ مبالغة شديدة في إبراز نصيب الفكر الشيعي، وأجحف بالفكر السني إجحافاً غريباً".

صدر حديثاً

مجلة البيان

موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة

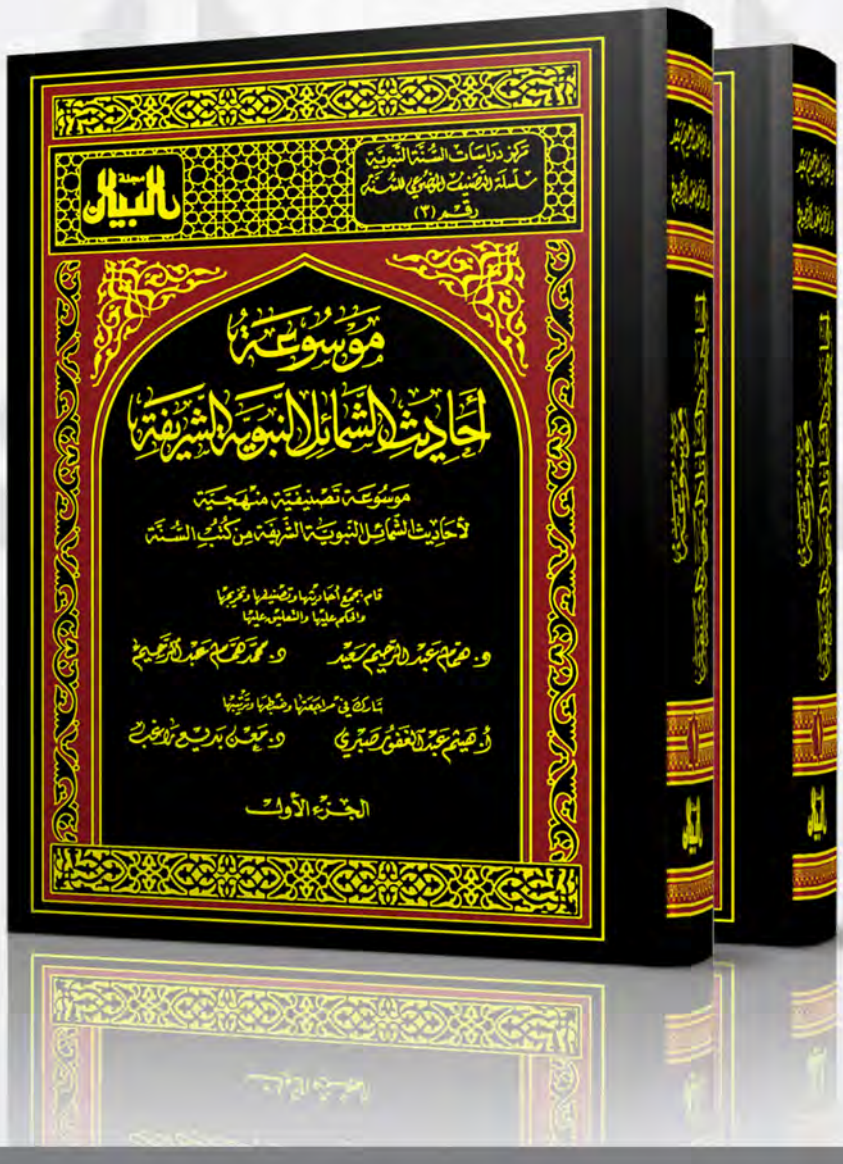

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٣٢٢٠٦١٦

أحاديث وأسمار

كتاب يجمع بين الفائدة والمتعة

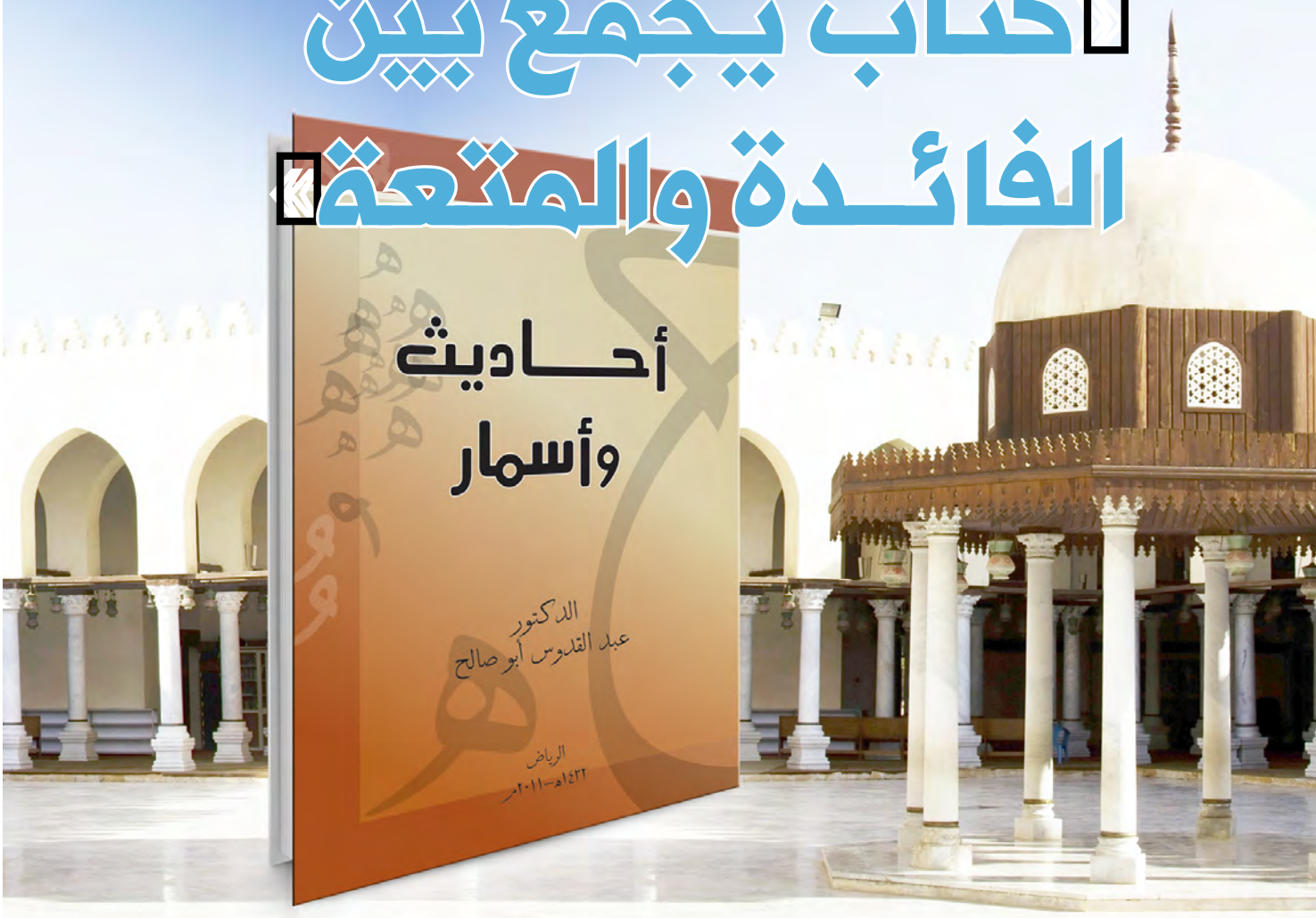

■ شمس الدين درمش

الكتب المفيدة كثيرة، وتوجد كتب تقصد إمتاع القارئ وتسليته فحسب، مثل: كتاب الأذكياء، وكتاب الحمقى والمغفلين لابن الجوزي.. وتوجد كتب تجمع بين المتعة والفائدة، من أمثال: يتيمة الدهر للثعالبي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وأدب الدنيا والدين للماوردي.

ومن المعاصرين المعروفين لدينا، تعدّ كتب الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - من النوع الثالث المفيد الممتع بتفرّد أسلوبه، وسعة اطلاعه، وتنوّع موضوعاته.

وأصنف كتاب (أحاديث وأسمار) لمؤلفه الدكتور عبد القدوس أبو صالح، من هذا النوع المفيد الممتع؛ فقد جاء خفيف الظل في إيجاز موضوعاته وتنوّعها شكلاً ومضموناً، وعلى الطريقة الجاحظية في الانتقال من موضوع إلى آخر

يبعد السآمة عن القارئ، ويتجول به بين القديم والحديث، وبين الفكر والقلب؛ فهو يقدم صوراً بصرية مرة من خلال مشاهدات المؤلف الكثيرة في العالم، ويخاطب العقل من خلال اطلاعاته وقراءاته الواسعة مرة أخرى.. ويتحدث في الشعر تارة، وفي النثر أخرى، ويقدم لنا نماذج من الشخصيات العلمية والأدبية في القديم والحديث، وأخرى نماذج من الشخصيات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

وقد جاء عنوان الكتاب (أحاديث وأسمار) هادفاً إلى الفائدة في لفظه الأول، وإلى الإمتاع في لفظه الثاني.. وهو يقرب في عنوانه من كتاب (أباطيل وأسمار) للعلامة الكبير محمود محمد شاكر، وهو الذي يفتخر الدكتور عبد القدوس بالتتلمذ عليه.

ضمَّ كتاب أحاديث وأسمار بين دفتيه ٢٢١ مقالة، وهو عدد كبير نسبياً جعل صفحات الكتاب تتجاوز ٥٥٠ صفحة. وجاءت المقالات في محورين رئيسيين، هما: التراث، والمعاصرة. وتفرع كل منهما إلى دوائر جمعت موضوعات متماثلة في مضمونها، متنوعة في مفرداتها.

ففي محور التراث تحدث د. عبد القدوس عن التراث نفسه؛ أهميته وضرورة الحفاظ عليه من المخاطر التي تتناوشه، فكتب عن تراثنا الإسلامي في تركيا، ومن كنوز تراثنا المخطوط، وسلبيات نشر التراث. وكتب عن بعض الذين عنوا بالتراث من المعاصرين، مثل: محمود محمد شاكر، وفؤاد سزكين، وكلاهما من الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية، التي تناولها بمقال خاص.

وتشكَّلت المقالات في محور التراث بعد ذلك في دائرتين: الأولى عن القضايا الأدبية والنقدية، والأخرى عن الشخصيات الأدبية والنقدية.. فكتب في الأولى عن مكانة الشعر الحماسي، وشعر الرثاء الذاتي، وشعر الحنين في الأدب العربي، والحنين إلى الأوطان، وشعر الحنين إلى نجد، متدرجاً من العام إلى الخاص. وكتب عن تطور الخطابة وأسلوبها، وبين البداوة والحضارة، وأدب المواعظ، وشعر الدعاء والمناجاة، وأدب الاعتذار في النثر الفني.. وغير ذلك مما يعد قضايا موضوعية.

أما الدائرة الثانية فجمعت الحديث عن شخصيات أدبية ونقدية واجتماعية في تراثنا، منهم: أبو العباس المبرد، وأسماء بن خارجة الفزاري، وعمارة بن حمزة الكاتب، والجاحظ المتهم، والتوحيدي وحرفة الأدب، والعرجي الشاعر المضيع، والحكم بن عبدل الأسدي وهو شاعر مقل، وشاعر الثمانين عوف بن محلم الخزاعي، وشاعر قريش عبد الله بن قيس الرقيات، والبحتري الناقد، والمتنبي في تعاظمه، وأسامة بن منقذ وكاتب الاعتبار، وغير ذلك من الأسماء التي توزعت على العصور الأدبية.

وتنداح من هذه الدائرة دائرة أخرى في العناية بالإبداع الأدبي والتراث، وبخاصة الشعر؛ إذ كتب مقالات عديدة تربط إبداعاً متفرداً بشخصية مميزة، مثل: قصيدة أبي ذؤيب الهذلي، وقصيدة كعب بن سعد الغنوي، وعينية الصمة القشيري، وموعظة الجبل لابن خفاجة الأندلسي، ومقصورة ابن دريد، وقصيدة الغريب لجعفر بن بشار الأسدي، ولامية العرب للشنفري، ولامية العجم للطغرائي... وغير ذلك من أمهات القصائد التي بعضها لشعراء غير مشهورين، هادفاً لإظهار المغمور من كنوز الشعر التراثي. وتأتي بعض هذه الاختيارات موضوعية مقارنة، مثل: من مراثي الشعراء لأعينهم، ومن شعر السجن، وصور شعرية، والفرس وثلاثة شعراء، والأسد بين شاعرين.

وفي محور المعاصرة نجد عدة دوائر تجتذب الأحاديث في الأسمار، أهمها: قضية الأدب الإسلامي تعريفاً وتنظيراً ونقداً، وهي القضية التي فرّغ الكاتب د. عبد القدوس أبو صالح نفسه لها، وشغلته حتى عن متابعة كتاباته وإبداعاته الخاصة، ومن ذلك هذا الكتاب الذي رأى النور حديثاً.

وكتب في التنظير والتعريف بالأدب الإسلامي موضوعات عدة، منها: عالمية الأدب الإسلامي، ونحو أدب إسلامي ملتزم، وحدود الأدب الإسلامي، والأدب بين الإلزام والالتزام، وأدب الأطفال الإسلامي، ومسوغات الأدب الإسلامي، وشبهة المصطلح، وبين الأدب العربي والإسلامي. وما زالت هذه الموضوعات تتفاعل بين الداعين إلى الأدب الإسلامي والمعارضين على تفاوت في وجهات نظرهم التي تبدأ بمصطلح (الأدب الإسلامي) وتنتهي بوجوب التزام الأديب المسلم بما ألزمه الله به من الكلمة الطيبة!

وتحدث المؤلف عن جانب من آداب الشعوب الإسلامية، مثل: الأدب الكردي، ورواية صقور القوقاز، وعن بعض رموز

الأدب الإسلامي المعاصرين، ومنهم: أبو الحسن الندوي، وعمر بهاء الدين الأميري، ومحمد عاكف، ومحمد إقبال، ومحمد التهامي، وعلية الجعار.. فقد دعا هؤلاء إلى الأدب الإسلامي بحالهم وقالهم، وقدموا نماذج إبداعية نثرية وشعرية تمثل هذا الأدب باللغات العربية والأوردية والتركية، وهم ليسوا إلا نماذج معاصرة رائدة لهذا الأدب تحدث عنهم المؤلف لشهرتهم وذيوع كتاباتهم من قبل أن تتحول دعوة الأدب الإسلامي إلى مرحلة تأسيس رابطة عالمية له.

وفي محور المعاصرة كتب المؤلف عن قضية الأدب غير الملتزم الذي تم استغلاله للتأثير في وجدان الأجيال الناشئة، فكتب عن لغة النقد الحديث، وعن نكسة الأدب، وفي موضوع ذي صلة كتب عن قصيدة سفر أيوب لبدر شاكر السياب. ويظهر لنا اهتمام المؤلف بالفن الروائي لدى نجيب محفوظ، إذ خصص له أربع مقالات، فكتب مقالتين حول نجيب محفوظ وجائزة نوبل، ونجيب محفوظ وسطوة الشهرة، ومع ثلاثية نجيب محفوظ، ومرد هذا التأثر والاهتمام لأمرين: الأول: ريادة نجيب محفوظ للرواية العربية فنياً، وحصوله على جائزة عالمية، وللتأثير الواسع لأدبه عربياً. والثاني: كون مضمون هذا الأدب في أغلبه غير ملتزم، مع ترويجه أحياناً قيماً مخالفة للإسلام. وزاد من هذا الاهتمام تحويل أعماله من أدب مقروء إلى أدب منظور عبر السينما، ما اجتذب الجموع الغفيرة من المشاهدين في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي.

ونجد المؤلف بعد ذلك يعالج عدداً من القضايا الأدبية والنقدية العامة، وبعضها تربوية وتعليمية رافدة، ومن أمثلة هذه الموضوعات: خواطر جديدة حول محو الأمية، والأخطاء الشائعة، وأمية المثقفين، وكيف نقرأ كتاباً؟، والذوق الأدبي، وحرفة الأدب، وعلاقة الميول بالمهنة، ولماذا لا يقرأ العرب؟، والهزة الشعورية، وهجرة العقول المسلمة، وماذا يقرأ أولادنا؟، وفي كل بيت مكتبة، والفن بين التعاون والاستواء.. وغيرها من المقالات التي تخدم الثقافة العامة وتصحح مسارها ومسار الأدب والنقد المبنيّين على هذه الثقافة.

ومن أبرز محاور المعاصرة في مقالات هذا الكتاب، ما كتبه المؤلف في أدب الرحلات، فقد سجل مشاهداته في رحلاته إلى دول ومناطق عديدة، ومن أبرز هذه المقالات: بانوراما على البوسفور، ووداعاً يا كيرالا، ورحلة إلى تاج محل، ومصنع الشاي، وعلى سور برلين، وبحيرة أنترلاكن، ودعوة سياحية، وحنين النواعير، ووداعاً يا جاميلجا، وفي ربوع كيليوس، وأجواء أندلسية، وعلى ضفاف بحيرة كومو، وأيام في ماليزيا، ورحلة بحرية، وجنان الدنيا الأربع، وغابة السلطان محمد الفاتح، ومرض الطيران البعيد... وغيرها.

ولعل ما كتبه في مقالتيه: كتب المذكرات، وذكريات لا مذكرات؛ يعد إطاراً تنظيرياً لهذا النوع من الأدب الذي قدمه في لوحات جميلة مما اختزنته ذاكرته الأدبية، وباح به قلمه المعبر.. وهي في الحقيقة تمثل نماذج من الأدب الإسلامي الذي يدعو إليه الكاتب، جاءت مرسومة فيما سماه (حدود الأدب الإسلامي)، إذ عندما يقدم كاتب غير ملتزم مشاهداته من تلك الأماكن فإننا نتوقع أن ينقل صوراً غير التي نقلها د. عبد القدوس أبو صالح، ويتوصل إلى نتائج غير التي توصل إليها.

وفضلاً عما استعرضته؛ تناول المؤلف بعضاً من نماذج الأدب العالمي، مثل: رواية الساعة ٢٥، ورواية الجذور، ومغامرات مارتن توين، ومجلة المختار؛ فوصل بذلك دائرة الحديث عن الأدب والنقد قديمه وحديثه، وعربيه وإسلاميه، ومحليه وعالميه، ليشبه الكتاب بذلك مناظر الطبيعة الجميلة بألوانها التي وصفها في عدد من مقالاته.

وقبل الختام أشير إلى بعض مقالاته التربوية التي كتبها بعناوين مثل: ويلك آمن.. ومن النماذج الإنسانية في القرآن الكريم: مريم البتول، وعباد الرحمن، وصفات المؤمنين، وأخلاقنا وأخلاقهم، وكيف تقرأ القرآن؟.. وغير ذلك من المقالات التي تعبر عن التكامل المنهجي في الرؤية التربوية والتعليمية لدى الدكتور عبد القدوس أبو صالح.

وأقول أخيراً: إذا كان الكاتب قد حثَّ على القراءة، ودعا إلى العناية بها، بإنشاء مكتبة في كل بيت؛ فإن كتاب (أحاديث وأسمار) يستحق أن يكون في مكتبة كل بيت.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

من بركـــــة الحرمين

■ د. أحمد بن عبد المحسن العسَّاف
@ahmalassaf

لمكة والمدينة - زادهما الله شرفاً - تأثير كبير على نفوس الحجاج والعمّار والزوار، ولذا فكثيراً ما يتغير الإنسان إلى الأحسن بعد زيارتهما والعيش في كنفهما إثر أداء ركن عظيم أو عبادات جليلة. وقد لاحظ المحتل الكافر أثر الحرمين على الشعوب المسلمة؛ فسعى الإنجليز - مثلاً - إلى استصدار «فتوى» تحرّم الحج على الهنود بدعوى مشقة الرحلة وكلفتها وصعوبة الوصول وخشية الأمراض المنتشرة... إلى غير ذلك من أسباب - بعضها - واهية، لكنها وجدت مَنْ يفتي بها!

وســـار على هذا المنوال الخبيث الطغـــاة الذين ابتليت بهم أمة الإســـلام، فوضعوا العراقيل والصعوبات للحيلولة دون شعوبهم والرحلة للحرمين، فلا يكاد الواحد منهم ينعم بفرصة حج أو زيارة إلا بعد بلوغه سناً أقرب إلى الشيخوخة منها إلى الشـــباب، وبالتالي يكون أثر الرحلة مقصوراً على فئة عمرية أثقلتها السنون بهموم الحياة والمعاش، وانصرفوا عن همّ الدين والأمة في غالب شأنهم.

وإذا كان الأثر كذلك مع عامة المسلمين، فهو آكد في حق الخاصة من أهل العلم والفكر والريادة؛ لأن لديهم من الوعي ما يجعل الرحلة للحرمين غير قاصرة على أداء الشعيرة مع عظمها، فتجدهم يهتبلون هذه الفرصة للقيا من قد يصعب لقاؤه في غير تلك المشـــاعر المقدســـة والمواضع الطاهرة، وينهلون من علم الأشياخ، أو ينشرون علمهم وما يمتازون به من فنون، وكم من عالم مغربي تجده شيخاً لمشارقة، أو عالم مشرقي يكون شـــيخاً لمغاربة، ومكان التتلمذ والتلقي بينهم في رحاب الحرمين الشريفين. ولم يقتصر الأمر على حمل

العلوم وأدائها، بل تجاوزه إلى غير ذلك مما لا يستغرب لبركة المكان وربما الزمان.

فقد نـادى المجاهد أحمد بن عرفـان في الناس بالحج سنة ١٨٢٢م، وأرسل الكتب إلى أنحاء الهند لحث العلماء على الالتحاق بحملته، وأعلن أنه سيتكفّل بنفقات من ليس له زاد، وغايته بعث شعيرة الحج التي توقفت فترة من الزمن. وتجمع في حملته ٤٠٠ حاج، وتحرك الركب في شـوال ١٢٣٦، وقد حثّ رفاق حملته على التحلي بحميد الأخلاق؛ ليعرف الناس جمال دينهم ويعودوا إليه، وقـال: «إنني لأرجو أن يهدي الله فـي هذه الرحلة مئات الآلاف مـن الناس...». وخلال طريق الرحلـة كان داعياً إلـى الله، معلماً للنـاس، مصلحاً بينهم، قاضياً حوائجهم، ونفع الله بـه بلاد الهند والتبت. فلما عاد بـدأ حركة إحياء وجهاد ضد المحتل الإنجليزي حتى آخر يوم من حياته، تقبله الله شهيداً.

ومن أثر الحرمين الشـريفين ما كان من شـأن العلامة الجزائري محمد البشـير الإبراهيمي حين التقى - لأول مرة - بلديـه العالم المربي عبد الحميد بن باديس - رحمهما الله - فـي مسـجد النبي - صلى الله عليه وسـلم - في المدينة النبوية خلال مجاورتهما هناك، وقال الإبراهيمي واصفاً هذه اللقاءات: «كانت هذه الأسـمار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر.. وأشـهد اللـه على أن تلك الليالي من سـنة ١٩١٣ ميلادية هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين».

وفي سـير عدد من أعلام الأمة فـي القرنين الأخيرين، أثر عقدي واضح للحرمين، حيث كان انتشار الدعوة السلفية فيهما سـبباً لنشرها بين الحجاج وتصحيح النظرة إليها، وكم مـن عالم أو مجاهد أصبح سـلفي المعتقد بعد زيارة مكة أو المدينة، بل إن الشـيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب قد تأثر بلقاء علماء المدينة كالشـيخ محمد بن حياة السندي والشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سـيف، وربما أن فكرة القيام بدعوة للتوحيد الخالص قد انبثقت في تلك الرحاب الطاهرة، خاصة أن حفيده قال إن الشـيخ دعا الله فـي حجته وعند الكعبة المشرفة أن يوفقه لدعوة الناس إلى التوحيد وسلامة المعتقد.

وقد أثّرت رحلة الحج في الكاتب الأمريكي المسلم جفري لانج ودوّن تفاصيلهـا في كتابه: (الصـراع من أجل الإيمان: انطباعـات أمريكي اعتنق الإسـلام)، حيث انبهـر بالتنوع البشـري في الحج. كما كانت رحلة الحج سبباً في تصحيح أفكار الزعيم الأمريكي المسلم مالكوم إكس عن الإسلام، حيث اسـتبان له ضلالة معتقداته السـابقة وعاد إلى بلاده داعية إلى الدين الحق الذي عرفه واقتنع به في بطاح مكة الطاهرة، حيث أدى أول صلاة له وفق الهدي النبوي.

كما أن رحلة الحج التي شـرع بها الكاتب المصري محمد حسـين هيكل ووضع عنها كتاباً بعنوان: (في منزل الوحي)؛ كانت بسـبب نصيحة من عبد الكريم جرمانوس - المسـلم المجري - الذي تحسـنت حياته بعـد أن أدَّى فريضة الحج، ووصـف رحلته في كتابه عن رحلة الحـج بأنَّها: «لحظة من لحظات الإشراق».

ومن التأثير العلمي للحرمين ما كان من خبر الشيخ عبد الرحمـن الإفريقي المالي الذي حـج ودرس في مكة والمدينة واغترف من معين العلم فيهما حتى نفع الله به، وكذلك ملازمة الشـيخ بكر أبو زيد آل غيهب عشر سنين للشيخ الشنقيطي ودراسـته عليه بعض الكتب وتأثره بشيخه لغة وأسلوباً، وهذه من أعظـم مزايا قصد الحرمين الشـريفين، يقول الذهبي: «ولقـد كان من خلق طلبة الحديث أنهـم يتكلّفون الحج، وما المحرك لهم سوى لقيّ سفيان بن عيينة؛ لإمامته وعلو إسناده»، ويقول عبد الرحمن بن يحيى المعلمي: «كان من أعظم ما يهتم به العالم إذا حج الاجتماع بالعلماء والاستفادة منهم وإفادتهم، لقد كان بعض العلماء يحج ومن أعظم البواعث له على الحج طلب العلم والاجتماع بالعلماء».

ومن بركة الحج أن كان سـبباً في سكنى عدد من العلماء والقراء في رحاب الحرمين، حيث نهل من علمهم واستجازهم عدد كبير من المسلمين ما كان لهم أن يفيدوا منهم لولا اشتهار أمرهم بين الحجاج وسهولة الوصول إليهم لمن امتن الله عليه ببلوغ الرحاب المقدسـة، ومن أشـهر أولئك العالم الأصولي الرباني محمد الأمين الشـنقيطي صاحـب أضواء البيان - رحمه الله -. ويذكر الشيخ بكر أبو زيد أن ابن تيمية قد آلت إليه الإمامة في العلم والدين بعد أن أدى فريضة الحج.

هـذه أمثلة وغيرها كثيـر، وقد جعل اللـه الكعبة قبلة للمسـلمين تهوي إليها أفئدتهم، فإذا ما بلغوها ورأوها سرت فـي أرواحهم حالة شـعورية من الإيمـان والمحبة لرب هذا البيت، وكم في هذه المشـاعر الفيّاضـة من بركة وخير حين يكون معها علم راسـخ، وفهم ثاقب، وهمـة لا تخور، ونية لا تفسدها الشوائب.

الآن

يمكنك تصفح

البيان

زاوية الأخبار "IPad" Newsstand

Available on the App Store

www.albayan.co.uk